

الصَّحِيحُ

مِنْ سَيَرَةِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ (ص)

الْعَلَّامَةُ الْحَقِيقُ
السَّيِّدُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَارِي

الجزء الثالث

كتاب الصلاة

كتاب الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله



0040495

Bibliotheca Alexandrina

الصَّحِيحُ

مِنْ سَيِّئَةِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ (ص)

الصَّحِيحُ

مِنْ سَيِّرَةِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ (ص)

الْعَلَامَةُ الْمُحَقِّقُ
السَّيِّدُ جَعْفَرُ مُرْتَضَى الْعِزَّادِي

الْجُزْءُ الثَّالِثُ

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الرابعة
١٩٩٥م - ١٤١٥هـ

دار الحديث للنشر والطباعة والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٤٥ - تليكس: MCS٢٠٧٧٧ - ٢٥٩٧ ب.دغ.
ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان.



طوار السبيوة - بيروت لبنان - ص.ب: ٢٥/٤٩

الفصل الثالث:

الاسراء والمعراج

الإسراء والمعراج:

بعد بعثة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وفي اثناء المرحلة السرية، التي استمرت ثلاث، أو خمس سنوات، كان - على الأرجح - الاسراء والمعراج: الاسراء إلى بيت المقدس، حسب نص القرآن الكريم.

والمعراج من هناك إلى السماء، الذي وردت به أخبار كثيرة.

وحيث إن التفاصيل الدقيقة لهاتين القضيتين يصعب الجزم في كثير منها إلا بعد البحث الطويل والعميق. وذلك لأن هذه القضية، وجزئياتها قد تعرضت على مر الزمان للتلاعب والتزويد فيها، من قبل الرواة والقصاصين، ثم من قبل أعداء الاسلام؛ بهدف تشويه هذا الدين، وإظهاره على أنه يحوي الغرائب والعجائب، والاساطير والخرافات، لأسباب شخصية، وسياسية وغيرها. ولم يسلم من مكائد هؤلاء حتى رموز الإسلام، وحفظته وأئمة المسلمين أيضاً.

وقد حذر الإمام الرضا «عليه السلام» من هؤلاء - حسبما رُوي عنه - حيث قال لابن أبي محمود: «إن مخالفتنا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على أقسام ثلاثة: أحدها: الغلو. وثانيها: التقصير في أمرنا.

٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وثالثها: التصريح بمثالب أعدائنا.

فإذا سمع الناس الغلو فينا كفروا شيعتنا، ونسبواهم إلى القول بربوبيتنا. وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا. وإذا سمعوا مثالب أعدائنا باسمائهم ثلبونا باسمائنا وقد قال الله عز وجل: ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم^(١).

وبعد ما تقدم، فإن التعرض لبحث التفاصيل الدقيقة لقضية الاسراء والمعراج يحتاج إلى توفر تام، وتأليف مستقل؛ ولذا فنحن لا نستطيع في هذه الفرصة المتوفرة لنا أن نعطي تصوراً دقيقاً عنه.

وعلى هذا فسوف نكتفي بالإشارة إلى بعض الجوانب التي رأينا: أن من المناسب التعرض لها؛ فنقول:

متى كان الاسراء والمعراج:

إن المشهور هو أن الاسراء والمعراج قد كان قبل الهجرة بمدة وجيزة؛ فبعضهم قال: ستة أشهر، وبعضهم قال: في السنة الثانية عشرة للبعثة، أو في الحادية عشرة أو في العاشرة. وقيل: بعد الهجرة^(٢).

وفي مقابل ذلك نجد البعض يقول: إنه كان في السنة الثانية من البعثة^(٣)، وقيل في الخامسة، وقيل في الثالثة - وهو الأرجح عندنا - ولعل ابن عساكر يختار ما يقرب مما ذكرنا، حيث إنه ذكر الإسراء في أول البعثة كما ذكره عنه ابن كثير^(٤).

(١) راجع: البحار ج ٢٦ ص ٢٣٩ وعيون أخبار الرضا ج ١ ص ٣٠٤.

(٢) راجع: السيرة الحلبية، وتاريخ الخميس، وغير ذلك.

(٣) البحار ج ١٨ ص ٣١٩ عن العدد، ونقل ذلك عن الزهري في عدة مصادر.

(٤) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٠٨.

الفصل الثالث: الإسرائء والمعراج ٩

وقال مغلطاي، بعد أن ذكر بعض الاقوال: «وقيل: كان بعد النبوة بخمسة أعوام، وقيل: بعام ونصف عام. وقال عياض: بعد مبعثه بخمسة عشر شهراً^(١)».

وقال ملا علي القاري: «وذكر النووي: أن معظم السلف، وجمهور المحدثين والفقهاء على أن الاسراء والمعراج كان بعد البعثة بستة عشر شهراً^(٢)».

وقال ابن شهر آشوب: «ثم فرضت الصلوات الخمس بعد اسرائه في السنة التاسعة من نبوته^(٣)». ولكنه لم يبين لنا تاريخه باليوم والشهر.

وقال الديار بكري: «فأما سنة الاسراء، فقال الزهري: كان ذلك بعد المبعث بخمس سنين. حكاه القاضي عياض، ورجحه القرطبي، والنووي. وقيل: قبل الهجرة بسنة إلخ^(٤)».

الأدلة على المختار:

وأما ما يدل على أن الاسراء قد كان في السنوات الاولى من المبعث؛ فعدا عن الاقوال المتقدمة، ولا سيما ما ذكره الزهري والنووي، نشير إلى الامور التالية:

١ - ما روي عن ابن عباس أن ذلك كان بعد البعثة بسنتين^(٥) وابن

(١) سيرة مغلطاي ص ٢٧.

(٢) شرح الشفاء للقاري ج ١ ص ٢٢٢.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب ج ١ ص ٤٣.

(٤) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠٧.

(٥) البحار ج ١٨ ص ٣١٩ و ٣٨١ عن المناقب لابن شهر آشوب ج ١ ص ١٧٧، وتاريخ

اليقوبي ج ٢ ص ٢٦. حيث ذكر ذلك بعد المبعث، وقبل الانذار.

١٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

عباس كان أقرب إلى زمن الرسول، وأعرف بسيرته من هؤلاء المؤرخين، فإذا ثبت النص عنه قدم على أقوال هؤلاء.

ولربما لا يكون هذا مخالفاً لما تقدم عن الزهري وغيره، إذا كان ابن عباس لا يحسب الثلاث سنوات الأولى، على اعتبار: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» إنما أمر بانذار الناس بعدها.

٢ - قد ورد عن الامام أمير المؤمنين «عليه السلام»: أن الاسراء قد كان بعد ثلاث سنين من مبعثه^(١).

وهذا هو الاصح والمعتمد.

٣ - ويدل على ذلك بشكل قاطع ما روي عن: ابن عباس، وسعد بن مالك، وسعد بن أبي وقاص، والامام الصادق «عليه السلام»، وعمر بن الخطاب، وعائشة، من أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قال لعائشة - حينما عاتبته على كثرة تقبيله ابنته سيدة النساء، فاطمة «عليها السلام» -:

نعم يا عائشة، لما اسري بي الى السماء أدخلني جبرئيل الجنة، فناولني منها تفاحة، فأكلتها، فصارت نطفة في صلبى، فلما نزلت وقعت خديجة، ففاطمة من تلك النطفة؛ ففاطمة حوراء انسية، وكلما اشتقت إلى الجنة قبلتها^(٢).

(١) البحار ج ١٨ ص ٣٧٩ عن الخرائج والجراح.

(٢) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٨٧، والمواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٩، ومقتل الحسين للخوارزمي ص ٦٣/٦٤ وذخائر العقبى ص ٣٦، وميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٩٧ و١٦٠، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٦٥، وتلخيصه للذهبي، وجمع الزوائد ج ٩ ص ٢٠٢، ونبايع المودة ص ٩٧، ونزهة المجالس ج ٢ ص ١٧٩، ومناقب المغازي ص ٣٥٨ والبحار ج ١٨ ص ٣١٥ و٣٥٠، ٣٦٤، ونور الأبصار ص ٤٤ و٤٥ وعلل الشرائع ص ٧٢، وتفسير القمي ونظم درر السمطين ص ١٧٦ ومحاضرة =

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ١١

ومعلوم مما سبق: أن فاطمة قد ولدت بعد البعثة بخمس سنوات؛ فالإسراء والمعراج كانا قبل ذلك بأكثر من تسعة أشهر، ولعله قبل ذلك بستين. حتى أذن الله لتلك النطفة بالظهور، والاستقرار في موضعها.

٤ - إن سورة الإسراء قد نزلت في أوائل البعثة، ويدل ذلك:

ألف - ما رواه البخاري وغيره، من أن قوله تعالى في سورة الإسراء: «ولا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها» قد نزل بمكة، ورسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» مخفف. كان إذا صلى باصحابه رفع صوته بالقرآن؛ فإذا سمع المشركون سبوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به الخ^(١).

ومعلوم: أن اختفاء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في دار الأرقم إنما كان في أوائل البعثة.

واجاب المحقق السروحاني على ذلك، بأن من الممكن أن يكون «صلى الله عليه وآله وسلم» حينئذٍ مختفياً في شعب أبي طالب.

ولكن، لنا أن نناقشه بأن شعب أبي طالب لم يكن محل اختفاء لهم، وإنما كانوا محاصرين فيه، فالتعبير بالاختفاء يدل على أن ذلك قد كان في أوائل البعثة.

= الأوائل ص ٨٨ وملحقات إحقاق الحق للمرعشي ج ١٠ ص ١ - ١١ عن بعض من تقدم، وعن: أرجح المطالب ص ٢٣٩، ووسيلة المال ص ٧٨/٧٩، وإعراب ثلاثين سورة ص ١٢٠، وكنز العمال ج ١٤ ص ٩٧ وج ٣ ص ٩٤، ومفتاح النجا ص ٩٨ مخطوط وأخبار الدول ص ٨٧ - وعن ميزان الاعتدال ج ١ ص ٣٨ و٢٥٣ وج ٢ ص ٢٦ و٨٤. والدر المنثور ج ٤ ص ١٥٣ عن الطبراني والحاكم.

(١) صحيح البخاري طبع سنة ١٣٠٩ ج ٣ ص ٩٩، والدر المنثور ج ٤ ص ٢٠٦ عنه وعن: مسلم وأحمد والترمذي، والنسائي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والطبراني والبيهقي.

١٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ووجود هجوم في سورة الاسراء على عقائد المشركين، لا يضر؛ اذا كانت السورة قد نزلت في اوائل البعثة.

ب - ما ذكره البعض في مقال له^(١) من أن سورة الإسراء قد نزلت بعد الحجر بثلاث سور^(٢) وسورة الحجر قد نزلت في المرحلة السرية. وفيها جاء قوله تعالى: «فاصدع بما تؤمر، واعرض عن المشركين». الامر الذي تسبب عنه الجهر بالدعوة واطهارها.

وايراد المحقق الروحاني هنا بان في السورة ما يدل على وجود الصدام بين النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» والمشركون. وهذا الصدام إنما حصل بعد الاختفاء في دار الأرقم، وبعد الاعلان بالدعوة.

يجاب عنه بما تقدم، من أن من غير البعيد ان تكون هذه السورة قد نزلت تدريجاً؛ فبدأ نزولها في اول البعثة. ثم اكملت في فترة التحدي والمجابهة بين النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» والمشركون.

ويدل على قدم نزولها أيضاً قول ابن مسعود عن سور الاسراء، والكهف، ومريم: انهن من العتاق الاول، وهن من تلادي^(٣).

وابن مسعود ممن هاجر الى الحبشة، ورجع منها، والنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يتجهز الى بدر^(٤).

إلا أن يقال: إن ابن مسعود إنما هاجر الى الحبشة بعد الطائف، أي في الهجرة الثانية، لا في الاولى؛ فلاحظ؛ فان ذلك لا يلائم قوله: انهن

(١) راجع: مجلة الوعي الإسلامي المغربية عدد ١٦٣ ص ٥٦.

(٢) راجع: الاتفاق ج ١ ص ١١، وتاريخ القرآن للزنجاني ص ٣٧.

(٣) صحيح البخاري ج ٣ ط سنة ١٣٠٩ ص ٩٦ والدر المشورج ٤ ص ١٣٦ عنه وعن ابن الضريس وابن مردويه.

(٤) فتح الباري ج ٧ ص ١٤٥.

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ١٣

من العتاق الأول.

٥ - ان سورة النجم التي يذكرون انها تذكر المعراج في آياتها - قد نزلت هي الأخرى في اوائل البعثة؛ فانها نزلت بعد اثنتين او ثلاث وعشرين سورة، ونزل بعدها اربعة وستون سورة في مكة^(١)، وسيأتي في قصة الغرائق المكذوبة او المحرفة: أنهم يقولون: إنها انما نزلت بعد الهجرة الى الحبشة بثلاثة اشهر. والهجرة الى الحبشة إنما كانت في السنة الخامسة.

بل لقد قيل: إن سورة النجم هي اول سورة اعلن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بقراءتها؛ فقرأها على المؤمنين والمشركين جميعاً^(٢).

وإن كان من الممكن النقاش في كون آيات سورة النجم ناظرة الى المعراج، كما سيأتي ان شاء الله تعالى.

٦ - ويؤيد كون هذه القضية قد حصلت في اوائل البعثة: انه حين عُرج به «صلى الله عليه وآله وسلم» صار الملائكة يسألون: أو قد أرسل إليه؟^(٣). فان هذا يشير إلى أن ذلك إنما كان في أول بعثته «صلى الله عليه وآله وسلم» لا بعد عشرة أو اثنتي عشرة سنة، فان أمره «صلى الله عليه وآله وسلم» كان قد اشتهر في أهل السماوات حينئذ. بل يمكن أن يكون قد اشتهر ذلك منذ الايام الاولى من البعثة.

٧ - ما يدل على أن الاسراء قد كان قبل وفاة ابي طالب: فإن بعض الروايات تذكر أن أبا طالب (ره) قد افتقده ليلته، فلم يزل يطلبه حتى وجده، فذهب إلى المسجد، ومعه الهاشميون، فسل سيفه عند الحجر، وأمر

(١) راجع الانتقان ج ١ ص ١٠ - ١١ و ٢٥.

(٢) تفسير الميزان مجلد ١٩ ص ٢٦.

(٣) مجمع الزوائد ج ١ ص ٦٩/٧٠ عن البزار والمواهب اللدنية ج ٢ ص ٦، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣١٠.

١٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الهاشميين باظهار السيوف التي معهم، ثم التفت إلى قريش، وقال: لولم أره ما بقي منكم عين تطرف. فقالت قريش: لقد ركبنا منا عظيماً^(١)

٨- ما روي من أن جبرئيل قال للنبي حين رجوعه: حاجتي أن تقرأ على خديجة من الله ومني السلام^(٢).

٩- وعن عمر: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قال: ثم رجعت إلى خديجة، وما تحولت عن جانبها^(٣).

فكل ذلك يدل على أن هذا الحدث قد كان قبل وفاة شيخ الأبطح، وأم المؤمنين خديجة «رحمها الله» وهما قد توفيا في السنة العاشرة من بعثة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، فكيف يكون الاسراء والمعراج قد حصل في الحادية عشرة أو الثانية عشرة أو بعدها؟!.

تسمية أبي بكر بالصديق

إنه إذا تأكد لنا: أن الاسراء والمعراج كان في السنة الثالثة من البعثة. أي قبل أن يسلم من المسلمين أربعون رجلاً؛ فأننا نعرف: أن الاسراء كان قبل اسلام أبي بكر بمدة طويلة؛ لأنه كما تقدم قد اسلم بعد أكثر من خمسين رجلاً، بل إنما اسلم حوالي السنة الخامسة من البعثة، بل في السابعة أي بعد وقوع المواجهة بين قريش وبين النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أو بعد الهجرة إلى الحبشة فهو أول من أسلم بعد هذه المواجهة أو الهجرة - على الظاهر.

(١) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ١٨٠، والبحار ج ١٨ ص ٣٨٤.

(٢) البحار ج ١٨ ص ٣٨٥ عن العياشي، عن زرارة، وحران بن أعين، ومحمد بن مسلم، عن الباقر(ع).

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣١٥.

الفصل الثالث: الإسرائء والمعراج ١٥

وإذا كان الاسراء قد حصل قبل اسلامه بمدة طويلة، فلا يبقى مجال لتصديق ما يذكر هنا، من أنه قد سُمي صديقاً، حينما صدق رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» في قضية الاسراء^(١)، ولا لما يذكرونه، من أن ملكاً كان يكلم رسول الله حين المعراج بصوت أبي بكر^(٢) وقد صرح الحفاظ بكذب طائفة من تلك الروايات^(٣).

والصحيح: هو أنه قد كلمه بصوت علي «عليه السلام»^(٤). وبذلك يظهر حال سائر ما يذكر هنا لهذا الرجل من فضائل ومواقف تنسب إليه في السنوات الثلاث الأولى من البعثة.

وبعد ما تقدم نقول: جاء في الشفاء عن ابي حمراء قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: لما اسري بي الى السماء إذا على العرش مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أيده بعلي «عليه السلام»^(٥).

الإسرائء والمعراج في اليقظة أو في المنام:

يرى البعض: أن الاسراء قد كان بالروح فقط، في عالم الرؤيا،

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣١٥، والمواهب اللدنية ج ٢ ص ٤٠ مستدرک الحاكم، وابن إسحاق.

(٢) المواهب اللدنية ج ٢ ص ٣٠/٢٩. وراجع الدر المنثور ج ٤ ص ١٥٥ وراجع ص ١٥٤.

(٣) راجع: الغدير ج ٥ ص ٣٠٣ و ٣٢٤ و ٣٢٥ فإنه قد نقل هذه الروايات وتكذيبها عن: ميزان الاعتدال ج ١ ص ٣٧٠، ولسان الميزان ج ٥ ص ٢٣٥، وتهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٨، والسيوطي في الموضوعات، وابن حبان، وابن عدي.

(٤) المناقب للخوارزمي ص ٣٧ وينايع المودة ص ٨٣.

(٥) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣١٣.

١٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ويحتجون بما عن عائشة: ما فقدت جسد رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»^(١).

وعن معاوية: انها رؤيا صالحة^(٢). وحكي مثل ذلك عن الحسن البصري.

ولكن الصحيح هو ما ذهب إليه الامامية ومعظم المسلمين من أن الاسراء إنما كان بالروح والجسد معاً. أما المعراج فذهب الاكثر إلى أنه كان بالروح والجسد وهو الصحيح أيضاً. ونحن نشير هنا إلى ما يلي:

أولاً: بالنسبة لعائشة، قال القسطلاني: «وأجيب: بأن عائشة لم تحدث به عن مشاهدة؛ لأنها لم تكن إذ ذاك زوجاً، ولا في سن من يضبط، أولم تكن ولدت بعد، على الخلاف في الاسراء متى كان»^(٣).

وأما معاوية فحاله معلوم مما ذكرناه في الجزء الأول: المدخل لدراسة السيرة.

وثانياً: قال تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»^(٤) وقال في سورة النجم - اذا كانت الايات ناظرة إلى المعراج، ويرجع الضمير فيها إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لا إلى جبرئيل -: «فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى»^(٥).

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠٨، والمواهب اللدنية ج ٢ ص ٢، والبحار ج ١٨ ص ٢٩١ وفي المناقب لابن شهر آشوب ج ١ ص ١٧٧: أن الجهمية قالت بهذا.

(٢) البحار ج ١٨ ص ٢٩١ عن: المقاصد وشرحه، وراجع تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠٨.

(٣) المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢.

(٤) الإسراء: ١.

(٥) النجم ٩ - ١٠.

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ١٧

فان لفظ العبد إنما يطلق على الروح والجسد معاً، ولو كان مناماً،
لكان قال: بروح عبده، وإلى روح عبده.
كما أن قوله تعالى: «ما زاغ البصر وما طغى» ظاهر في البصر
الحقيقي أيضاً^(١).

أضف إلى ذلك: أن آية سورة الاسراء، وآيات سورة النجم واردة
في مقام الامتنان. وفيها ثناء على الله، وعجيب قدرته، وذلك لا يحسن،
ولا يتم لمجرد رؤيا رآها النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ إذ ربما يرى
غير النبي، وحتى الفاسق الفاجر رؤيا اعظم من ذلك.

هذا بالإضافة إلى أن الرؤيا عند عامة الناس لا تدل على عظيم
قدرته تعالى، إذ ربما تفسر على أنها نوع من الاوهام والخيالات، فيفوت
الغرض المقصود من الاسراء والمعراج، كما هو ظاهر^(٢).

وثالثاً: انه لو كان الاسراء مجرد رؤيا صالحة؛ فلا يبقى فيه اعجاز؛
ولما أنكره المشركون والمعادنون، ولما ارتدّ ناس ممن كان قد اسلم،
كما سنشير اليه.

ورابعاً: لو كان مجرد رؤيا، لم يخرج ابو طالب والهاشميون في
طلبه «صلى الله عليه وآله وسلم». وكان العباس يناديه حتى اجابه من
بعض النواحي، حسبما ورد في بعض الروايات.

واما لماذا ينكرون: ان يكون ذلك بالروح والجسد معاً؛ فهو إما
لعدم قدرتهم على تعقل ذلك، او لأجل الحط من كرامة النبي «صلى الله
عليه وآله وسلم» كما تقدم في المدخل لدراسة السيرة، او لعدم قدرتهم

(١) راجع هذا الاستدلال في: البحار ج ١٨ ص ٢٨٦ عن الرازي، والمواهب اللدنية
ج ٢ ص ٤، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠٨.

(٢) راجع: تفسير الميزان ج ١٣ ص ٢٤.

١٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

على اقناع الناس بامر مبهم كهذا.

الاسراء والمعراج في القرآن:

اننا نؤمن بالاسراء استناداً إلى قوله تعالى: «سبحان الذي اسرى بعبد له ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا»^(١). . . فمحط النظر في الآية هو بيان الاسراء فقط.

اما المعراج، فانه لم يذكر في القرآن صراحة، إلا ما جاء في تفسير آيات سورة النجم وهي قوله تعالى: «ذومرة فاستوى. وهو بالافق الاعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين او ادنى. فأوحى الى عبده ما اوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى.»^(٢)، ان قلنا ان الضمير فيها يرجع إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، لا إلى ذي المرة، الذي هو جبرئيل.

مع أن الثاني هو الظاهر، ويدل عليه رواية صحيحة السند، عالية الاسناد، عن الامام الرضا «عليه السلام». والرواية تستشهد وتستدل بنص الآيات في السورة.^(٣)

ويدل على ذلك ايضاً ويفسره قوله تعالى: «ولقد رآه بالافق المبين»^(٤) فراجع.

ولكن كثرة الاخبار الواردة في المعراج، وحتى تواترها القطعي لا يُبقي مجالاً للشك في حصول المعراج؛ فنحن نؤمن به ايضاً استناداً إلى ذلك.

(١) الاسراء: ١.

(٢) النجم: ٦ - ١٢.

(٣) راجع البرهان للبحراني ج ٤ ص ٢٤٨ وستأتي الرواية تحت عنوان: لا تدركه الأبصار.

(٤) التكوين: ٢٣.

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ١٩

وأما القول بوجود تعارض بين آية سورة الاسراء، وبين الروايات الدالة على المعراج، على اعتبار: ان الآية تدل على ان انتهاء السير كان في المسجد الأقصى، ولم يكن بعده سير.

فلا يصح؛ لأن هناك رحلتين مختلفتين من حيث الكيفية والقصد. وقد كان انتهاء الرحلة الاولى في المسجد الأقصى، ولم يتعلق غرض في الآية ببيان الرحلة الثانية أصلاً.

سؤال هام وجوابه:

واما لماذا لم يذكر المعراج في القرآن صراحة، كما كان الحال بالنسبة إلى الاسراء.

فلربما يكون السرف في ذلك هو ان الاسراء امر قريب إلى الحس، فالتصديق به يكون ايسر وأقرب.

وإذا كانوا قد صعب عليهم التصديق بالاسراء، بل واستهزؤا وشنعوا عليه ما شاء لهم بغيهم وحنقهم. رغم أنه قد أخبرهم بما جرى للقافلة التي رآها في طريقه، وبأنها قد اضلت بغيراً، وكسرت فيها ناقة حمراء في الوقت الفلاني، وبأن لهم صدقه في ذلك. ورغم أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» وصف لهم بيت المقدس وصفاً دقيقاً، يعلمون صحته وصدقه، مع علمهم بعدم رؤيته «صلى الله عليه وآله وسلم» له فيما مضى.

وأيضاً، إذا كان بعض ضعفاء المسلمين قد ارتدوا، حين أخبرهم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بقضية الاسراء^(١)، الذي هو من جملة

(١) المصنف لعبد الرزاق ج ٥ ص ٣٢٨، وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢١، وأخرجه أبو نعيم، ومنتخب كنز العمال هامش مسند أحمد ج ٤ ص ٣٥٣ حياة الصحابة ج ٣ ص ٧٣ عن بعض من تقدم. وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠٨ و ٣١٥، والمواهب اللدنية ج ٢ ص ٤٠.

٢٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

المعجزات القاطعة، والبراهين الساطعة.

نعم، إذا كان ذلك كله، فكيف تكون الحال إذا أخبرهم بما هو أكثر غرابة وبعداً عن أذهانهم، وهو رحلته إلى السماوات العلى، وما شاهد فيها من عجائب الصنع، وبديع الخلق؟! .

ولهذا، فإننا نرجح: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد تدرّج في إخباره لهم بالأسراء والمعراج، فأخبرهم أولاً بالأسراء، أما المعراج؛ فأخبر به أوليائه المؤمنين القادرين على التحمل، والتعقل. ثم صار يتوسع في إخباره لغيرهم بذلك في الأوقات المناسبة، وبحسب ما تقتضيه المصلحة، ومتطلبات الدعوة إلى الله تعالى.

الداعية الحكيم:

ولعل مما تقدم يظهر: أنه إذا كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» إنما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فإن من الطبيعي أن يهتم في الحفاظ على الركيزة الإيمانية التي يحصل عليها، وأن لا يدخلها في أجواء ليس لها القدرة على استيعابها ولا على مواجهة أخطار الانحراف فيها.

ومن الواضح: أنه إذا أخبرهم بقضية المعراج، مع عدم قدرتهم على التحمل والتفاعل معها ولا على تصورها، فإنهم إذا ارتدوا حينئذٍ فسيكونون معذورين، ولا سيما إذا كان التصديق بهذه القضية إنما يستند إلى المستوى الإيماني لديهم بالدرجة الأولى.

وأما قضية الأسراء، فقد كان بالإمكان أن يؤدي الإخبار عنها نفس النتيجة المتوخاة، وهي الجهة الإعجازية ذات الطابع المعين مع إمكان الاستناد في مقام الاقناع بها إلى أدلة تقربها إلى الحس، وتجعل القبول بها أيسر وأسهل من تلك، ولا يعتمد فيها على المستوى الإيماني

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٢١

وحسب. وإذن؛ فلا يبقى ثمة مبرر لارتداد هؤلاء، ولا لعناد أولئك.

لا تدركه الأبصار:

ويرى البعض، استناداً إلى قوله تعالى: «أفتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى إلخ»^(١): أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد رأى الله حين المعراج بعين رأسه، ورووا ذلك عن ابن عباس. بل لقد حكى النقاش عن أحمد بن حنبل، أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس: بعينه رآه، رآه، حتى انقطع نفسه، يعني نفس أحمد^(٢).

ونحن لا نريد أن نفيض في الحديث حول الرؤية له تعالى، فلقد أثبت علماؤنا الأبرار، بما لا مجال معه للشك استحالة رؤيته تعالى، سواء في الدنيا، أو في الآخرة. وقد فندوا أدلة المجسمة المثبتين للرؤية في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة فقط بشكل علمي وقاطع. فمن أراد الاطلاع على ذلك فعليه بمراجعة دلائل الصدق، وغيره من الكتب المعدة لذلك^(٣).

ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن الرواية عن ابن عباس غير ثابتة، فقد روي عنه أيضاً خلافها^(٤).

وروي عن عائشة: أن مسروقاً قال لها: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» ربه؟ قالت: لقد قفّ شعري مما

(١) النجم: ١٢ - ١٤.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣١٤.

(٣) مثل: دلائل الصدق، وغيره من الكتب الباحثة في الشأن العقائدي.

(٤) راجع في الروايات الكثيرة عنه: الدر المنثور ج ٦ ص ١٢٢ - ١٢٦.

٢٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

قلت... إلى أن قالت: من حدثك أن محمد رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: لا تدركه الابصار إلخ (١).

وعند مسلم: أنها أضافت: أنها سألت النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عن ذلك، فأخبرها: أنه لم يره، وإنما رأى جبرئيل (٢).

والروايات في أن المقصود بالآيات في سورة النجم هو جبرئيل كثيرة جداً وكذلك الروايات التي تؤكد: على أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد رآه بقلبه وفؤاده، لا بعينه وبصره، فانها كثيرة أيضاً (٣).

بل إن نفس الآيات ظاهرة - إن لم تكن صريحة - في أن المقصود هو جبرئيل، بيان ذلك باختصار:

ان قوله تعالى: علمه شديد القوى يراد بشديد القوى هو جبرئيل «عليه السلام»، ثم وصف جبرئيل، الذي وصفه الله بالقوة في قوله: «ذي قوة عند ذي العرش مكين (٤)» بكونه ذا مرة، (أي شدة وحصافة في العقل والرأي) (٥)، وقوله (فاستوى) أي ان ذلك الشديد، ذا المرة. استقام أو استولى، وهو بالافق الاعلى. وقوله: ثم دنا، أي ذلك الشديد ذو المرة دنا

(١) المواهب اللدنية ج ٢ ص ٣٤ عن البخاري ومسلم، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣١٣، والدر المنثور ج ٦ ص ١٢٤ عن عبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وابن مردويه.

(٢) المواهب اللدنية ج ٢ ص ٣٥ عن مسلم.

(٣) يكفي أن يرجع الطالب إلى الدر المنثور ج ٦ ص ١٢٢ - ١٢٦ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣١٣/٣١٤ والمواهب اللدنية ج ٢ ص ٣٦/٣٧ وغير ذلك من المصادر الكثيرة جداً.

(٤) التكوير: ٢٠.

(٥) احتمل بعض المحققين: أن يكون وصف الله تعالى لجبرئيل بالشدة في مقابل التابع من الجن الذي كان ضعيفاً بحيث يستطيع الإنسان أن يتسلط عليه.

الفصل الثالث : الإسراء والمعراج ٢٣

من النبي وتدلّى في الافق نحو النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» .
ثم ، إن ذلك الشديد القوي ذا المرة الذي دنا فتدلّى ، أوحى إلى
النبي الذي هو عبدالله ما أوحى .

ورجوع الضمير إلى الله مع عدم سبق ذكره ، لا ضير فيه لوضوحه ،
كما قال العلامة الطباطبائي ، أو على أن يكون ضمائر فأوحى إلى عبده ما
أوحى راجعة الى الله تعالى .

ثم قال : ما كذب الفؤاد ما رأى . والمرئي هو الآيات الكبرى ، ومنها
ما تقدم من الدنوّ ، والتدلي ، وكون جبرئيل بالافق الاعلى .

وليس في الآية ما يدل على أن الرؤية قد كانت لله تعالى . ويدل
على ما نقول قوله تعالى الآتي : «ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من
آيات ربه الكبرى» .

ثم قال تعالى : أفتمارونه على ما يرى . أي اتجادلونه في رؤيته
جبرئيل ، وهل هذا أمر نظري عقلي يصح الجدل والمراء فيه؟ وهل
بإمكانه أن يكذب بصره ويقول : لا أراه؟! فان الكفار كانوا ينكرون الوحي
له ، ورؤيته الملك .

ثم قال تعالى : ولقد رآه ، - والضمير يرجع إلى ذلك الذي لا يزال
يتحدث عنه - ، نزلة أخرى ، أي في نزول آخر ، والذي كان ينزل
عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» هو جبرئيل ، فانه رآه والتقى معه على
صورته في نزلة ثانية عند سدة المنتهى . والسدة نوع من الشجر .

ولا بد أن تكون هذه الرؤية الثانية في الارض ، وإلا لوجب أن
يقول : ولقد رآه نزلة أخرى ، ثم عرج به الى السماء ، حتى انتهى الى
السدة ، فرآه عندها .

ويبدو : أنه كان في الارض - كما يراه بعض المحققين - شجرة سدر

٢٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

كان لقاء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بجبرئيل عندها، وعند تلك السدرة توجد جنة المأوى، أي جنة وبستان يؤوى إليها، أو أن الجنة في الآخرة ستكون في تلك المنطقة.

وبعض المحققين يرى: أن المراد بالنزلة الدفعة، وأنه قد رأى جبرئيل بعد العروج عند سدرة المنتهى، وإن الجنة الحقيقية موجودة هناك.

ونقول:

إن هذا الكلام خلاف ظاهر التعبير بنزلة. وتحقيق مكان الجنة ليس هنا محله.

وهكذا يتضح: أن هذه الآيات ناظرة إلى رؤية النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لجبرئيل على صورته الحقيقية مرتين في نزلتين لجبرئيل.

وهذا هو ما أكدته الامام الرضا «عليه السلام» في رواية صحيحة السند عنه، جاء فيها: قال أبو قرّة: إنا روينا: أن الله قسم الرؤية والكلام بين نبيين؛ فقسم الكلام لموسى، ولمحمد الرؤية.

فقال أبو الحسن «عليه السلام»: فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين، من الجن والانس: «لا تدركه الابصار. ولا يحيطون به علماً. وليس كمثله شيء؟» أليس محمد «صلى الله عليه وآله وسلم»؟

قال: بلى.

قال: كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً؛ فيخبرهم: أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله، فيقول: «لا تدركه الابصار. ولا يحيطون به علماً. وليس كمثله شيء»، ثم يقول: أنا رأيته بعيني، وأحطت علماً، وهو على صورة البشر؟! أما تستحون؟! ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي من عند الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر.

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٢٥

قال أبو قرة: فانه يقول: «ولقد رآه نزلة أخرى»؟

فقال أبو الحسن «عليه السلام»: إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى، حيث قال: «ما كذب الفؤاد ما رأى»، يقول: ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى، فقال: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى»؛ فأيات الله غير الله، وقد قال الله: «ولا يحيطون به علماً». فاذا رآه الابصار؛ فقد أحاطت به العلم، ووقعت المعرفة.

فقال أبو قرة: فتكذب بالروايات؟! .

فقال أبو الحسن «عليه السلام»: إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها. وما أجمع المسلمون عليه: أنه لا يحاط به علماً، ولا تدركه الابصار، وليس كمثله شيء^(١).

وفي الرواية دلالة على حجية ظواهر الكتاب، وعلى حجية السياق القرآني أيضاً. صلوات الله وسلامه عليك يا أبا الحسن وعلى آبائك وابناءك الطاهرين، فانكم ما زلتم حصون الاسلام، والمدافعين عنه، والباذلين مهجكم في سبيله، فانتم مصاييح الدجى، والعروة الوثقى، والحجة على أهل الدنيا.

الاسراء من المسجد:

صريح القرآن: أن الاسراء كان من المسجد، وجاء في عدد من الروايات: أنه كان من بيت أم هاني^(٢) واحتمل السيد الطباطبائي أن يكون

(١) أصول الكافي ط سنة ١٣٨٨ في إيران ج ١ ص ٧٤/٧٥. والبرهان للبحراني ج ٤ ص ٢٤٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٤٣.

٢٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الاسراء حصل مرتين، إحداهما من بيت أم هاني^(١).

ويحتمل أيضاً التجوز، وإرادة مكة من «المسجد الحرام». وهو إطلاق متعارف، قال تعالى: «هدياً بالغ الكعبة» ويقال: هويسكن في مشهد الرضا، مع أنه يسكن في البلد المحيطة به. وأطلق في الروايات مسجد الشجرة على ذي الحليفة. ومثل ذلك كثير، فإن من المتعارف أن يطلق على المكان الذي فيه شيء معروف اسم ذلك الشيء المعروف.

ويحتمل أيضاً أن يكون «صلى الله عليه وآله وسلم» خرج تلك الليلة إلى المسجد من بيت أم هاني، ثم أسري به من المسجد.

موسى، وفرض الصلوات الخمس:

هذا، وقد جاء في بعض الروايات: أن الصلوات الخمس قد فرضت حين المعراج، وأنها فرضت أولاً خمسين صلاةً في اليوم. وحين عودة الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» التقى بموسى، فأشار عليه أن يرجع إلى الله، ويسأله التخفيف، لأن الأمة لا تطيق ذلك - كما لم تطقه بنو إسرائيل - فرجع، وطلب إلى الله التخفيف فخففها إلى أربعين، وعاد الرسول؛ فمر بموسى، فأشار عليه بطلب التخفيف، ففعل، فخففت إلى ثلاثين، ثم إلى عشرين، ثم إلى عشرة، ثم إلى خمسة، ثم استحيا الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» من المراجعة من جديد فاستقرت الصلوات على خمس^(٢).

(١) الميزان ج ١٣ ص ٣١.

(٢) لقد وردت هذه الرواية في مختلف كتب الحديث، والتاريخ عند غير الشيعة، ولذا فلا نرى حاجة لذكر مصادرها. فراجع على سبيل المثال: كشف الأستار عن مسند البزار ج ١ ص ٤٥، ووردت أيضاً في كتب الإمامية رحمهم الله تعالى، وأعلى درجاتهم، فراجع: البحار ج ١٨ ص ٣٣٠ و ٣٣٥ و ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥٠ و ٤٠٨ عن: =

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٢٧

وهذه الرواية وإن كانت قد وردت في بعض المصادر الشيعية أيضاً، إلا أننا لا نستطيع قبولها، وقال عنها السيد المرتضى «رحمه الله»: «أما هذه الرواية فهي من طريق الأحاد، التي لا توجب علماً، وهي مع ذلك مضعفة^(١)».

ونحن هنا نشير إلى الأسئلة التالية:

لماذا يفرض الله على الأمة هذا العدد أولاً، ثم يعود إلى تخفيفه بعد المراجعة، فانه إن كانت المصلحة في الخمسين، فلا معنى للتخفيف، وإن كانت المصلحة في الخمس، فلماذا يفرض الخمسين، ثم الأربعين، ثم الثلاثين وهكذا. وفي بعض الروايات: أنه كان في كل مرة يحط عنه خمساً، حتى انتهى إلى خمس صلوات.

وقد أجاب بعض المحققين عن هذا بأن ما جرى هنا ما هو إلا نظير إضافة الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» الركعتين الأخيرتين في الرباعية من الصلاة اليومية؛ ونظير التكليف بعدم الفرار من الزحف، مع أنه علم أن فيكم ضعفاً. ونظير الرفث إلى النساء ليلة الصيام، فقد نسخت حرمة بعد وقوع المخالفات منهم؛ قال تعالى: «علم أنكم كنتم تختانون أنفسكم؛ فتأب عليكم، وعفا عنكم؛ فالآن باسروهن»^(٢).

ونقول: إن ما ذكره - حفظه الله - لا يكفي لدفع ما ذكرناه، أما بالنسبة لتشريع الركعتين الأخيرتين في الرباعية من قبله «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ فإن الله سبحانه قد فوّض له ذلك حينما يعلم «صلى الله

= أمالي الصدوق ص ٢٧٠/٢٧١ و ٢٧٤، ٢٧٥، وتوحيد الصدوق ص ١٦٧/١٦٨، وعلل الشرائع ص ٥٥/٥٦، والحصال ج ١ ص ١٢٩.

(١) تنزيه الأنبياء ص ١٢١.

(٢) البقرة: ١٨٧.

٢٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

عليه وآله وسلم» بتحقيق مصلحته ومقتضيه في متن الواقع.

وأما بالنسبة لحكم الفرار من الزحف، وحكم الرفث إلى النساء، فإن المقصود بـ: «علم أن فيكم ضعفاً». و«علم انكم كنتم تختانون انفسكم» هو تحقق معلوم الله سبحانه في الخارج. أي أن الحكم السابق، وهو حرمة الفرار بملاحظة قلة العدد، وحرمة الرفث قد استمر وبقي إلى أن حصل الضعف وحصلت الخيانة وتغير الموضوع. ففسخ الحكم الاول، ففسخت حرمة الرفث ونسخت حرمة الفرار وليس المراد علم الله بعد جهله، والعياذ بالله.

أما السيد المرتضى، فقد أجاب «رحمه الله» عن التساؤل الذي طرحناه فيما سبق بنحو آخر، وهو: أن من الممكن أن تكون المصلحة أولاً تقتضي الخمسين، ثم تغيرت هذه المصلحة بسبب المراجعة، وأصبحت تقتضي الخمس^(١).

ولكنه جواب منظور فيه؛ فإن النبي إذا كان يعلم: أن الله تعالى لا يشرع إلا وفق المصلحة، فإنه لا يبقى مجال لمراجعته أصلاً؛ لأنه كأنه حينئذ يطلب تشريعاً لا يوافق المصلحة.

ولو صححت المراجعة هنا، وأوجبت تبدل المصلحة صححت في كل مورد، وأوجبت ذلك ايضاً، فلماذا كانت هنا. ولم تكن في سائر الموارد.

كما أن تعليل موسى للتخفيف بعدم طاقة الأمة، كأنه يدل على أنه يعتقد: أن هذا التشريع يخالف المصلحة.

وهذا محال بالنسبة إلى الله تعالى. ولا يمكن صدوره لا من موسى «عليه السلام» ولا من نبينا «صلى الله عليه وآله وسلم».

قال صاحب المعالم:

(١) تنزيه الأنبياء ص ١٢١.

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٢٩

«المطالبة بصحة الرواية، مع أن فيها طعنًا على الأنبياء بالإقدام على المراجعة في الأوامر المطلقة»^(١).

وسؤال آخر: كيف لم يعلم الله تعالى: أن الأمة لا تطيق ذلك، وعلم بذلك موسى؟:

وسؤال آخر، وهو: ما المراد بعدم الإطاقة؟ هل المراد بها عدم الإطاقة عقلاً؟ فيرد عليه: أنه لا يمكن القول بجواز التكليف بما لا يطاق؟ أو المراد به ما كان في مستوى العسر والحرج، المنفي في الشرع الإسلامي، كما دلت عليه الروايات والآيات ولا سيما قوله تعالى: «يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر»^(٢) و«ما جعل عليكم في الدين من حرج»^(٣) وغير ذلك من الآيات.

ومما ذكرناه يتضح: أنه لا يمكن أن يكون تعالى قد كلف بني إسرائيل ما لا يطيقون.

وأما قوله تعالى: «ربنا، ولا تحمل علينا اَصراً كما حملته على الذين من قبلنا»^(٤).

فهو لا يدل على ذلك لعطف قوله «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به» عليه؛ فيدل على أن المراد بالإصر هو ما يطاق، لا ما لا يطاق. ويمكن أن يكون المراد بالاصر: جزاء السيئات الثقيل والشاق، أو المبادرة بعذاب الاستيصال.

وأما طلبهم أن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به، فليس المراد أنه

(١) معالم الدين ص ٢٠٨ مبحث النسخ.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) الحج: ٧٨.

(٤) البقرة: ٢٨٦.

٣٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

يحملهم ذلك في التكليف الابتدائي، لأن العقل لا يجيز ذلك، بل المراد مالا طاقة لهم به، مما يتسبب عن المخالفة وهو العذاب الأليم، والعقاب العظيم.

وسؤال آخر هنا، وهو:

كيف نسي الله تعالى تلك التجربة الفاشلة مع بني اسرائيل، حتى أراد أن يكررها مع أمة محمد من جديد؟! .

ولعل هذه التجربة كانت هي عذر ابراهيم الذي مر عليه محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» ذهاباً وإياباً عشر مرات، أو عشرين^(١) على اختلاف النقل. ولكنه لم يسأله عن شيء، ولا أمره بشيء!! .

وإن كنا نستغرب عدم سؤاله عن سر هذه الجولات المتتالية ذهاباً وإياباً؟! .

ولماذا لم يلتفت نبينا الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى ثقل هذا التشريع على امته، والتفت إليه نبي الله موسى؟ ولماذا بقي يغفل عن ذلك خمس مرات، بل ستة أو أكثر ولا يعرف: أن هذا ليس هو الحد المطلوب، حتى يضطر موسى لأن يرصد له الطريق باستمرار، ولولاه لوقعت الأمة في الحرج والعسر؟ .

ولماذا لا ينزل الله العدد إلى الخمس مباشرة من دون أن يضطر الرسول إلى الصعود والنزول المتعب والمتواصل باستمرار؟! .

استبعاد الاسراء والمعراج:

وبعد، فلا بد لنا من الإشارة هنا: إلى أن استبعاد الاسراء

(١) لأن ابراهيم حسب نص الرواية كان في الساء السابعة، وموسى كان في السادسة وكان موسى يرجع النبي إلى ربه، كي يسأله التخفيف، فيرجع ثم يعود إليه فيرجعه من جديد.

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٣١

والمعراج؛ بدعوى عدم امكان تصور أن تقطع تلك المسافات الشاسعة، التي تعد بآلاف الاميال في ليلة واحدة ذهاباً وإياباً - هذا الاستبعاد - في غير محله .

فقد حضر عرش بلقيس لدى سليمان من اليمن إلى بلاد الشام في أقل من لمح البصر. وكان عفريت من الجن قد تكفل بأن يأتيه به قبل أن يقوم من مقامه .

وأما بالنسبة لنا اليوم فقد أصبح التصديق بالإسراء والمعراج أكثر سهولة، والاقناع به أقرب منالاً، ولا سيما بعد أن تمكن هذا الانسان العاجز المحدود من أن يصنع ما يمكنه من قطع ١٣ كيلومتراً في ثانية واحدة، ولربما يتضاعف ذلك عدة مرات في المستقبل . كما أنه قد اكتشف أن سرعة النور هي حوالي ثلاثمائة الف كيلومتر في الثانية^(١)، بل يعتقد بعض العلماء: ان الموجات غير المرئية للجاذبية تستطيع أن تقطع العالم بلحظة واحدة من دون حاجة إلى الزمان .

وبعد كل هذا فإنه إذا كان قطع المسافات البعيدة بهذه السرعة المذهلة ليس مستحيلاً على هذا الانسان المحدود، الذي بقي الاعوام الطوال يفكر ويستعد، ويجمع الخبرات والامكانيات، فهل يستحيل على خالق الانسان والكون، ومبدعه أن يسري بعبده الذي اصطفاه رسولاً للبشرية جمعاء، ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى، وإلى ملكوت السموات، ثم يعيده إلى مكانه الأول؟! .

من اهداف الإسراء والمعراج:

اننا اذا أردنا معرفة الأهداف والحكم، والمعجزات، والتأثيرات

(١) راجع حول سرعة النور: موسوعة المعارف والعلوم ص ١٠.

٣٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

العميقة للإسراء والمعراج، فلا بد لنا من دراسة كل نصوصه، وفقراته، ومراحلته بدقة وعمق. بعد تحقيق الصحيح منها. وحيث ان ذلك غير متيسر بل هو متعذر علينا في ظروفنا الحاضرة، فاننا لابد ان نكتفي بالإشارة الى الامور التالية:

أولاً: ان حادثة الإسراء والمعراج معجزة كبرى خالدة، ولسوف يبقى البشر الى الأبد عاجزين عن مجاراتها، وادراك أسرارها ولعل اعجازها هذا اصبح اكثر وضوحاً في هذا القرن العشرين، بعد ان تعرف هذا الانسان على بعض اسرار الكون وعجائبه. وما يعترض سبيل النفوذ الى السماوات من عقبات ومصاعب.

واعجازها هذا إنما يكون بعد التسليم بنبوة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عن طريق الخضوع لمعجزته الخالدة، وهي القرآن، او اليقين بصدقه «صلى الله عليه وآله وسلم» عن أي طريق آخر، بحيث يكون ذلك موجباً لليقين بصدق اخباراته كلها؛ فاذا اخبر «صلى الله عليه وآله وسلم» بهذه الحادثة، فان اخباره مساوق لليقين بوقوعها. وهي حينئذ تكون معجزة خالدة تتحدى هذا الانسان على مدى التاريخ.

وثانياً: يلاحظ: ان هذه القضية قد حصلت بعد البعثة بقليل، وقد بين الله سبحانه الهدف من هذه الجولة الكونية؛ فقال في سورة الاسراء: «لنريه من آياتنا».

وإذا كان الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» هو الأسوة والقُدوة للإنسانية جمعاء، وإذا كانت مهمته هي حمل اعباء الرسالة الى العالم بأسره، وإذا كان سوف يواجه من التحديات، ومن المصاعب والمشكلات ما هو بحجم هذه المهمة الكبرى، فان من الطبيعي: أن يعده الله سبحانه إعداداً جيداً لذلك، وليكن المقصود من قصة الاسراء

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٣٣

والمعراج هو ان يشاهد الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» بعض آثار عظمة الله تعالى، في عملية تربوية رائعة، وتعميق وترسيخ للطاقة الإيمانية فيه، وليعدّه لمواجهة التحديات الكبرى التي تنتظره، وتحمل المشاق والمصاعب والأذى التي لم يواجهها احد قبله، ولا بعده، حتى لقد قال حسبما نقل «ما أؤدي نبي مثلاً أوديت». وعلى حسب نص السيوطي، والمناوي، وغيرهما: «ما أؤدي احد ما أوديت»^(١) ولا سيما اذا عرفنا: ان عمق إدراك هذا النبي الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» - وهو عقل الكل، وإمام الكل - لخطر الانحرافات في المجتمعات، وانعكاساتها العميقة على الاجيال اللاحقة كان من شأنه أن يعصر نفسه ألماً من اجلهم، ويزيد في تأثره وعذاب روحه حتى لقد خاطبه الله تعالى بقوله: «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات»^(٢).

وأيضاً، فانه بالاسراء والمعراج يفتح قلبه وعقله ليكون أرحب من هذا الكون، ويمنحه الرؤية الواضحة، والوعي الاعمق في تعامله مع الأمور، ومعالجته للمشكلات. ولا سيما إذا كان لا بد أن يتحمل مسؤولية قيادة الأمة والعالم بأسره.

وكذلك ليصل هذا النبي الأمي إلى درجة الشهود والعيان بالنسبة إلى ما أوحى إليه، وسمع به عن عظمة ملكوت الله سبحانه، ولينتقل من مرحلة السماع إلى مرحلة الرؤية والشهود، ليزيد في المعرفة يقيناً، وفي الايمان رسوخاً.

وثالثاً: لقد كان الانسان - ولا سيما العربي آنثذ - يعيش في نطاق ضيق، وذهنية محدودة، ولا يستطيع أن يتصور أكثر من الامور الحسية، أو

(١) راجع: الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٤ وكنوز الحقائق، هامش الجامع الصغير ج ٢

ص ٨٣.

(٢) فاطر/٨.

٣٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

القريبة من الحس، التي كانت تحيط به، أو يلتبس آثارها عن قرب. وذلك من قبيل الفرس، والسياف، والقمر، والنجوم، والماء والكلاء، ونحوها، ويشعر بالحب، والبغض والشجاعة وغير ذلك.

فكان - والحالة هذه - لا بد من فتح عيني هذا الانسان على الكون الارحب، الذي استخلفه الله فيه، لي طرح على نفسه الكثير من التساؤلات عنه، ويبعث الطموح فيه للتعرف عليه، واستكناه أسرار، وبعد ذلك احياء الامل وبث روح جديدة فيه، لي بذل المحاولة للخروج من هذا الجو الضيق الذي يرى نفسه فيه، ومن ذلك الواقع المزري، الذي يعاني منه.

وهذا بالطبع ينسحب على كل أمة، وكل جيل، وإلى الابد.

ورابعاً: والأهم من ذلك: ان يلمس هذا الانسان عظمة الله سبحانه، ويدرك بديع صنعه، وعظيم قدرته، من اجل ان يثق بنفسه ودينه. ويطمئن الى أنه بإيمانه بالله، إنما يكون قد التجأ إلى ركن وثيق لا يختار له إلا الأصلح، ولا يريد له إلا الخير، قادر على كل شيء، ومحيط بكل الموجودات.

وخامساً: واخيراً، انه يريد ان يتحدى الاجيال الآتية، ويخبر عما سيؤول اليه البحث العلمي - من التغلب، على المصاعب الكونية، وغزو الفضاء؛ فكان هذا الغزو بما له من طابع اعجازي خالد هو الأسبق والاكثر غرابة وابداعاً؛ وليطمئن المؤمنون، وليربط الله على قلوبهم، ويزيدهم ايماناً كما قلنا.

الأذان:

ونحن نعتقد: أن الأذان قد شرع في مناسبة الإسراء والمعراج كما جاء في الخبر الصحيح، ولكنهم إنما يذكرون ذلك بعد الهجرة؛ فنحن نرجي الحديث عنه إلى هناك، إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٣٥

اليهود والمسجد في القرآن:

قال تعالى:

﴿وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب: لتفسدن في الارض مرتين، ولتعلن علواً كبيراً. فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا، أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً. ثم رددنا لكم الكرة عليهم، وأمددناكم بأموال وبنين، وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسستم أحسستم لانفسكم، وإن أسأتم فلها؛ فاذا جاء وعد الآخرة؛ لیسوؤا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتيهرا. عسى ربكم أن يرحمكم، وإن عدتم عدنا، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً، إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات: أن لهم أجراً كبيراً. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾^(١).

مفاد الآيات إجمالاً:

فهذه الآيات الكريمة تتضمن:

أ: أحداثاً أربعة هامة، هي التالية:

١ - إن بني اسرائيل سوف يفسدون في الارض، ويعلمون علواً كبيراً، بعد أن كتب الله عليهم الجلاء، وضرب عليهم الذل والمسكنة، وباؤا بغضب من الله.

٢ - إن عبداً لله أولي بأس شديد سوف يحاربون الاسرائيليين، بعد فسادهم وعلوهم، ويطأون بلادهم، ويجوسون خلال ديارهم جزاء على بغيتهم وفسادهم، ويدخلون المسجد الاقصى ايضاً.

(١) سورة الإسراء: ٤ - ١٠.

٣٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

٣ - إن بني اسرائيل سوف تكثر بعد ذلك أموالهم ، وأولادهم ، وذلك يحتاج إلى مدة طويلة نسبياً ، وسوف يجهزون جيشاً أعظم من جيش أولئك العباد ، وتكون الكرة لهم عليهم .

٤ - ثم انهم بعد ان يعودوا إلى الافساد من جديد ؛ في مهلة زمنية لا بأس بمقدارها يعود أولئك العباد إلى حربهم ، ليسووا وجوههم ، وليتبروا ما علوا تتبرا .

ب : إن حصول المرتين الاولى والثانية ، يعني الافساد والاول من بني اسرائيل ثم إرسال الله تعالى عباداً له عليهم ، أمر حتمي ، لقوله تعالى : (وكان وعداً مفعولاً) . أما المرتان الأخيرتان فهما تتوقفان على اعتبار بني اسرائيل بما حصل ، ثم اختيارهم أحد الامرين .

فلأجل ابراز عنصر الاختيار هذا والتشكيك بصدوره منهم ، عبّر بـ « ان » : ﴿ إن احستم الخ . . ﴾ لانها تستعمل في مقام التردد والشك في صدور الإحسان منهم .

ضرب القاعدة ، وإعطاء الضابطة :

ثم إنه بالنسبة للافساد الثاني قد اختار التعبير بـ « إذا » كما استعمل نفس هذه الكلمة بالنسبة لافسادهم الأول ، وذلك لافادة أن اختيارهم لطريق الشر أمر حتمي . ولا شك فيه لما يعلمه الله فيهم من خصائص ، وطموحات .

ولكن جواب الشرط قد جاء بصيغة المضارع لافادة حصول سوء الوجوه والتتير بصورة تدريجية ، ليكون ذلك أدعى في الازلال ، وأدّل على المساءة ولكن هذا المضارع إنما هو بملاحظة زمان تحقق الشرط في المستقبل .

ويلاحظ هنا : كثرة المؤكدات على صدور ذلك منهم ؛ فلاحظ قوله

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٣٧

تعالى: ﴿قضينا﴾ المشير الى حتمية ذلك لكن لا على سبيل الجبر، وإنما على سبيل الإخبار بما هو حتمي الوقوع بحسب ما يعلمه الله من أحوالهم. ثم عبر بكلمة: ﴿في الكتاب﴾ المفيدة إلى نوع التأكيد أيضاً.

ثم أتى بلام الإبتداء في أكثر من مورد، فقال: ﴿لتفسدن، ولتعلن﴾. ثم أتى بنون التوكيد. مشفوعة بإذا التي تستعمل في مقام الجزم بتحقيق الشرط.

وعقب على ذلك باعتباره وعداً قد جاء بصيغة التحقق والوقوع، حيث قال: ﴿إذا جاء وعد﴾ ولم يقل: وقت أو موعد وهو يقتضي الحصول والتحقق أيضاً، ثم الحقه بكلمة: ﴿بعثنا﴾، ولم يقل: سنبعث، ليشير إلى أنه أمر حاصل لامحالة، فهو يخبر عن وقوعه.

ثم عاد فكرر كونه وعداً ولكن بصيغة تؤكد وقوعه وحصوله حيث قال: ﴿كان وعداً﴾ ثم وصفه بقوله: ﴿مفعولاً﴾.

ونلاحظ أيضاً أنه لم يزل يعبر بـ: «أمددنا، بعثنا، جعلنا، رددنا» بصيغة الخبر عن أمر حاصل، واظهاراً للثقة بحصوله أيضاً. فلاحظ الآيات.

ج: إن المستفاد من هذه الآيات هو: أن من سوف تجري لهم مع بني اسرائيل هذه الاحداث هم جماعة واحدة، يجوسون خلال ديار بني اسرائيل أولاً، ثم ترد الكرة لبني اسرائيل عليهم، ثم يعودون هم إلى ضرب بني اسرائيل ضربة تسوء لها وجوههم، ويتبرأوا فيها ما علوا.

وذلك لأن الضمائر في: «جاسوا، وعليهم، وليسوا، وليدخلوا، ودخلوه وليتبرأوا» - كل هذه الضمائر ترجع إلى جماعة واحدة، عبر عنها بقوله تعالى: ﴿عباداً لنا﴾، وليس غيره في الآيات يصلح مرجعاً لهذه الضمائر - أصلاً.

د: يستفاد من هذه الآيات: أن هؤلاء العباد سوف يدخلون المسجد

٣٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

مرتين . وأن دخولهم هذا سوف يكون على نحو واحد في المراتين معاً ، أي بالقوة والقهر ، والغلبة ﴿ كما دخلوه اول مرة ﴾ .

هـ : إنه تعالى بعد أن ذكر الأحداث الأربعة عاد فقال : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ وهو لبيان قاعدة كلية ، وسنة إلهية في مواجهة طغيان بني اسرائيل وفسادهم ، وهو لا يدل على أن ذلك سوف يقع منهم ، بعد تلك الأحداث الأربعة ، بل إن ما سوف يقع جزءاً هو ما ذكر . أما ما سواه فلا دليل على حدوثه ، بل إن تعبيره بـ « إن » الشرطية ، الموضوعية للاستعمال في غير موارد الجزم لربما يشير إلى عدم الوقوع .

و : ان المقصود بـ : ﴿ عباداً لنا ﴾ قوم مؤمنون ، وذلك لاقتضاء ظاهر قوله : ﴿ بعثنا ﴾ ، وقوله : ﴿ عباداً لنا ﴾ ^(١) لأن البعث ، والعباد له ، لم يستعمل في القرآن - إلا ما شذ - إلا في مقام المدح والثناء ، ولا سيما مثل قوله تعالى : إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وغير ذلك .

ولا أقل من أنه قصد به ما سوى الكافرين .

ولربما يشير إلى ذلك أيضاً : أنه تعالى بعد أن ذكر انتصار عباده على بني اسرائيل وما سوف يحقق ببني اسرائيل من سوء ، وأنه جعل جهنم للكافرين حصيراً ، عاد فأجمل كل ذلك على شكل قاعدة كلية ، فبين : ان سنة الله هي أن يبشر عباده المؤمنين الذين يقفون المواقف الصالحة ، ويدافعون عن دينه - كهؤلاء العباد الذين أرسلهم على بني اسرائيل - بأن لهم أجراً عظيماً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويفسدون في الأرض ، ويعلمون ، علواً كبيراً ، كما هو حال بني اسرائيل قد أعتد لهم عذاباً اليماً ، فقال :

﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين

(١) الميزان للعلامة الطباطبائي ج ١٣ ص ٣٩ .

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٣٩

يعملون الصالحات: أن لهم أجراً عظيماً. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً.

ثم دخل في موضوع آخر.

ويرى العلامة المحقق البهائي السيد الطباطبائي «رحمه الله»: أنه لا دليل في الكلام - أي في قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا﴾ يدل على كون المبعوثين (مؤمنين)؛ إذ لا ضير في عدّ مجيئهم إلى بني إسرائيل، مع ما كان فيه من القتل الذريع، والاسر، والسبي، والنهب، والتخريب، بعثاً إلهياً؛ لأنه كان على سبيل المجازاة على إفسادهم في الأرض، وعلوهم، وبغيهم بغير الحق؛ فما ظلمهم الله ببعث أعدائهم، وتأبيدهم عليهم، ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم^(١).

ونقول:

إننا لا نستطيع - بدورنا - أن نقبل: أن الله تعالى يؤيد الظالمين والمجرمين بأي وجه. نعم، هو يخلي بينهم وبينهم، ويوقف تاييداته لهم، وهذا غير تأييده لأولئك، وبعثهم على هؤلاء.

إلا أن يُدعى أن المراد هو التسليط عليهم. وذلك بالتخلية فيما بينهم، ووقف التأييدات للفئة المؤمنة بسبب ما فعلته.

لكن يرد عليه: أن نسبة البعث - والحالة هذه إلى الله سبحانه - تصبح غير ظاهرة، ولا مقبولة.

كما أننا قد أشرنا فيما سبق إلى وجود بعض القرائن المشيرة إلى إيمان المبعوثين. فالأظهر هنا: هو أن أولئك العباد سوف يدفعهم أمر الله تعالى والتكليف الشرعي إلى القيام بذلك العمل؛ فيصح أن يقال: إن الله هو المحرك والباعث لهم.

(١) تفسير الميزان ج ١٣ ص ٣٩.

٤٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

هذا ما يستفاد من الآيات بشكل عام .

بقي الكلام في تطبيقها الخارجي ؛ فهل حصل وتحقيق مفادها كله في السابق؟ أو أنه لسوف يحصل ذلك كله في الآتي ١ . أو أن بعض ذلك قد حصل؟ . والبعض الآخر متوقع الحصول؟! .

أقوال الرواة والمفسرين:

لقد راجعنا عدداً من كتب الحديث والتفسير ، فوجدنا الروايات والانظار مختلفة ومتباينة في ذلك . .

ونحن نذكر موجزاً عن تلك الروايات ، والآراء بتلخيص منّا ، وذلك على النحو التالي :

١ - عن ابن مسعود: إن الفساد الاول هو قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط ، ثم عادوا هم فغزوا النبط ، فأصابوا منهم .

٢ - عن عطية العوفي : بعث الله عليهم أولاً جالوت ، ثم قتله طالوت على يد داود ، ثم قتلوا يحيى ؛ فبعث عليهم بخت نصر . وكذا عن ابن عباس .

٣ - عن علي : الفساد الاول قتل زكريا ، والثاني قتل يحيى ، مع عدم بيان من بعث عليهم في المرتين .

٤ - عن حذيفة : المرة الأولى بخت نصر ، ثم ردّهم كورش ، ثم عادوا في المعاصي ، فسلط عليهم ابطناً نحوس ، ثم عادوا في المعاصي ، فسلط عليهم ثالثاً اسبيانوس .

٥ - عن ابن زيد : الاولى قتل زكريا ويحيى ، فسلط عليهم سابور ذا الاكتاف ، الفارسي ، من قبل زكريا ، وبخت نصر من قبل يحيى .

٦ - عن مجاهد : ان ملك فارس بعث جنداً إليهم ليتجسسوا

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٤١

أخبارهم ويسمعوا حديثهم. ثم رجعت فارس، ولم ينكسر قتال، ونصرت عليهم بنو إسرائيل، ثم بعث عليهم ملك فارس ببابل جيشاً، أمر عليه بخت نصر؛ فدمروهم. (١)

رأي العلامة الطباطبائي:

قال العلامة الباحثة المحقق الطباطبائي أيده الله تعالى: «... والذي يظهر من تاريخ اليهود: أن المبعوث أولاً لتخريب بيت المقدس هو بخت نصر، وبقي خراباً سبعين سنة. والمبعوث ثانياً هو قيصر الروم اسبيانوس، سیر إليهم وزيره طوطوز، فحرب البيت، وأذل القوم قبل الميلاد بقرن تقريباً.

وليس من البعيد: أن يكون الحادثان هما المرادتان في الآيات؛ فان الحوادث الأخرى لم تفن جمعهم، ولم تذهب بملكهم واستقلالهم بالمرّة، لكن نازلة بخت نصر ذهبت بجمعهم، وسؤددهم إلى زمن كورش، ثم اجتمع شملهم بعد برهة، ثم غلب عليهم الروم، وأذهبت بقوتهم، وشوكتهم، فلم يزالوا على ذلك إلى زمن ظهور الاسلام».

قال هذا سلمه الله بعد أن ذكر: أنه كالمسلم: أن إحدى هاتين النكابتين كانت على يد بخت نصر (٢).

ولكنه عاد فأورد على نفسه بأن في الآيات إشعاراً بأن المبعوث إلى بني إسرائيل هم قوم بأعيانهم في كلا المرتين.

(١) راجع هذه الروايات في الدر المنثور للسيوطي ج ٤ ص ١٦٣ - ١٦٥ عن ابن جرير، وابن عساكر، وابن أبي حاتم، متفرقاً. وراجع: تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وفتح القدير، وغير ذلك من التفاسير، في تفسير الآيات في سورة الإسراء.

(٢) تفسير الميزان ج ١٣ ص ٤٤/٤٥.

٤٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وأجاب عن ذلك بأنه مجرد إشعار؛ من دون تصريح .

ونقول: إن الضمائر حسبما تقدم ليس لها مرجع في الكلام سوى قوله: «عباداً لنا». وهذا يدل دلالة واضحة على وحدة القوم المرسلين على بني إسرائيل وليس مجرد إشعار.

ومرادنا بالوحدة هو أن يكون لهم رابطة تجمعهم ككونهم فرساً، أو مسلمين مثلاً. ويرد على كلامه سلمه الله، وعلى جميع الروايات المتقدمة، عن الدر المنثور وغيره ما يلي:

١ - إننا لم نجد لبني إسرائيل كرة على بخت نصر، ولا على سابور ولا غيرهما. بل إن كورش قد أرجعهم إلى بلادهم بعد حوالي مئة سنة من أسر بخت نصر لهم. مع أن الآية تكاد تكون صريحة بأن لبني إسرائيل كرة على أولئك العباد المبعوثين.

٢ - إن النبط لم يدخلوا المسجد مرتين وكذلك بخت نصر، وقيصر، وغيرهم ممن ذكر جميعاً. وقد أشارت الآية الى أن المبعوثين سوف يدخلون المسجد مرتين.

٣ - إن جميع أولئك ما كانوا من المؤمنين، بل كانوا من الطغاة والمتجبرين.

٤ - إن بخت نصر كان قبل الميلاد بست مئة سنة تقريباً^(١) وكان يحيى معاصراً للمسيح «عليه السلام»^(٢) فكيف ينتقم له بخت نصر؟ كما أن سابور متأخر عن بخت نصر، لا مقدم عليه كما في الرواية.

(١) تفسير الميزان ج ١٣ ص ٤٤ وفي تاريخ الخميس ج ١ ص ١٧٣: من وقت تخريب بخت نصر بيت المقدس إلى مولد يحيى أربع مئة وإحدى وستون سنة.

(٢) راجع: قصص الأنبياء للنجّار ص ٣٦٩.

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٤٣

٥ - هذا كله عدا عن الاشكال في أسانيد تلکم الروایات^(١).

٦ - إن افسادهم في منطقة محدودة، لا يعني كون ذلك هو المقصود من الآية التي تتحدث عن افساد كبير، وعلو لهم في الارض. ولا شك انهم كانوا على مدى التاريخ أضعف من ان يكون لهم علو في الارض كلها، بل وحتى على سابور، أو بخت نصر أو غيرهما.

رأي آخر في الآيات:

ويحتمل البعض: أن الفساد الأول كان في منطقة الحجاز، فبعث الله النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عليهم، وضربهم الضربة القاصمة، وكان دخول عمر إلى المسجد الأقصى، الذي يمثل دخول المسلمين، هو المعنى في الآيات. وتبقى المرة الثانية ستأتي. كما ويحتمل أن تكون هي ضربة بخت نصر لهم هي الأولى، والثانية هي ضربة عمر لهم.

ولكن ذلك لا يمكن قبوله؛ لأن عمر حينما دخل المسجد الأقصى لم يكن في بيت المقدس أحد من اليهود، وإنما كان تحت سيطرة النصارى، الذين استولوا عليه قبل ذلك بعقود من الزمن. وكانوا يجعلون الاقذار والاوساخ على (الصخرة)، التي هي قبلة اليهود، بل كانت المرأة ترسل بخرقة حيضها من بلاد الروم إلى بيت المقدس لتلقى على الصخرة، مبالغة في امتنانها، وإذلالاً لليهود واحتقاراً لهم^(٢).

كما أنه لا معنى لارادة بخت نصر؛ ليكون هو بطل المرة الأولى، وذلك لما أشرنا إليه في النقاط الست الأنفة الذكر.

(١) هذه النقاط أشار إليها الأخ العلامة الشيخ ابراهيم الأنصاري حفظه الله تعالى في مقاله، في مجلة الهادي.

(٢) تقدم ذلك في تمهيد الكتاب.

٤٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

رأي آخر:

وثمة رأي آخر يقول: إن الفساد الأول هو انكارهم نبوة نبينا «صلى الله عليه وآله وسلم»، مع أنهم يعرفونه كما يعرفون ابناءهم، واتفقوا مع المشركين ضده.

وإرسال عباد الله على هؤلاء المفسدين هو ما جرى في صدر الاسلام. فأرسل الله النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» والمسلمين عليهم؛ فضربوهم في خيبر وقریظة؛ وقينقاع، وغير ذلك، وجاسوا خلال ديارهم، ثم دخل المسلمون المسجد الاقصى في زمن عمر.

والفساد الثاني هو ما جرى ويجري منهم في فلسطين ولبنان، والمنطقة بشكل عام، في هذا القرن الرابع عشر، ولسوف يأتي المهدي «عجل الله فرجه» لينتقم منهم. ويدخل المسلمون المسجد، كما دخلوه أول مرة في عهد عمر.

وقد قرّر بعض الاعلام هذا، وطبق الآيات عليه، على النحو التالي:

إنه ليس في الآيات ما يدل على أن الغلبة على اليهود، وغلبة اليهود على أولئك العباد تكون في مكان واحد محدد. وقوله تعالى: ﴿كما دخلوه أول مرة﴾ يشعر، بل يدل على أن قوله: ﴿جاسوا خلال الديار﴾، هو غير دخولهم المسجد، أي انهما أمران متغايران، كما يدل على أن الجوس خلال الديار متقدم على دخولهم المسجد، وذلك لمكان اللام في قوله: ﴿ليدخلوا﴾ التي هي لام العاقبة وقد تحقق ذلك في زمن عمر. كما أن عدم ذكر دخول العباد بيت المقدس حينما بعثهم أولاً يدل على أن دخول المسجد لما يتحقق لهم عند ذلك.

وتدل الآية على أن دخول المسجد في الثانية يكون أشد على اليهود لقوله وليتبروا ما علوا تتبيراً، ففسادهم الثاني يكون في غلبتهم على البلاد

الفصل الثالث: الإسراء والمعراج ٤٥

المقدسة، وقتلهم المسلمين، وهذا ما يحصل في هذا العصر. وجزاؤهم سيكون عاجلاً على يد أهل قم إن شاء الله تعالى، أو المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه، أو بامارته مع كون الجيش من أهل قم، والله العالم.

ونقول:

هذا رأي لا يمكن المساعدة عليه، لأن ما ذكر في تطبيق الآيات عليه مخالف لظاهرها.

فأولاً: إن الظاهر: هو أن دخول المسجد سيكون عنوة وقهراً ورغماً عن بني اسرائيل. وحينما دخل المسلمون المسجد في عهد عمر لم يكن في بيت المقدس أحد من اليهود، وإنما كان النصارى هم المسيطرون.

فلم يحارب المسلمون اليهود ليدخلوا المسجد بالرغم عنهم، من جهة، ومن جهة أخرى فإن عمر قد دخل بيت المقدس صلحاً وليس عنوة، وظاهر الآية: هو أن الدخول سيكون عنوة، معه سوء الوجوه، وفيه القهر والغلبة على اليهود انفسهم، ﴿ليسوا وجوهكم﴾، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتييرا ﴿﴾.

وثانياً: ما ذكر من أن اللام في «ليدخلوا» تدل على أن الدخول سيتأخر عن الجوس خلال الديار، وأن التفريق بين الجوس خلال الديار، ودخول المسجد، يدل على ذلك أيضاً. وكذا عدم ذكر الدخول للمسجد في المرة الأولى.

إن هذا الذي ذكر، لا يدل على ذلك؛ لأن ظاهر الآيات: أنه قد اكتفي في المرة الأولى عن ذكر دخول المسجد، بذكر الجوس خلال الديار، لأنه مستبطن له ويكون في ضمنه، ثم اوضحه بقوله: كما دخلوه أول مرة وقوله: ليدخلوا معطوف على ليسوا بالواو، التي لا تدل على الترتيب الزمني.

٤٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

بل لعل ذكر دخول المسجد بين التتبير لما علوا، وبين سوء الوجوه للإشارة إلى أن دخول المسجد سيكون في وسط المعركة، في المرة الثانية، وكذلك سيكون في المرة الأولى لقوله تعالى: ﴿كما دخلوه أول مرة﴾.

وإلا، فلو صح ما ذكره صاحب هذا الرأي، لوجب أن يكون الدخول الثاني للمسجد صلحاً، لا عنوة، كما كان دخول عمر بن الخطاب في السابق. وحينئذٍ فلا يبقى معنى لذكر دخول المسجد فيما بين قوله: ﴿ليسوؤا وجوهكم﴾، وبين قوله: ﴿ليتبروا ما علوا تتبيراً﴾.

وثالثاً: إنه لم يكن لليهود في زمن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فساد في الأرض، وعلو كبير فيها، وإنما كانوا في محيط ضيق جداً محصورين في نواحي المدينة، وكانوا مقهورين من قبل الأوس والخزرج، ويمالئون مشركي مكة، وسائر القبائل في المنطقة، فلا يصح أن يقال: إن لهم ﴿علواً كبيراً﴾. فضلاً عن إضافة قوله: ﴿في الأرض﴾ سواء قلنا: إن المراد: الأرض المقدسة، يعني فلسطين، أو قلنا: بأن المراد الأرض مطلقاً أي معظمها، أو السيطرة على مراكز القوة والنفوذ فيها.

وثمة رأي آخر أيضاً:

وهو أن الحروب التي جرت بين العرب واسرائيل تمثل المراحل الثلاث الأولى، وبقيت المرحلة الأخيرة، التي أشارت إليها الآية بالقول: ﴿فاذا جاء وعد الآخرة، ليسوؤا وجوهكم إلخ...﴾ وهي سوف تأتي إن شاء الله تعالى^(١).

وهذا أيضاً رأي لا يمكن المساعدة عليه؛ لأن العرب الذين حاربوا إسرائيل لم يجوسوا خلال ديار بني اسرائيل في حروبهم تلك، ولا دخلوا

(١) هذا رأي الشيخ ابراهيم الأنصاري في مجلة الهادي.

٤٧ الفصل الثالث: الإسراء والمعراج

المسجد عنوة، بل إنهم ليسوا من عباد الله المؤمنين؛ لأنهم قد تخلوا عن دينهم، وجروا خلف شهواتهم، واستبدت بهم انحرافاتهم بشكل واضح لكل أحد.

والروايات ماذا تقول:

لقد وردت بعض الروايات - التي ليس لها أسانيد - معتبرة - تفيد: أن الفساد الأول هو قتل علي، وطعن الحسن «عليه السلام»، والعلو الكبير هو قتل الحسين، ووعد أولاهما نصر دم الحسين، والمبعوثون أولاً هم قوم قبل خروج القائم، وكان وعداً مفعولاً: خروج القائم. وثم رددنا لكم الكرة عليهم: خروج الحسين في سبعين من أصحابه^(١).

وفي تفسير القمي: الفساد الأول: فلان وفلان، ونقضهم العهد، والعلو الكبير: ما ادّعوه من الخلافة. ووعد أولاهما: الجمل. وجاسوا خلال الديار: طلبوكم، وقتلوكم، ورددنا لكم الكرة: بنو أمية. ووعد الآخرة: القائم «عليه السلام»، وكما دخلوه أول مرة: رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم».

وواضح: أن مفاد هذه الروايات ليس هو محط نظر الآيات صراحة، وإنما هي - إن صحت - من باب الإشارة إلى أن ما يجري لبني إسرائيل، يجري مثله لهذه الأمة أيضاً؛ إذ من الواضح: أن ما ذكرناه في مفاد الآيات لا ينسجم مع ما جاء في هذه الروايات، كما يظهر بالملاحظة، والمقارنة.

الرأي الأمثل:

وإذ قد عرفنا معنى الآيات إجمالاً، وعرفنا: أن مفادها لم يحصل ولم يقع لبني إسرائيل بعد، لا في تاريخهم القديم، ولا الحديث، فأننا

(١) راجع: البحار ج ٥١ ص ٥٦ وتفسير البرهان، وتفسير نور الثقلين.

٤٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

نعلم: أن مفادها سيقع في المستقبل، ومفادها هو:

١ - أن يفسد بنو إسرائيل في الأرض (ولتلاحظ كلمة في الأرض)، فانه لا يصدق ذلك على بلد أو قرية صغيرة في نواحي الحجاز مثلاً، بل لا بد أن يكون فسادهم وعلوهم في الأرض المقدسة، أو في الأرض بصورة عامة. أو على الأقل في مراكز هامة، بحيث يرون انفسهم لا غالب لهم، ولا شيء يقف في وجههم. ثم يعلنون علواً كبيراً (ولتلاحظ هذه الجملة بدقة ايضاً).

٢ - أن يبعث الله عليهم عبداً له أتقياء مؤمنين، فيجوسون خلال ديارهم، ويدخلون المسجد. (والتعبير بالجوس لربما يشير إلى عدم المكث طويلاً فيها)؛ لأن الجوس هو الوطء الخفيف، وهو وطأ خلال الديار أو فيما بينها من دون ثبات وتحكم فيها نفسها أو لعله إشارة إلى الدخول السري للمجاهدين.

٣ - ثم يمد الله بني إسرائيل بأموال وبنين، ويصير جيشهم أعظم، ويردّ لهم الكرة على السابقين.

٤ - ثم يعود أولئك المؤمنون لإحتلال بلاد الاسرائيليين، ويدخلون المسجد من جديد، ويسوؤون وجوههم إلخ.

كل ذلك سوف يحصل في المستقبل، حسبما تفيد الآيات الكريمة، مع العلم بأنه لم يحصل من ذلك شيء في الماضي. ويبقى ان نشير الى المؤيدات التالية:

القميئون يقاتلون الاسرائيليين:

ويؤيد ما تقدم: ما رواه المجلسي عن كتاب تاريخ قم، تأليف: الحسن بن محمد بن الحسن القمي:

الفصل الثالث : الإسراء والمعراج ٤٩

«روى بعض أصحابنا قال : كنت عند أبي عبدالله «عليه السلام» جالساً؛ إذ قرأ هذه الآية : حتى^(١) إذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا، أولى بأس شديد؛ فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً .

فقلنا : جعلنا فداك ، من هؤلاء؟

فقال - ثلاث مرات - هم والله أهل قم .^(٢)

ولقد قال هذا «عليه السلام» قبل ان تخلق اسرائيل باكثر من اثني عشر قرناً، وفي حين لم يكن لليهود أية قوة في منطقة بيت المقدس .

وقوله «عليه السلام» هذا يعني : أن أهل قم باعتبارهم مسلمين ، او قادة للمسلمين هم الذين سوف يقودون الحرب ضد بني اسرائيل في المرة الأولى . وهم المعنيون بقوله : ﴿عباداً لنا﴾ وباقي الحديث يفهم من الايات الكريمة ؛ حيث تعود لإسرائيل الكرة عليهم بجيش أعظم . ثم يعود المسلمون بقيادة أهل قم أو بقيادة غيرهم (المهدي مثلاً) ليسووا وجوه الإسرائيليين وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة .

الغرب واسرائيل:

وثمة رواية ضعيفة أيضاً تقول : «وتشبه نار بالحطب الجزل من غربي الارض ، رافعة ذيلها ، تدعويها ويلها لرحلة ومثلها ؛ فإذا استدار الفلك ، قلت مات أو هلك بأي واد سلك ، فيومئذ تأويل هذه الآية : «ثم ردنا لكم الكرة عليهم ، وامددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا» .^(٣)

(١) الموجود في القرآن : (فإذا) فعل كلفة (حتى) من كلام الراوي .

(٢) البحار ج ٦٠ ص ٢١٦ .

(٣) البحار ج ٥٢ ص ٢٧٢/٢٧٣ . وراجع ج ٥١ ص ٥٧ .

٥٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

فهذه الرواية تشير إلى أن المرة الثالثة وهي علو الإسرائيليين وكرتهم على «عباداً لنا» لسوف تكون بمعونة غربية، تمدّهم بالمال والجيش حتى يصبحوا أكثر نفيراً وجندا. وسوف تكون حرباً ضروساً وقاسية، كما يفهم من لحن الرواية المشار إليها، لوصحت.

الحروب الطويلة والصعبة:

وهذه دولة الاسلام قد ظهرت، وهي بقيادة أهل قم، ولكنها تواجه الحروب المدمرة، والمؤامرات الصعبة من قبل قوى الاستكبار العالمي.

وقد جاء في الرواية المروية عن: علي بن عيسى، عن أيوب بن يحيى الجندل، عن أبي الحسن الأول «عليه السلام»، أنه قال:

«رجل من أهل قم، يدعو الناس إلى الحق، يجتمع معه قوم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف، ولا يملون من الحرب، ولا يجبنون، وعلى الله يتوكلون، والعاقبة للمتقين»^(١).

ولربما يمكن أن نستفيد من قوله: «لا تزلهم الرياح العواصف»: أن دولة الاسلام هذه سوف تواجه مشكلات صعبة، لا يثبت أمامها الرجال العاديون.

ومن قوله: «لا يملون من الحرب»: أنهم سوف يواجهون حروباً طويلة، يمل منها الانسان العادي. ولكنهم سوف يصمدون، وفي النهاية سوف ينتصرون إن شاء الله، وذلك لقوله: «والعاقبة للمتقين».

(١) البحار ج ٦٠ ص ٢١٦. ويلاحظ وجود بعض الاختلاف بين هذا النص وبين ما في الترجمة الفارسية لكتاب تاريخ قم. فلعل المترجم قد تصرف في العبارة. ولعل نسخة المجلسي تختلف عن النسخة المتداولة لكتاب تاريخ قم، فليلاحظ ذلك.

الفصل الثالث : الإسرائ والمعراج ٥١

الفلسطينيون والأرض:

وبعد كل ما تقدم، فاننا لا بد أن نشير هنا إلى أن الفلسطينيين قد هبوا للدفاع عن شرفهم وكرامتهم، وتحرير أرضهم، والدفاع عن دينهم واسلامهم.

واننا في نفس الوقت الذي نحى فيه الشعب الفلسطيني المسلم، ونحى المقاتلين الشرفاء والغيارى من هذا الشعب الأبي.

فاننا نجد بعض المنظمات، التي لا تمثل الشعب الفلسطيني، ولا اكثرية المناضلين من أجل حقهم ووطنهم، قد اعرضت عن هذا الاسلام العظيم، ولم تتخذة عقيدة ومنطقاً لها، بل هي لا تعرف منه الا اسمه، بل هي تحاول الابتعاد عنه، والتبري منه، وتعتبره رجياً ومتأخراً. وذلك لأنها تسعى وراء الحصول على مكاسب دنيوية، مادية. بل لقد اتخذت الماركسية وغيرها مذهباً وعقيدة لها؛ فبئس للظالمين بدلاً.

والأنكى من ذلك والأشد مرارة: أننا نشهد من هذه المنظمات محاولات جادة لاجهاض الثورة الاسلامية الفلسطينية، وتضييع ثمرة جهودها وجهادها. فقاتل الله الخونة الافاكين أنى يؤفكون.

ولكن شذوذ هؤلاء وانحرافهم لا يعني أنه يجب تشويه صورة الفلسطينيين جميعاً في أذهان الشعوب المسلمة المؤمنة؛ فان ذلك سوف يكون ظلماً آخر لهذا الشعب، كما أنه سوف يحرم القضية من قوة دافعة لها أهميتها. وذلك لأن أية قضية إذا أفرغت من محتواها الانساني؛ فانها تفقد زخمها وقوتها، ودافعها العاطفي وذلك لأن هذا الانسان العادي ربما يخطر له: انه لماذا يقاتل ويضحى، ما دام أن الارض يمكن أن تباع وتشترى، ويقايض عليها، والانسان وحده هو الاعلى والأعلى؛ فلماذا إذن تزهق النفوس والارواح في سبيل قطعة من الأرض، ما دام يمكن

٥٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الاستعاضة عنها بثمانها، ثم الاحتفاظ بهذا الانسان ومواهبه وطاقاته لما هو أهم، ونفعه أعم.

وحتى المسجد أيضاً، فليكن لأنصاف الحلول فيه مجال، ولن يمانع الاسرائيليون في وصول المسلمين إلى مسجدهم في كل حين، وممارسة عباداتهم فيه بحرية، إذا كانوا هم الحكام، أو كان تحت مظلة الامم المتحدة.

نعم، يمكن أن يخطر كل هذا في ذهن الانسان العادي. ولربما يؤثر هذا الخاطر على تعامله مع أقدس قضية، فيما إذا فصل الجانب الإنساني والعاطفي والاسلامي عن الأرض، فيضعف الدافع لتحريرها. وهناك الكارثة الحقيقية والخيانة والجريمة الكبرى.

إذن، فلا بد وأن تبقى المآسي والمظالم التي تعرّض ويتعرض لها الشعب الفلسطيني ماثلة للعيان أمام المقاتل المسلم والمؤمن بعدالة قضيته، ليندفع إلى التضحية والفداء في سبيل قضيته المقدسة، بروح رضية، ونفس أبيّة، وليمتزج من ثم. الوعي بالعاطفة، وكلاهما بالايمان.

مع التأكيد على أنه ليس للمسؤولين والسياسيين أن يربطوا مصيرهم ومصير أمتهم بأولئك المنحرفين، ولا أن يثقوا بهم، لأن أولئك المنحرفين سوف يدفعونهم في النهاية ثمناً لمصالحهم، ويساومون عليهم وبهم.

الباب الثاني:

حتى وفاة أبي طالب

الفصل الأول:

حتى الهجرة الى الحبشة

أهداف الإسلام:

إن من الواضح : أن أهداف الإسلام القصوى ليست هي مجرد تحقيق العدل ، ولو بمفهومه الأوسع ، إذ لو كان كذلك لم يبق معنى للأوامر الداعية إلى الجهاد والتضحية بالنفوس في سبيل الله والمستضعفين ، إذ لماذا يتخلى هذا الشخص عن نفسه وعن حياته في حين يبقى الآخرون يتمتعون بالحياة ، وبمباهجها ولذائدها؟! .

كما أنه لو كان العدل هو الهدف فلا يبقى معنى لمحبوبة الإيثار على النفس ومطلوبيته له تعالى . ثم مدح من يفعل ذلك من الناس كما في قوله تعالى :

﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾^(١) .

كما أنه لا معنى لنهي الإنسان عن الحقد والحسد ، وغير ذلك مما لا يمكن تتبعه واسقضاؤه .

فإن ذلك كله وسواه ليدل على أن الهدف ليس هو مجرد تحقيق العدل ، وإنما هو فوق ، وأهم ، وأقدس من ذلك .

إنه تجسيد إنسانية الإنسان ، وإظهار كنوزها ، والارتفاع بهذا الإنسان إلى مستوى الجدارة الحقيقية لأن يمثل النوزج الذي يريده الله للإنسان

(١) سورة الحشر : ٩ .

٥٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الكامل، وليس العدل وسواه من كمالات وفضائل، إلا واحداً من تلك المراحل والوسائل الموصلة إلى ذلك الهدف المقدس والأسمى، الذي يستبطن في داخله: كل العدل، وكل الكمالات وكل الفضائل، وأخيراً كل السعادة، والفوز والنجاح.

هذا هو هدف الإسلام، وهذا ما يسعى إليه، ويعمل من أجل الوصول والحصول عليه.

وليس أدل على ذلك من الآية الكريمة التي تحدد مهمة النبي الرسول، بأنه يعلم الناس الحكمة، ويظهرهم، ويزكيهم، بالإضافة إلى تبليغ رسالة الله لهم، قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾^(١).

وليلاحظ: أيضاً قوله تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم. وليتم نعمته عليكم، لعلكم تشكرون﴾^(٢).

ومن يراجع الآيات القرآنية يجد الكثير الكثير مما يدل على ذلك دلالة واضحة، حتى إن ذلك لا يحتاج إلى أي بيان أو توضيح، ولا إلى المزيد من الدلالات والشواهد.

الحاجة إلى الوزير والوصي:

وبعد أن عرفنا حقيقة هدف الإسلام، فإننا نعرف: أن مهمته شاقة وعسيرة جداً لأنها تصطدم أولاً وبالذات بالإنسان الفرد، حيث لا بدّ له من السيطرة على غرائزه وشهوته وطموحاته، ليوّجهها ويستفيد منها في مجال بناء الشخصية الإنسانية المثالية والفضلى.

كما أنها تهدف إلى التغيير الجذري في البنية الإجتماعية والسياسية

(٢) سورة المائدة/٦.

(١) سورة الجمعة/٢.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٥٩

وغيرها للمجتمع، ليقتلح كل جذور الشر، ويستأصل كل عوامل الانحراف؛ ليغرس عوضاً عنها كل معاني الخير والصلاح، والبركة والفلاح.

نعم، إنها مهمة شاقة وعسيرة جداً، ولا أشق ولا أعسر منها، وهي تحتاج لإنجازها ثم إلى استمرارها إلى جهد هائل ومستمر، ما دام أن الإنسان يحمل في داخله عوامل التغيير والتحول، التي منحها الله إياها لتكون عوامل لبقائه وسعادته ولراحته، وأعطاه أيضاً وسائل ضبطها والهيمنة عليها وتوجيهها.

ولكن تلك الوسائل كثيراً ما تضعف عن السيطرة على تلك العوامل. ولسوف يبقى هذا الخطر قائماً، ما دام ذلك الصراع قائماً. وإذا كان الصراع مستمراً باستمرار وجود الإنسان على مدى الزمان، وكان خطر الشذوذ والانحراف مستمراً أيضاً: فإن الأنبياء سيكونون بحاجة إلى مواصلة القيام بمهمة التربية والتزكية، وغرس الفضائل الإنسانية والأخلاقية في نفوس الناس، بالإضافة إلى الاستمرار في تلاوة الآيات القاهرة للعقل؛ والمرضية للوجدان، وبالإضافة إلى تعليم الشريعة والاحكام، ثم الإشراف على تطبيقها، والرقابة المستمرة على ذلك.

ومن هنا تبرز الحاجة إلى الوزير والوصي، والنصير والأخ والولي، والخليفة للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، فجاء تنصيب علي «عليه السلام» من قبل الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله هو الحركة السليمة والطبيعية في خط الجهاد والدعوة إلى الله سبحانه.

وما يوم الدار، وما جرى من تنصيب علي «عليه السلام» فيه خليفة ووزيراً ووصياً للرسول إلا واحداً من تلك المناسبات الكثيرة التي جرى فيها التأكيد على هذا الأمر، وترسيخه بصورة قوية وحاسمة. فإلى حديث الدار في ما يلي من مطالب.

٦٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وانذر عشيرتك الأقربين:

إنه بعد السنوات الثلاث الأولى بدأت مرحلة جديدة وخطيرة وصعبة، هي مرحلة الدعوة العلنية إلى الله تعالى.

وقد بدأت أولاً على نطاق ضيق نسبياً، حيث نزل عليه صلى الله عليه وآله قوله تعالى: ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾^(١) فيقول المؤرخون، (والنص للطبري)، ما ملخصه:

أنه لما نزلت هذه الآية دعا علياً «عليه السلام»؛ فأمره أن يصنع طعاماً، ويدعوله بني عبد المطلب ليكلّمهم، ويبلغهم ما أمر به.

فصنع علي عليه السلام صاعاً من طعام، وجعل عليه رجل شاة، وملاً عساً من لبن، ثم دعاهم، وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً، أو ينقصونه، فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة والعباس، وأبولهب. فأكلوا

قال علي «عليه السلام»: فأكل القوم، حتى مالهم بشيء من حاجة، وما أرى إلا موضع أيديهم، وأيم الله الذي نفس علي بيده، وإن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدّمت لجميعهم.

ثم قال: إسق القوم؛ فجئتهم بذلك العس؛ فشربوا منه حتى روي منه جميعاً، وأيم الله، إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكلّمهم بדרه أبولهب فقال: لقدّمأ سحر كم صاحبكم، ففترق القوم، ولم يكلّمهم الرسول صلى الله عليه وآله.

فأمر «صلى الله عليه وآله وسلم» علياً في اليوم الثاني: أن يفعل كما فعل آنفاً، وبعد أن أكلوا وشربوا قال لهم رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٦١

بأفضل مما قد جئتمكم به، إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه؛ فأياكم يوازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي، ووصيي، وخليفتي فيكم.

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقال علي: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي، ثم قال:

إن هذا أخي، ووصيي، وخليفتي فيكم؛ فاسمعوا له وأطيعوا.

قال: فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لإبنك وتطيع.

وفي بعض نصوص الرواية: أنه لما قام علي «عليه السلام» فأجاب، أجلسه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم».

ثم أعاد الكلام، فأجابه علي، فأجلسه، ثم أعاد عليهم، فلم يجيبوا، وأجاب علي «عليه السلام»، فقال له «صلى الله عليه وآله وسلم» ذلك.

وعلى حسب نص الإسكافي: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قال: هذا أخي، ووصيي، وخليفتي من بعدي. وأنهم قالوا لأبي طالب: أطلع إبنك، فقد أمره عليك^(١).

(١) راجع هذه القضية في: تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣، ومختصر تاريخ أبي الفداء ج ٢ ص ١٤ ط دار الفكر بيروت وشواهد التنزيل ج ١ ص ٣٧٢ و ٤٢١ وكنز العمال الطبعة الثانية ج ١٥ ص ١١٧/١٦ و ١١٣ و ١٣٠ عن ابن اسحاق، وابن جرير، وصححه وأحمد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي معاً في الدلائل، وتاريخ ابن عساكر، ترجمة الامام علي بتحقيق المحمودي ج ١ ص ٨٧ و ٨٨، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٤٤ عن الاسكافي، وحياة محمد لهيكل الطبعة الأولى ص ٢٨٦. ومسند أحمد ج ١ ص ١٥٩ وراجع أيضاً المصادر التالية: كفاية الطالب ص ٢٠٥ عن الثعلبي ومنهاج السنة ج ٤ ص ٨٠ عن البغوي وابن أبي حاتم والواحدي والثعلبي وابن جرير، ومسند أحمد ج ١ ص ١١١، وفرائد =

٦٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

التعصب الأعمى:

ولا بد أن نشير هنا: إلى أن الطبري، قد ذكر هذا الحديث في تاريخه على النحو المتقدم. ولكنه ندم على ذلك - على ما يظهر - فذكر نفس هذا الحديث في تفسيره برمته حرفياً، متناً وسنداً، ولكنه غير فيه عبارة واحدة، فذكرها على النحو التالي:

«فأيكم يوازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي، وكذا وكذا. إلى أن قال: ثم قال: إن هذا أخي وكذا وكذا»^(١)!!

وقد تبعه على هذا ابن كثير الشامي أيضاً؛ فلم تسمح نفسه بذكر ما في تاريخ الطبري. بل نقل خصوص ما في التفسير، مع أن تاريخ الطبري هو مصدره ومعتمده في تاريخه^(٢)!!

كما أن محمد حسنين هيكل بعد أن ذكر في كتابه حياة محمد، في الطبعة الأولى ص ١٠٤ نص الطبري في التاريخ. عاذ فحذف من الطبعة

= السمطين، بتحقيق الحمودي ج ١ ص ٨٦، وإثبات الوصية للمسعودي ص ١١٥/١١٦، والسيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٦٠/٤٥٩. والغدير ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٨٤ عن بعض من ذكرنا وعن: انباء نجباء الاءاء ص ٤٦ - ٤٧، وشرح الشفاء للخفاجي ج ٣ ص ٣٧، وتفسير الخازن ج ص ٣٩٠، وكتاب سليم بن قيس وغيرهم. وخصائص النسائي ص ٨٦ الحديث ٦٣.

وراجع: البحار ج ٣٨ والدر المنثور ج ٥ ص ٩٧ عن مصادر كنز العمال لكنه حرف فيه وجمع الزوائد ج ٨ ص ٣٠٢ عن عدد من الحفاظ باسقاط منه أيضاً، وينابيع المودة ص ١٠٥ وغاية المرام ص ٣٢٠ وابن بطريق في العمدة، وتفسير الثعالبي، وتفسير الطبري ج ١٩ ص ٧٥، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٤٠، وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٥٠ و ٣٥١.

(١) راجع تفسير الطبري ج ١٩ ص ٧٥.

(٢) راجع: تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٥١، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٤٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٥٩.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٦٣

الثانية ص ١٣٩ ط سنة ١٣٥٤ هـ . قوله: «وخليفتي فيكم» واقتصر على قوله: «ويكون أخي ووصي» وذلك لقاء خمسمائة جنيه، أو لقاء شراء ألف نسخة من كتابه^(١).

ابن تيمية، وحديث الدار:

أما ابن تيمية، فقد انكر - على عادته - في إنكار فضائل سيد الأوصياء أمير المؤمنين «عليه السلام» - حديث الدار، وأورد عليه بما ملخصه:

أولاً: إن في سند رواية الطبري أبو مريم الكوفي، وهو مجمع على تركه، وقال أحمد: ليس بثقة، واتهمه ابن المديني بوضع الحديث الخ .
وثانياً: تنص الرواية على أنه قد جمع بني عبد المطلب وهم أربعون رجلاً.

ومن الواضح: أنه حين نزول الآية لم يكن بنو عبد المطلب بهذه الكثرة.

وثالثاً: قول الرواية إن الرجل منهم ليأكل الجذعة، ويشرب الفرق من اللبن، كذب، إذ ليس في بني هاشم من يعرف بأنه يأكل جذعاً، ويشرب فرقاً.

ورابعاً: إن مجرد الإجابة للمعاونة على هذا الأمر لا يوجب أن يكون المجيب وصياً وخليفة بعده صلى الله عليه وآله؛ فإن جميع المؤمنين أجابوا إلى الإسلام، وأعانوه على هذا الأمر، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيله. كما أنه لو أجابه الأربعون؛ أو جماعة منهم فهل يمكن أن يكون الكل خليفة له؟

وخامساً: إن حمزة، وجعفرأ، وعبيدة بن الحرث قد أجابوا إلى ما

(١) راجع: فلسفة التوحيد والولاية ص ١٧٩ و١٣٢ وسيرة المصطفى ص ١٣١ و١٣٠.

٦٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

أجاب إليه علي ، بل حمزة أسلم قبل أن يصير المؤمنون أربعين رجلاً^(١).

الرد على ابن تميمية:

ولكن كل ما ذكره ابن تيمية لا يصح ، ولا يلتفت إليه ، وذلك لما يلي :

ألف - فأما بالنسبة لما ذكره أولاً عن أبي مريم ، فقد قال ابن عدي :

سمعت ابن عقدة يثني على أبي مريم ويُطريه ، وتجاوز الحد في مدحه^(٢) وأثنى عليه شعبة^(٣).

وقال عنه الذهبي : كان ذا اعتناء بالعلم وبالرجال^(٤).

وعدا عن ذلك فقد صرحوا بسبب تضعيفهم له ، وهو كونه شيعياً .

ونحن نرى أن ذلك لا يضره ؛ فقد روى أصحاب الصحاح ، ولا سيما البخاري ومسلم عن عشرات الشيعة^(٥).

ومع غض النظر عن ذلك ؛ فإن المتقى الهندي قد نقل عن الطبري :

أنه قد صحح هذا الحديث^(٦).

كما وصححه الإسكافي المعتزلي^(٧) وصححه أيضاً : الخفاجي في

شرح الشفاء^(٨).

وقد رواه أحمد بسندٍ جميع رجاله رجال الصحاح بلا كلام ، وهم :

(١) منهاج السنة ج ٤ ص ٨١ - ٨٣.

(٢) راجع : الغدير ج ٢ ص ٢٨٠ ، ولسان الميزان ج ٤ ص ٤٣.

(٣) لسان الميزان ج ٤ ص ٤٢.

(٤) و(٥) ميزان الاعتدال للذهبي ج ٢ ص ٦٣١ و ٦٤٠ ، ولسان الميزان ج ٤ ص ٤٢.

(٦) كنز العمال ج ١٥ ص ١١٣.

(٧) راجع : شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٤٤.

(٨) راجع : الغدير ج ٢ ص ٢٨٠.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٦٥

شريك، والأعمش، والمنهال، وعباد، وعلي «عليه السلام»^(١).

ولو سلم كل ذلك؛ فإن طرق الحديث مستفيضة، يقوى بعضها بعضاً؛ فلا يضر ضعف بعض الرجال في بعض الأسانيد.

وأعجب من ذلك دعوى أن لا تكون قضية الخلافة بعده صلى الله عليه وآله مذكورة في المسانيد، فإن من راجع المصادر التي ذكرناها للحديث آنفاً؛ يعرف أنها موجودة في عشرات المصادر والمسانيد.

وأما الطعن في رواية ابن أبي حاتم باشتمال سندها على عبد الله بن عبد القدوس. وقد ضعفه الدارقطني، وقال النسائي: ليس بثقة. وقال ابن معين: ليس بشيء، رافضي خبيث.

أما هذا - فقد قال الشيخ المظفر: «رحمه الله» تعالى في جوابه: «وفيه: أن تضعيفهم معارض بما في تقريب ابن حجر: أنه صدوق. وفي تهذيب التهذيب: قال محمد بن عيسى: ثقة. وذكره ابن حبان في الثقات.

وقال البخاري: هو في الأصل صدوق، إلا أنه يروي عن أقوام ضعاف. مع أنه أيضاً من رجال سنن الترمذي.

ومدح هؤلاء مقدم؛ لعدم العبرة في قدح أحد المتخالفين في الدين في الآخر، ويقبل مدحه فيه. وهم قذفوه بذلك؛ لأنهم رموه بالتشيع، ولا نعرفه في رجالهم.

لكن قد ذكر ابن عدي: أن عامة ما يرويه في فضائل أهل البيت. ولعل هذا هو سر تهمتهم له^(٢).

(١) راجع: المصدر السابق، ومسنند أحمد ج ١ ص ١١١.

(٢) دلائل الصدق ج ٢ ص ٢٣٤.

٦٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

٢ - وأما ذكره ابن تيمية ثانياً: فإن الظاهر هو أن كلمة (عبد) زيادة من الرواة، بدليل: أن عدداً من الروايات يصرح بأنه قد دعا بني هاشم^(١) وجاء في روايات أخرى: أنه دعا بني عبد المطلب، ونفراً من بني المطلب^(٢) فلعل الأمر قد اشتبه على الراوي وأضاف كلمة «عبد»، وهذا كثير. وعليه فلا يلزم من ذلك كذب أصل الواقعة المتفق عليها إجمالاً.

كما أن أبناء عبد المطلب إذا كانوا عشرة، وكان أصغرهم يصل عمره حينئذٍ إلى ستين عاماً؛ فلماذا لا يكون لهم من الولد ما لو انضموا إليهم لبلغوا أربعين رجلاً، بل أكثر من ذلك بكثير، وما وجه الاستبعاد لذلك؟

٣ - وأما ما ذكره ثالثاً: فقد أجاب عنه الشيخ المظفر: بأن عدم معرفتهم بالأكل لا تدل على عدم كونهم كذلك، فلعلهم كذلك في الواقع.

ولو سلم؛ فإنه يلزم منه مبالغة الراوي في إظهار معجزة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في إطعامهم رجل الشاة، وعسّ اللبن الواحد^(٣).

٤ - وأما ما ذكره ابن تيمية رابعاً: فجوابه ما ذكره الشيخ المظفر من أن قوله هذا ليس علة تامة للخلافة، ولم يدّع ذلك النبي صلى الله عليه وآله، ليشمل حتى من لم يكن من عشيرته، بل أمره الله بإنذار عشيرته؛

(١) كما في السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٥٩ عن ابن أبي حاتم وكذا في البداية والنهاية ج ٣ ص ٤٠، راجع كنز العمال ج ١٥ ص ١١٣، ومسند أحمد ج ١ ص ١١١ وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٥٠ وابن عساكر ترجمة الامام علي بتحقيق المحمودي ج ١ ص ٨٧، وثبات الوصية للمسعودي ص ١١٥، وتاريخ يعقوبي ج ٢ ص ٢٧، ومسند البزار مخطوط في مكتبة مراد رقم ٥٧٨.

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٦٢ ط صادر.

(٣) دلائل الصدق ج ٢ ص ٢٣٥.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٦٧

لأنهم أولى بالدفع عنه ونصره؛ فلم يجعل هذه المنزلة إلا لهم، وليعلم من أول الأمر: أن هذه المنزلة لعلي «عليه السلام» لأن الله ورسوله يعلمان: أنه لا يجيب النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ويوازره غير علي «عليه السلام»؛ فكان ذلك من باب تثبيت إمامته، بإقامة الحجة عليهم. ومع فرض تعدد المجيبين يعين الرسول الأحق بها منهم^(١).

وقد أوضح ذلك المحقق البحثة السيد مهدي الروحاني: بأن الخطاب إنما هو للجميع، لكن النبي صلى الله عليه وآله كان يعلم من خلقهم وعلاقاتهم، وطبائعهم: أنهم سوف لا يجيبون إلا علي «عليه السلام»، هذا بالإضافة إلى إعلام الله له بذلك.

ونقول نحن: ويؤيد ذلك النص الذي سوف يأتي نقله عن البحار، عن ابن طاووس، تحت عنوان: «ماذا قال النبي صلى الله عليه وآله يوم الانذار». وقد قلنا هناك: إن ذلك النص هو المنسجم مع الآية الكريمة، وقد جاء فيه: «إن الله لم يبعث رسولاً إلا جعل له أخاً، ووزيراً، ووصياً، ووارثاً من أهله، وقد جعل لي وزيراً كما جعل للأنبياء من قبلي. . . إلى أن قال: وقد والله أنبأني به، وسماه لي، ولكن أمرني أن أدعوكم وأنصح لكم، وأعرض عليكم لثلاث تكون لكم الحجة فيما بعد»^(٢).

واحتمل صديقنا المحقق الروحاني: أن يكون الخطاب لواحد منهم على سبيل البدل، ولذا قال لهم: أيكم يؤازرنني الخ. . . فالمجيب أولاً هو الذي يستحق ما وعد به «صلى الله عليه وآله وسلم»، وإجابة أكثر من واحد بعيدة الوقوع جداً، ولا يعتنى باحتمالها عرفاً. لا سيما وأن الذي يضرر هو التقارن في الإجابة، وذلك أبعد وأبعد. هذا مع علمه صلى الله عليه وآله بأنه لا يجيب سوى واحد منهم.

(١) دلائل الصدق ج ٢ ص ٢٣٦.

(٢) البحار ج ١٨ ص ٢١٥/٢١٦، عن: سعد السعود ص ١٠٦.

٦٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ولكن قد ذكر بعض الأعلام: أن كون المراد هو الموازنة في الجملة بعيد؛ لكون المسلمين على اختلاف مراتبهم قد وازروه في الجملة. فالمراد هو الموازنة في جميع الأمور والأحوال. والموازنة الكاملة في الدين تحتاج إلى أعلى درجات الوعي، والعلم، والسمو الروحي إلى درجة العصمة. الأمر الذي يعني: أن شخصاً كهذا هو الذي يستحق الإمامة، ولا يستحقها سواه؛ ممن تلبس بالظلم، كما قال تعالى: «لا ينال عهدي الظالمين». وليس ذلك سوى علي «عليه السلام».

أضف إلى ذلك: أن إمامة وخلافة علي «عليه السلام»، إنما هي بجعل من الله سبحانه وتعالى، لا بجعل من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لتترتب على الموازنة المنشودة، والمرغّب بها، مع علم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بعدم إجابة غير علي «عليه السلام»، فيكون ما جرى في يوم الإنذار لأجل إقامة الحجة، وقطع كل عذر. فكلام المظفر هو الأولى والأقرب انتهى.

وأما ما ذكره ابن تيمية خامساً، وأخيراً فهو لا يصح أيضاً بأي وجه: أولاً: لأن وجود حمزة إنما يضر، لو كان قد أسلم قبل نزول آية الإنذار، ونحن لم نستطع: أن نحتمل ذلك، فضلاً عن أن نجزم به؛ إذ من القريب جداً، بل هو ظاهر، إن لم يكن صريح ما ورد في كيفية إسلام حمزة: أن يكون إسلامه بعد الإعلان بالدعوة، وبعد وقوع المواجهة بين النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وقريش، وبعد مفاوضاتها لأبي طالب.

وثانياً: لو سُلم فإن إنذار عشيرته يمكن أن يكون أثناء الدعوة السرية، وقبل إسلام حمزة، حتى لو كان قد أسلم في الثانية من البعثة، ويكون ما جرى بين حمزة وأبي جهل، بمثابة إعلان جزئي للدعوة. وتكون قريش قد بدأت تتعرض لشخص النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» حتى في الدعوة السرية، وأما بالنسبة لسائر من أسلم فقد كان ثمة محدودية في

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٦٩

التعامل معهم، وسرية بالنسبة لمن يدخل في الإسلام منهم. ويدل على ما ذكرناه: أنهم يذكرون: أن قوله تعالى: «فاصدع بما تؤمر» كان هو السبب في إخراج الدعوة من السر إلى العلن. ولا ريب أن إنذار العشيرة كان قبل ذلك.

وثالثاً: إن وجود حمزة، إن كان قد أسلم آنئذٍ، كوجود أبي طالب بينهم، فلعلهما كانا يريان أنهما غير مقصودين بهذه الدعوة. ولا سيما إذا كانا يدركان: أن بقاءهما إلى ما بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أبعد احتمالاً؛ فإن سنّ حمزة كان يقارب سن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، كما يدعون، ولكننا نعتقد: أنه كان أكبر من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بأكثر من عشرين سنة، لأنه كان أكبر من عبدالله، والد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» والذي كان أصغر أولاد عبد المطلب.

وهكذا يقال بالنسبة للعباس أيضاً.

وأما أبو طالب؛ فإنه كان شيخاً هرمّاً لا يحتمل البقاء إلى ما بعد وفاته صلى الله عليه وآله، فلا معنى لأن يقدم أي منهما نفسه على أنه خليفته من بعده، أو على الأقل هكذا فكراً آنئذٍ.

وهكذا يتضح: أن جميع ما جاء به ابن تيمية إنما كان كسراب بقيقة، أو كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

نقاط هامة في حديث الإنذار

الف - روايات لا يمكن أن تصح:

هذا، وقد حاول ابن تيمية أن يقوي جانب روايات أخرى تبعد علماً وأهل البيت عن الأنظار، بل وتستبعد الهاشميين منه عموماً أيضاً كتلك الروايات التي في الصحيحين، والتي تقول: إنه «صلى الله عليه وآله

٧٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وسلم» جمع قريشاً - حين نزل قوله تعالى : ﴿وأنذر عشيرتک الأقربين﴾ فاجتمعوا ، فخصّ وعمّ ، فقال : يا بني كعب بن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار الخ^(١) .

وفي رواية أخرى : إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» جمع بني هاشم وأجلسهم على الباب ، وجمع نساءه فأجلسهم في البيت . ثم كلم بني هاشم ، وبعد ذلك أقبل على أهل بيته ؛ فقال : يا عائشة بنت أبي بكر ، ويا حفصة بنت عمر ، ويا أم سلمة ، ويا فاطمة بنت محمد ، ويا أم الزبير عمة رسول الله ، اشتروا أنفسكم في الله ، واسعوا في فكاك رقابكم ؛ فاني لأملك لكم من الله شيئاً ، ولا أغني ؛ فبكت عائشة وقالت . . ثم تذكر الرواية محاورة لها معه «صلى الله عليه وآله وسلم»^(٢) .

وثمة نصوص أخرى كلها تؤكد على دعوته قريشاً وإنذاره لها .

وهذه الروايات لا يمكن أن تصح .

فأولاً : لقد تقدم : أن فاطمة صلوات الله وسلامه عليها لم تكن حينئذٍ قد ولدت .

(١) راجع : منها ج ٤ ص ٨٣ ، والدر المنثور ج ٥ ص ٩٥ و٩٦ عن : أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه والبيهقي عن عائشة ، وأنس ، وعروة بن الزبير ، والبراء ، وقتادة ، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٨٧ .

(٢) الدر المنثور ج ٥ ص ٩٦ عن : الطبراني ، وابن مردويه ، عن أبي أمامة ، وهذه الروايات موجودة في مصادر كثيرة أخرى ولا سيما تلك التي ذكرناها في أوائل هذا البحث كمصادر للنص الأول .

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٧١

وثانياً: إن عائشة^(١) وحفصة، وأم سلمة لم يكن من أزواجه حينئذٍ، ولا كن من أهله، وإنما صرن من أهله في المدينة بعد ذلك بسنين كثيرة..

وثالثاً: إن هذه الروايات تناقض ما ورد من أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» إنما دعا قريشاً وباءها حين نزل قوله تعالى: فاصدع بما تؤمر. وليس حين نزل قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾.

ورابعاً: إن هذه الروايات تناقض نص الآية نفسها، فإنها تأمره بأنذار العشيرة الأقربين، لا مطلق عشيرته، ولا مطلق الناس، وعشيرته الأقربون إما هم بنو هاشم، أو بنو عبد المطلب، والمطلب.

والقول بتعدد الإنذار: لا يدفع الإشكال، بعد تصريح الروايات: بأن مفادها قد وقع حين نزول الآية عليه «صلى الله عليه وآله وسلم».

وهذا كله مع غض النظر عما في أسانيد هذه الروايات، فإن جميع رواتها - كما يقولون - لم يدركوا زمان إنذار عشيرته «صلى الله عليه وآله وسلم».

ب - ما المراد بكونه خليفته في أهله:

وقد ذكر الشيخ المظفر (ره): أن من الواضح: أن قوله: خليفتي فيكم، أو في أهلي لا يضر، ما دام أن ثمة إجماعاً على عدم جواز وجود خليفتين: خاص، وعام. فخلافته الخاصة تقتضي خلافته المطلقة. ولعل الأصح هو: أنه قال - كما في الروايات الأخرى -: «من بعدي»، أو أنه قال: «فيكم»، باعتبار أنهم من المسلمين.

(١) والغريب في الأمر: أنهم يعتقدون: أن عائشة إنما ولدت في الخامسة من البعثة، والإنذار للعشيرة كان في الخامسة، فهم يناقضون أنفسهم مناقضة صريحة، وإن كنا نحن نعتقد: أن عائشة قد ولدت قبل البعثة بسنوات، كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى.

٧٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وأما القول بأن المقصود: هو أنه القائم بشؤونهم الدنيوية؛ فيكذبه الواقع؛ فإن علياً «عليه السلام» لم يكن كذلك بالنسبة لأي من الهاشميين. ولو كان المقصود هو خصوص الحسين عليهما السلام، وفاطمة صلوات الله وسلامه عليهما، فإن من الواضح أنهما وكذلك أمهما ما كانوا قد ولدوا بعد. كما أن نفقة هؤلاء واجبة عليه بالأصالة لا بالخلافة، وأما غيرهم فلم يكن «عليه السلام» مكلفاً بالإنفاق عليه، ولا كان يفعل ذلك^(١).

أضف إلى ذلك كله: أنه بعد أن يصبح الإنسان رجلاً عاقلاً وكاملاً، فإنه لا يبقى بحاجة إلى وليّ يدبر شؤونه، بل يستقل هو نفسه في ذلك. وعلى هذا، فلا يبقى للولي وللخليفة معنى. إذا كان هذا هو المراد. ونشير هنا إلى أن الدواعي كانت متوفرة لتحريف هذه الواقعة، وجعلها خاصة بالخلافة على الأهل، ولا تشمل الخلافة العامة التي هي موضع الأخذ والرد كما هو معلوم.

ج - لماذا تخصيص العشيرة بالدعوة؟!

هذا ولا يخفى أن الإهتمام بدعوة عشيرته الأقربين كان خير وسيلة لتثبيت دعائم دعوته، ونشر رسالته؛ لأن الإصلاح يجب أن يبدأ من الداخل، حتى إذا ما استجاب له أهله وقومه، اتجه إلى غيرهم بقدم ثابتة، وعزم راسخ ومطمئن.

كما أن دعوته لهم سوف تمنحه الفرصة لاكتشاف عوامل الضعف والقوة في البنية الداخلية، من حيث ارتباطاته وعلاقاته الطبيعية، وليعرف مقدار الدعم الذي سوف يلاقيه؛ فيقدر مواقفه، وإقدامه، وإحجامه على أساسه.

(١) راجع: دلائل الصدق ج ٢ ص ٢٣٩.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٧٣

أضف إلى ذلك: أنه حين يبدأ بالأقربين من عشيرته، ولا يبدو أنه على استعداد لتقديم أي تنازل أو مساومة حتى بالنسبة إلى هؤلاء، فإن معنى ذلك هو أن على الآخرين أن يقتنعوا بأنه منسجم مع نفسه، ومقتنع بصحة ما جاء به، ويريد لأحب الناس إليه، الذين لا يريد لهم إلا الخير، أن يكونوا في طليعة المؤمنين الذين يضحون بكل غالٍ ونفيس في سبيل هذا الدين. وقد رأينا: أن النصارى قد تنبهوا إلى ذلك في قضية المباهلة. فراجع.

ومن الجهة الأخرى: فإنه يعيش في مجتمع يقيم علاقاته على أساس قبليّ؛ - فحين يريد أن يقدم على مواقف أساسية ومصيرية - وحين لا يكون هو نفسه يرضى بالاعتماد على القبلية كعنصر فعال في حماية مواقفه، وتحقيق أهدافه؛ فإن من اللازم: أن يتخذ من ذوي قرباه موقفاً صريحاً، يضعهم في الصورة الواضحة؛ وأن يهيء لهم الفرصة ليحددوا مسؤولياتهم، بحرية، وصراحة، وصفاء، بعيداً عن أي ضغط، وابتزاز ولو كان هذا الضغط من قبيل العرف القبلي في ما بينهم؛ لأنه عرف مرفوض إسلامياً.

وهنا تبرز واقعية الإسلام في تعامله مع الأمور، وفي معالجته للقضايا، الإسلام الذي لا يرضى أن يستغل جهل الناس وبساطتهم، وحتى أعرافهم - الخاطئة - التي ارتضوها لأنفسهم في سبيل منفعه، وتحقيق أهدافه.

نعم، إن الإسلام يعتبر الوسيلة جزءاً من الهدف، فلا بد أن تنسجم وتتلاءم معه - كما لا بد أن تنال من الطهر والقداسة بالمقدار الذي يناله الهدف نفسه.

وفقنا الله للسير على هدى الإسلام، والالتزام بتعاليمه؛ إنه خير مأمول، وأكرم مسؤول.

٧٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وعلى كل حال، فقد خرج «صلى الله عليه وآله وسلم» من ذلك الاجتماع بوعدٍ أكيد من شيخ الأبطح، أبي طالب (ره) بالنصر والعون؛ فإنه لما رأى موقف أبي لهب اللانساني، واللامعقول، قال له:

«يا عورة، والله لننصرنه، ثم لنعيننه. يا ابن أخي، إذا أردت أن تدعو إلى ربك فأعلمنا، حتى نخرج معك بالسلاح^(١)».

د - علي «عليه السلام» في يوم الإنذار:

ونجد في يوم الإنذار: أن إختيار النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يقع على أمير المؤمنين «عليه السلام»، ليكون المضيف لجماعة يناهز عددها الأربعين رجلاً، فيأمره بأن يصنع طعاماً، ويدعوهم إليه والظاهر: أن ذلك قد كان في بيت النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه، لأن علياً «عليه السلام» كان عند رسول الله صلوات الله عليه وآله في بيته على ما يظهر - وقد كان بإمكانه «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يطلب من خديجة أن تصنع لهم الطعام. هذا، مع وجود آخرين، أكثر وجاهة ومعروفة من علي «عليه السلام»، كأبي طالب، وكجعفر، الذي كان يكبر علياً في العمر، وغيرهما ممن يمكن أن يستفيد من نفوذه وشخصيته في التأثير على الحاضرين.

ولكنه قد اختار علياً بالذات ليتفادى أي إحراج يبعد القضية عن مجالها الطبيعي، الذي يركز على القناعة الفكرية والوجدانية بالدرجة الأولى، ولأن علياً - وإن كان حينئذٍ صغير السن، إلا أنه كان في الواقع كبيراً في عقله، وفي فضائله وملكاته، كبيراً في روحه ونفسه، كبيراً في آماله وأهدافه. - ولا أدل على ذلك من كونه هو المجيب للرسول، دون كل من حضر، ليؤازره ويعاونه على هذا الأمر. وقد رآه النبي «صلى الله

(١) تاريخ البعقوبي ج ٢ ص ٢٧/٢٨ ط صادر.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٧٥

عليه وآله وسلم» منذئذٍ أهلاً لأن يكون أخاه، ووصيه، وخليفته من بعده. وهي الدرجة التي قصرت همم الرجال عن أن تنالها، بل وحتى عن أن يدخل في وهمها: أن تصل ولو في يومٍ ما إليها، وتحصل عليها.

ولكن علياً كان منذ نعومة أظفاره هو السباق إليها دون كل أحد؛ لأنه عاش في كنف الرسول، وكان «صلى الله عليه وآله وسلم» كفيلاً ومربيه، وكان يبرده له الطعام، ويشمه عرقه، وكان يتبع الرسول اتباع الفصيل أثر أمه، وكان كأنه ولده^(١). وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

هـ - موقف أبي لهب:

ولقد أدرك أبو لهب مغزى تلك الدعوة، ورأى أن الأمر قد بلغ مرحلة الجد. وها هو يرى بأم عينيه معجزة أخرى، تضاف إلى الكثير مما رآه من معاجز وكرامات للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، طيلة السنوات الكثيرة التي عرف فيها النبي وأحواله - فيرى أن فخذ شاة، وعساً من لبن، يكفي أربعين رجلاً.

وأبو لهب هو ذلك الرجل الذي يعرف طبيعة وأهداف هذا الدين الذي يبشر فيه محمد «صلى الله عليه وآله وسلم». وأنه لا يقيم وزناً لأي امتياز أو مكسب شخصي حصل عليه الإنسان من طريق الإبتزاز والظلم، وسائر أنواع التعدي والانحراف. إذن، فلا بد لأبي لهب، بحسب منطقته

(١) وليس في كفاية النبي «صلى الله عليه وآله» لعلي غضاضة على أبي طالب شيخ الأبطح - كما يقول البعض - لأن عبدالله وأبا طالب كانا من أم واحدة بخلاف سائر أبناء عبد المطلب، وقد ربي النبي «صلى الله عليه وآله» في حجر أبي طالب وكان «صلى الله عليه وآله» يخاطب فاطمة بنت أسد بيا أمه، وكانت عناية أبي طالب وزوجته به «صلى الله عليه وآله» فائقة جداً. وكان علي «عليه السلام» كأنه ابن لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، مع ملاحظة التفاوت في السن فيما بينهما.

٧٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

اللامنطقي: أن يقف في وجه هذا الدين، ويمنعه من تحقيق أهدافه بكل وسيلة ممكنة. ولا بد من تضييع الفرصة على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وذلك حفاظاً على ما يراه أنه مصلحته أولاً، وليرضي حقه وحسده الذي يعتل في صدره ثانياً؛ ذلك الحقد الذي لا مبرر له إلا أنه يرى في شخصية النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» الصفات الحميدة، والأخلاق الرضية الكريمة، والسجايا الفاضلة، فإن ذلك يعتبر عنده ذنباً، وأي ذنب.

فبادر إلى المواجهة الصريحة، والوقعة والقبيحة، حيث استغل معجزة الطعام التي يراها الجميع بأم أعينهم، فرمى النبي الأكرم بالسحر وقال: لقدما سحركم صاحبكم. فتفرق الجمع في اليوم الأول، ولم يستطع الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يقول كلمته حتى اليوم التالي؛ حيث استطاع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يصدع بما أمره الله تعالى، ويقيم عليهم الحجة، كما تقدم بيانه.

و - الإنذار أولاً:

وما دمنّا في الحديث عن إنذار عشيرته الأقربين؛ فإننا نسجل هنا: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أمر من قبل الله تعالى بالإنذار أولاً لعشيرته، فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١). وكذلك الحال بالنسبة لغيرهم من سائر الناس، فإنه تعالى قد قال لنبيه، كما في سورة المدثر، التي هي من العتائق النازلة في أوائل البعثة: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾^(٢).

فقد جاء الإنذار أولاً، مع أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أرسل مبشراً ونذيراً، ومع أن القرآن هدى وبشرى أيضاً.

(١) الشعراء/٢١٤.

(٢) المدثر/٢.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٧٧

وسر ذلك واضح ؛ فإن الناس كانوا في أول البعثة كفاراً، ومنغمسين في الظلم والانحراف إلى أبعد مدى. فلا بد من إنذارهم أولاً؛ ليلتفتوا إلى الواقع السيء الذي يعيشونه، وإلى العواقب المدمرة والمرعبة، التي تنتظرهم نتيجة لذلك. والتفاتهم هذا لسوف يؤثر فيهم التطلع، ثم الحركة نحو الخروج من ذلك الواقع، والتخلص منه.

ثم يأتي بعد ذلك دور تخليص المجتمع من رواسيه، ومن حركاته، وأعماله، ومواقفه السيئة، على مستوى الفرد، وعلى مستوى الجماعة، وتطهيره من كل غريب ومريض.

ومعه جنباً إلى جنب تكون عملية وضع الأسس المتينة والسليمة لبناء الهيكل العام للمجتمع المسلم في عواطفه، وفي علاقاته، وفي روابطه. والأهم من ذلك؛ في فكره وثقافته، وإعطائه المفهوم الحقيقي والواقعي عن الكون، وعن الحياة، وبالذات عن هذا الإنسان القوي الضعيف، وليطرد قدماً في عملية بناء الإنسان من الداخل، وتربيته وتزكيته، كما هو وظيفة النبي والإمام، وكل داعية إسلامي على الإطلاق.

وقد أشرنا في أول هذا الفصل إلى هذا، مستفيدين من قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾.

وهذا الذي ذكرناه عن أسلوب الإسلام في دعوته، هو التحرك الطبيعي لأية دعوة، تستهدف الإصلاح الجذري، والتغلب على مشاكل الحياة. والتخطيط لمستقبل مشرق سعيد.

ز - ماذا قال النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في يوم الإنذار:

وقد جاء في بعض النصوص أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قال لهم: «يا بني عبد المطلب، إني لكم نذير من الله جل وعز، إني أتيتكم

٧٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

بما لم يأت به أحد من العرب، فإن تطيعوني ترشدوا، وتفلحوا، وتنجحوا، إن هذه مائدة أمرني الله بها؛ فصنعها لكم، كما صنع عيسى بن مريم «عليه السلام» لقومه؛ فمن كفر بعد ذلك منكم، فإن الله يعذبه عذاباً شديداً، لا يعذبه أحداً من العالمين، واتقوا الله، واسمعوا ما أقول لكم، واعلموا يا بني عبد المطلب: أن الله لم يبعث رسلاً إلا جعل له أخاً، ووزيراً، ووصياً، ووارثاً من أهله. وقد جعل لي وزيراً كما جعل للأنبياء من قبلي، وإن الله قد أرسلني إلى الناس كافة، وأنزل علي: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ورهطك المخلصين^(١)، وقد والله أنبأني به، وسماه لي. ولكن أدعوكم، وأنصح لكم، وأعرض عليكم؛ لئلا يكون لكم الحجة فيما بعد، وأنتم عشيرتي وخالص رهطي، فأيكم يسبق إليها على أن يؤاخيني في الله، ويوازرني»، إلى آخر كلامه «صلى الله عليه وآله وسلم»، الذي ينسجم مع النص الذي ذكرناه في أوائل هذا الفصل فراجع^(٢).

وهذا النص هو الأوفق والأنسب لموقف كهذا، وهو ينسجم تماماً مع أمر الآية بالإنذار، فإن الإنذار أولاً هو الخطوة الطبيعية لأية دعوة، كما ذكرنا آنفاً.

ح - التبشير والإنذار:

ويقول المحقق البحاث المرحوم الشيخ مرتضى المطهري: إن من يريد إقناع إنسان مّا بعمل مّا، فله طريقان: أحدهما: التبشير، بمعنى تشويقه، وبيان فوائد ذلك العمل. الثاني: إنذاره ببيان ما يترتب على تركه من مضار، وعواقب سيئة.

(١) هذا توضيح منه «صلى الله عليه وآله» وتفسير للمراد من الآية.

(٢) البحار: ج ١٨ ص ٢١٥/٢١٦ عن سعد السعود لابن طاووس: ص ١٠٦.

٧٩ الفصل الأول : حتى الهجرة الى الحبشة

ولذلك قيل : الإنذار سائق، والتبشير قائد .
والقرآن والإسلام يرى : أن الإنسان يحتاج إلى هذين العنصرين معاً ، وليس - كغيره - يكفيه أحدهما .
بل ويرى الإسلام : أنه لا بد وأن ترجح كفة التبشير على كفة الإنذار . ولذلك قدّم الأول على الثاني في أكثر الآيات القرآنية .
ومن هنا ، فقد قال «صلى الله عليه وآله وسلم» لمعاذ بن جبل ، حين أرسله إلى اليمن : «يسّر ولا تعسر ، ويسّر ولا تنفر» .
فهو هنا لم يستبعد الإنذار ، بل هو جزء من خطته . وإنما اهتم بجانب التبشير إذ يمكن بواسطته إدراك مزايا الإسلام وخصائصه الرائعة ، وليكون إسلامهم من ثم عن قناعة حقيقية ، وقبول تام .
وأما قوله «صلى الله عليه وآله وسلم» : ولا تنفر ، فهو واضح المأخذ ، فإن روح هذا الإنسان شفاقة جداً ، وتبادر إلى ردة الفعل بسرعة ، ومن هنا فإننا نجد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يأمر بالعبادة ما دامت النفس مقبلة ، ولا يقبل بالضغط عليها ، وتحميلها مالا تطيق . ولهذا شواهد كثيرة في الشريعة السهلة السمحاء^(١) .
ومما تقدم نستطيع أن ندرك : لماذا اشتملت دعوته «صلى الله عليه وآله وسلم» لعشيرته على التبشير أيضاً ؛ بأن من يؤازره سوف يكون خليفة بعده ، وأنه قد جاءهم بخير الدنيا والآخرة ، تماماً كما بدأت بالإنذار ، فإن ذلك ينسجم مع ما تشاقق إليه نفوسهم ، ويتلاءم مع رغباتهم . ويأتي من قبل من لا يمكن اتهامه لديهم بأي وجه .

(١) راجع : جريدة جمهوري اسلامي الفارسية رقم ٢٥٤ سنة ١٣٥٩ هـ . ش في مقالات للمطهرى رحمه الله تعالى .

٨٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ط - أخي ووصيي:

ويلفت نظرنا هنا قوله «صلى الله عليه وآله وسلم»: «على أن يكون أخي الخ. فإن ذلك يؤكد لهم على مدى التلاحم والمحبة بينه وبين ذلك الذي يؤازره ويعاونه، إلى حد أنه يعتبره أخاً له، فليست العلاقة بينهما علاقة رئيس ومرؤوس، وأمر ومأمور، ولا عالٍ بدانٍ، وإنما هي علاقة بين متكافئين في الإنسانية، كما أنها علاقة تعاون وتعاضد على العمل البناء والمثمر، وعلاقة أخ مع أخيه، تغمرها المحبة، والثقة والصفاء، بكل ما لهذه الكلمات من معنى.

أضف إلى ذلك، ما في ذلك من دلالة على المستوى السامي الذي كان قد بلغه أمير المؤمنين «عليه السلام» حتى يستحق وسام الأخوة فيما بينه وبين سيد البشر، من مضي منهم، ومن غبر.

فاصدع بما تؤمر:

وبعد أن أندر «صلى الله عليه وآله وسلم» عشيرته الأقربين. وبعد أن انتشر أمر نبوته «صلى الله عليه وآله وسلم» في مكة، بدأت قريش تتعرض لشخص النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بالإستهزاء والسخرية، وأنواع التهم، كما يظهر؛ إذ أنهم قد عرفوا جدية القضية، وأدركوا أبعادها. فبادروا إلى تلك الأساليب بهدف الحط منه «صلى الله عليه وآله وسلم» أمام الرأي العام، وابتذال شخصيته. على الرغم من أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يطلب منهم بعد أن يؤمنوا بما جاء به، كل ذلك حسداً وبيعاً منهم، وتخوفاً من المستقبل، ليس إلا.

وكان لذلك الإستهزاء تأثير على إقبال الناس على الدخول في الإسلام؛ فاغتم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لذلك جداً، واعتبر ذلك عائقاً في سبيل انتشار دعوته، وأداء مهمته؛ فأنزل الله عليه يأمره بإظهار

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٨١

الدعوة، والطلب حتى من قريش: أن تسلم لربها، مشفوعاً ذلك بوعدٍ أكيد. بأن الله سوف يكفيه المستهزئين؛ فيجب أن لا يهتم لهم، وأن يتجاهلهم.

وذلك حين نزل قوله تعالى:

﴿فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين. إنا كفييناك المستهزئين﴾^(١).

هذا إذا كان المقصود أنه سوف يكفيه أولئك الذين صدر منهم فعل الإستهزاء. أما إذا كان المراد: مَنْ سوف يصدر منهم هذا الأمر، فإن الآية لا تكون ناظرة إلى ما سبق كما هو ظاهر لا يخفى.

وقد بين الله تعالى له: خطة العمل المستقبلية، فأمره أن يأخذ بالصفح الجميل، وبالإعراض عن المشركين، وأن لا يحزن عليهم، ولا يضيق صدره بما يقولون؛ فإن جزاءهم على الله المطلع على كل صغيرة وكبيرة.

فامتثل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أمر الله، وأظهر دعوته، وطلب من الناس جميعاً: أن يسلموا لربهم.

ويقولون: إنه قام على الحجر، فقال: يا معشر قريش، يا معشر العرب أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وآمركم بخلق الأنداد والأصنام؛ فأجيبوني تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم، وتكونون ملوكاً في الجنة.

فاستهزؤا به، وقالوا: جُنَّ محمد بن عبد الله، ولم يجسروا عليه لموضع أبي طالب^(٢).

(١) الحجر/٩٤-٩٥.

(٢) راجع: تفسير نور الثقلين ج ٣ ص ٣٤ عن تفسير القمي.

٨٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وجاء أيضاً: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قام على الصفا، ونادى قريشاً؛ فاجتمعوا له، فقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم: أن خيلاً في سفح هذا الجبل قد طلعت عليكم، أكنتم مصدقي؟

قالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم، وما جرّبنا عليك كذباً قط.

فقال: إني نذير لكم من عذاب شديد. إلى أن قال: فنهض أبو لهب، وصاح به: تَبّاً لك سائر اليوم، ألهذا جمعت الناس؟ وتفرقوا عنه. فأنزل الله تعالى: تَبَّتْ يدا أبي لهب وتب إلى آخر السورة^(١).

المفاوضات الفاشلة:

قال ابن إسحاق وغيره: فلما بادى رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قومه بالإسلام، وصدع به، كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردّوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا على خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون.

وحذب على رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» عمه أبو طالب، ومنعه، وقام دونه. ومضى رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» على أمر الله مظهراً لا يرده شيء.

فلما رأت قريش: أن رسول الله لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه، من فراقهم، وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه، وقام دونه، فلم يسلمه لهم، حاولوا مفاوضة أبي طالب. وهذه المفاوضات

(١) هذا الحديث يرويه المفسرون والسيوطي في الدر المنثور، وكذلك المؤرخون من غير الشيعة حين الحديث عن إنذار عشيرته الأقربين، ولكن قد بينّا أن المقصود ليس هو مطلق عشيرته في الآية بل عشيرته الأقربون ليس إلا؛ فالرواية تناسب قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر) فقط.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٨٣

- كما يرى ابن إسحاق وغيره - قد مرت بثلاثة مراحل، إنتهت كلها بالفشل الذريع.

الأولى: إنه مشى رجال من إشراف قريش إلى أبي طالب. ذكر المؤرخون أسماءهم، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آبائنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيك، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردّهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

الثانية: إنهم حين رأوا أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قد استمر على ما هو عليه، يظهر دينه، ويدعو إليه، حتى شرى الأمر بينه وبينهم، وحتى تباعد الرجال، وتضاغنوا، وأكثر قريش ذكر رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» بينها، ذهبوا إلى أبي طالب، فتهددوه: إن لم يكف ابن أخيه عن شتم آبائهم، وتسفيه أحلامهم، وشتم آلهتهم، فلسوف ينزلونه وإياه حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا.

فأرسل أبو طالب إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» فأخبره، وطلب إليه أن يبقي على نفسه وعليه، ولا يحمله ما لا يطيق، فظن أنه قد بدا لعمّه فيه بداء، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام دونه، فقال له «صلى الله عليه وآله وسلم»: يا عم، والله، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته. فوعده أبو طالب النصر.

الثالثة: عرضوا على أبي طالب: أن يتخذ عمارة بن الوليد ولداً له، ويسلمهم النبي، الذي فارق دين أبي طالب ودين آبائه، وفرق جماعتهم وسفه أحلامهم ليقتلوه. فإنما هو رجل برجل.

فقال أبو طالب: والله، لبئس ما تسوموني أعطوني إني أكنم أغذوه لكم، وأعطيكُم إني تقتلونهُ، هذا والله ما لا يكون أبداً.

٨٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب، لقد أنصفك، قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه؛ فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت على خذلاني، ومظاهرة القوم علي؛ فاصنع ما بدالك؟ أو كما قال.

فحقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابد القوم، وبادى بعضهم بعضاً^(١).

وربما تكون هذه المراحل متداخلة، أو مترتبة. فإن ما ذكرناه لا يعدو عن أن يكون فهماً منّا للسير الطبيعي للأحداث، - لا أكثر ولا أقل - وقبل المضي في الحديث؛ نسجل النقاط التالية:

الف: قریش لم تصل إلى نتيجة:

لقد رأينا: أن مشركي مكة ما كانوا يرغبون باديء ذي بدء: في توريط أنفسهم في مواجهة أبي طالب والهاشميين؛ فحاولوا: أن يحملوا أبا طالب نفسه على حسم الموقف، والقضاء على ما يعتبرونه مادة متاعبهم، ومصدر مخاوفهم، وحاولوا أن يثيروا هذا الرجل، ويشحنوه نفسياً ضد ابن أخيه، على اعتبار أن ابن أخيه قد جاء بما يضر بمصالح، ويجرح كرامة وعاطفة عمه نفسه، فضلاً عن غيره، ولذا، فإن من الطبيعي أن يبادر أبو طالب نفسه لوضع حد لتصرفات ابن أخيه، ويكفيهم مؤونة ذلك.

ولكنهم حينما وجدوا: أن أبا طالب لم يستجب لأي من أباطيلهم، ولم يحرك ساكناً في سبيل وضع حد لمصدر الخطر عليهم وعلى مصالحهم، لجأوا إلى التهديد والوعيد، ثم إلى أسلوب المكر والخداع كما في قضية عرض عمارة على أبي طالب ليتخذه ولداً، ويسلمهم محمداً

(١) راجع: سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٢-٢٨٦، والبدء والتاريخ ج ٤

ص ١٤٧-١٤٩ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٥-٦٨.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٨٥

ليقتلوه. الأمر الذي كشف عن حقيقة ما يكنونه في صدورهم، وتشتمل عليه نفوسهم واتضح لأبي طالب ولغيره أن هدفهم ليس إلا القضاء على الدين الحق، وإطفاء نور الله، الأمر الذي زاد في تصلب أبي طالب في الدفاع عن الحق والدين، وعن نبي الإسلام الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم».

ب: سر استكبار قريش:

ولعل سر استكبار مشركي مكة، ومحاولاتهم إطفاء نور الله تعالى يرجع إلى:

١ - أنهم كانوا يستغلون أولئك الفقراء، والعيبد، والضعفاء في مكة وغيرها في مصالحهم؛ فجاء الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، وبث في هؤلاء الفقراء روحاً جديدة، وبدأ يؤكد لهم مفهوم كرامة الإنسان، وحرية. ثم هوي ناصرهم، ويعيش قضيتهم وآلامهم، ويفتح أعينهم على واقعهم. وبث فيه تعاليم الإسلام، وفي مقدمتها وجوب تحريرهم من سيطرة وغطرسة أولئك الطغاة المتجبرين.

٢ - لقد أدرك أولئك المتجبرون، مما عرفوه من طبيعة الدعوة وأهدافها: أنهم سوف لن يتمكنوا في ظلها من الإحتفاظ بتلك الإمتيازات الظالمة، التي جعلوها لأنفسهم؛ والتي كان يرفضها النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»، ويؤكد على أن الناس كلهم سواسية أمام عدالة السماء، وفي ميزان الحكم والقضاء.

وسوف لن يتمكنوا أيضاً في ظل هذا الدين الجديد، الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق؛ من الإستمرار في ممارساتهم اللاأخلاقية، واللاإنسانية أيضاً، والتي كانوا يحرصون عليها كل الحرص، أكثر من حرصهم على آلهتهم التي كانوا يدعون أنهم يحافظون عليها، مع أننا رأينا

٨٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

بعض العرب يأكل إلهه الذي صنعه من الحيس حين جاع!!^(١).

٣ - ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾^(٢) أي أنهم اعتذروا عن عدم إيمانهم أنهم: إن آمنوا فإن العرب المشركين سوف لا يرضون بإيمانهم، ورفض أوثانهم، فرد عليهم القرآن، فقال: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيب إليه ثمرات كل شيء، رزقاً من لدنا﴾^(٣)، فلا موجب إذن لخوفهم هذا.

مع أن اختيارهم الشرك خوفاً من ذلك، لا يمنع ذلك؛ فكم أهلك الله من قرية بطرت معيشتها، فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم. بل ربما كان ذلك هو سبب هلاكهم في الدنيا، حيث ينشأ عنه المنازعات والاستكبار، وغير ذلك من انحرافات مدمرة للمجتمعات وللأمم، إن لم يكن ثمة ضوابط وروادع معينة تجعل كل تلك الإمكانيات في مجراها الصحيح، وفي الجهة النافعة للفرد والمجتمع، حاضراً ومستقبلاً.

على أن الأمر لله تعالى فليس لأحد أن يتمرد عليه، ويخرج على أوامره، فإنه يعرض نفسه والحالة هذه إلى الهلاك الدنيوي والأخروي، ثم ضرب لهم مثلاً بقارون، الذي كان لديه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، فلما استكبر وطغى، وتمرد على أوامر الله، خسف الله به وبداره الأرض.

وفي آيات السورة - سورة القصص - دقائق عجيبة ومعانٍ رائعة في هذا المجال، تحتاج إلى دراسة مستقلة ومعقدة، لا مجال لها هنا. ونكتفي هنا بهذه الإشارة الإجمالية إليها. والله هو الموفق والمعين.

(١) الأعلام النفيسة: ص ٢١٧، والحيس هو تمر ينزع نواه ويدق مع أقط ويعجنان بالسمن ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثريد. مجمع البحرين: ج ٤ ص ٦٤.

(٢) القصص/٥٧.

(٣) القصص/٥٧.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٨٧

ماذا بعد فشل المفاوضات؟

وبعد فشل المفاوضات، فقد ظهر لأبي طالب:

أن السيل قد بلغ الزبي، وأنه على وشك الدخول في صراع مكشوف مع المشركين. فلا بد من الحذر والإحتياط للأمر؛ فجمع بني هاشم، وبني المطلب، ودعاهم إلى منع الرسول، والقيام دونه، فأجابوه، وقاموا معه، باستثناء أبي لهب لعنه الله تعالى.

ومنع الله عز وجل رسوله، فلم يكن لهم إلى أن يضروه في شعره وبشره سبيل، غير أنهم يرمونه بالجنون، والسحر، والكهانة، والشعر، والقرآن ينزل عليه «عليه السلام» بتكذيبهم. ورسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قائم بالحق، ما يثنيه ذلك عن الدعاء إلى الله عز وجل سراً وجهاً.

وذلك لأن المشركين بعد أن أدركوا:

أن الاعتداء على شخصه «صلى الله عليه وآله وسلم» سوف يتسبب في صراع مسلح لم يُعدوا له عدته، وليسوا على يقين من أن تكون نتائجه لصالحهم، خصوصاً مع ما كان لبني هاشم من علاقات، ومن أحلاف مع القبائل، كحلف المطيين، وحلف عبد المطلب مع خزاعة التي كانت تقطن خارج مكة. بل قد توجب هذه الحرب - لو نشبت - التمكين لمحمد «صلى الله عليه وآله وسلم» من نشر دعوته^(١). فمن أجل كل ذلك آثر المشركون أن يتعدوا عن الحرب، ويتبعوا أساليب أخرى لتضعيف أمر محمد «صلى الله عليه وآله وسلم»، والوقوف في وجه دعوته؛ فنجدهم:

ألف: ينهاون الناس عن الالتقاء بالنبى «صلى الله عليه وآله وسلم»،

(١) ويرى بعض المحققين: أن من المحتمل: أن أبا طالب كان يستعمل أسلوب اللين تارة والشدّة أخرى؛ بهدف إثارة حرب كهذه، تهدف إلى تمكين النبي من نشر دعوته، كما أشير إليه.

٨٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وعن أن يسمعوها ما جاء به من قرآن، قال تعالى: ﴿وهم ينهون عنه، وينأون عنه﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا: لا تسمعوا لهذا القرآن، والغوا فيه، لعلكم تغلبون﴾^(٢).

ب: يتبعون أسلوب السخرية والاستهزاء، وإلصاق التهم الباطلة، بهدف:

١ - التأثير على شخص النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»
عنه ينهزم نفسياً، وجعله يعيش عقدة الحقارة والضعفة، فلربما يتخلى عن هذا الأمر، ويكذب نفسه.

٢ - الحط من كرامة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وابتذال شخصيته، بهدف تنفير أصحاب النفوس الضعيفة من متابعته، وصرْفهم عن الدخول فيما جاء به. ولهذا نجدهم: يُغرون سفهاءهم بايذائه وتكذيبه، وأحياناً كان يتولّى ذلك منه ساداتهم وكبرائهم. بل لقد رأيناهم يأمرّون غلاماً منهم بأن يلقي عليه سلا جزور وفرثه، وهو قائم يصلي، فيلقيه بين كتفيه، فيغضب أبو طالب، ويأتي فيُمر السلا على سبالهم جميعاً. وقد ألقى الله الرعب في قلوبهم^(٣).

وكانوا أيضاً يلقون عليه التراب^(٤)، ورحم الشاة^(٥)، وغير ذلك.

(١) الأنعام/٢٦.

(٢) فصلت/٢٦.

(٣) الكافي: ج ١ ص ٤٤٩ نشر مكتبة الصدوق، ومنية الراغب: ص ٧٥. وراجع: الغدير: ج ٧ ص ٣٥٩ و ٣٨٨ و ج ٨ ص ٤، وأبو طالب مؤمن قريش: ص ٧٣ عن مصادر كثيرة.

(٤) راجع: السيرة الحلبية: ج ١ ص ٢٩١ و ٢٩٢، والسيرة النبوية لدحلان (بهامش الحلبية): ج ١ ص ٢٠٨ و ٢٠٢ و ٢٣١.

(٥) راجع: البداية والنهاية: ج ٣ ص ١٣٤.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٨٩

وقد أثر ذلك إلى حدّ ما في صرف الناس، وإبعادهم عن الدخول في الإسلام، حتى ليقول عروة بن الزبير وغيره: «... وكرهوا ما قال لهم، وأغروا به من اطاعهم؛ فانصفق عنه عامة الناس»^(١).

المعذبون في مكة:

كما أنهم قد تذاَمروا بينهم على من في القبائل منهم، من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، يعذبونهم بالحبس، والضرب، والجوع، وبرمضاء مكة، وبغير ذلك من الأساليب الوحشية، والإنسانية.

مع المعذبين أيضاً:

وقد عذب المشركون عدداً من المسلمين؛ فعذب عمر بن الخطاب جارية بني مؤمل - حي من بني عدي - وكانت مسلمة؛ فكان يضربها، حتى إذا مل، قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا ملالة^(٢). ولعل بني مؤمل كانوا قد سمحوا لعمر بن الخطاب أن يتولّى تعذيب جارياتهم، وإلا فإن وضعه الاجتماعي لم يكن يسمح له بأمر من هذا القبيل.

وعذب المشركون أيضاً خباب بن الأرت، وأم شريك، ومصعب بن عمير، وغيرهم ممن لا مجال لذكرهم، وبيان ما جرى عليهم.

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٦٨.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٤١، والسيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٠٠، وراجع: السيرة النبوية لابن كثير: ج ١ ص ٤٩٣، والمحبر: ص ١٨٤.

٩٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وقد ضرب هؤلاء لنا المثل الأعلى في الصمود والجهاد من أجل المبدأ والعقيدة، مع معرفتهم بأنهم لا يملكون قوة تستطيع أن ترد عنهم، غير إرادة الله تعالى، وأنهم إنما يتحدثون بإسلامهم العالم كله، الذي كان بكل ما فيه ضدهم. وهنا تكمن عظمتهم، وهذا هو سر امتيازهم على غيرهم.

المعذبون الذين أعتقهم أبو بكر:

وممن عُذب في سبيل الله بلال الحبشي، وعامر بن فهيرة، ويقولون: إن أبا بكر قد اشتراهما وأعتقهما، فكانت نجاتهما من العذاب بسببه.

ولكننا نشك في أن يكون أبو بكر هو الذي اشتراهما، وذلك:

أولاً: لما ذكره الإسكافي، الذي قال: «أما بلال، وعامر بن فهيرة، فإنما أعتقهما رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، روى ذلك الواقدي، وابن إسحاق^(١)».

وعد ابن شهر آشوب بلالاً من موالي النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»^(٢).

وثانياً: إنهم يروون روايات متناقضة في هذا المجال، حتى لا تكاد تلتقي رواية مع أخرى، ويكفي أن نذكر اختلافها في الثمن الذي أعطاه أبو بكر.

فرواية تقول: إنه أعطى ثمنه غلاماً له أجلد منه.

(١) راجع: شرح النهج للمعتزلي: ج ١٣ ص ٢٧٣، وقاموس الرجال: ج ٥ ص ١٩٦ وج ٢ ص ٢٣٨.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب: ج ١ ص ١٧١.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٩١

وأخرى: إنه أعطى غلاماً وزوجته، وابنته، ومائتي دينار.

وثالثة: اشتراه بسبع أواق.

ورابعة: بتسع.

وخامسة: بخمس.

وسادسة: برطل من ذهب.

وسابعة: إنه اشتراه بعبده قسطاس، الذي كان صاحب عشرة آلاف دينار، وجوارٍ، وغلمان، ومواش.

وثامنة: ببردة، وعشر أواق من فضة، إلى غير ذلك من وجوه الاختلاف والتناقض^(١).

وثالثاً: إنهم يقولون: إن قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى﴾^(٢) نزل في أبي بكر بهذه المناسبة^(٣).

ونقول:

١ - لقد رد الإسكافي على ذلك: بأن هناك من يقول: إن هذه الآية نزلت في مصعب بن عمير^(٤).

(١) راجع ما تقدم في: السيرة الحلبية: ج ١ ص ٢٩٨/٢٩٩، وقاموس الرجال: ج ١ ص ٢١٦، وسير أعلام النبلاء: ج ١ ص ٣٥٣، والسيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ٣٤٠، وحلية الأولياء: ج ١ ص ١٤٨، وغير ذلك كثير.

(٢) سورة الليل ٥-٧.

(٣) الدر المنثور ج ٦ ص ٣٥٨-٣٩٠ عن عدد من المصادر والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٩٩، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٧٣ عن الجاحظ والعثمانية ص ٣٥.

(٤) شرح النهج ج ١٣ ص ٢٧٣.

٩٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ويروي الشيعة: أن الآية نزلت في علي «عليه السلام».
ويورد الحلبي عليهم: بأن علياً كان للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عليه نعمة تُجزى، وهي تربيته له، والآية تقول: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ وبمثل ذلك أورد الرازي عليهم أيضاً^(١).

ولكن قد فات الرازي والحلي: أن المقصود هو أن هذا المال الذي ينفقه لا يريد أن يجازي بانفاقه له نعمة من أحد عليه، وإنما ينفقه لوجه الله، ولوجه الله فقط.

لا أنه تعالى يريد وصف الأتقى بأنه ليس لأحد عليه نعمة.

٢ - قد ورد: عن ابن عباس وغيره، وحتى عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه، تفسيرها بمعنى عام لا يختص بأحد فراجع كتب التفسير للاطلاع على ذلك.

٣ - وأخرج ابن أبي حاتم ما ملخصه: أن هذه السورة قد نزلت في رجل (هو سمرة بن جندب) الذي كان له نخلة فرعها في دار رجل، فكان إذا جاء ليأخذ منها الثمر، وصعد عليها ربما تقع ثمرة، فيأخذها صبيان الفقير؛ فينزل من نخلته؛ فيأخذ الثمرة من أيديهم، وإن وجدها في فم أحدهم أدخل إصبعه، حتى يخرج الثمرة من فيه؛ فشكاه الفقير إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، ثم لقي الرسول صاحب النخلة؛ فطلب منه أن يعطيه النخلة وله مثلها في الجنة، فقال: لقد أعطيت، وإن لي لنخلًا كثيرًا؛ وما فيه نخل أعجب إلي ثمرة منها.

فسمع رجل ما دار بين النبي وبينه؛ فجاء إلى الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» فقال: أعطني ما أعطيت الرجل إن أنا أخذتها، قال: نعم، فذهب الرجل، ولقي صاحب النخلة، وفاوضه واشتراها منه بأربعين نخلة. ثم ذهب إلى النبي، فوهبها له، فذهب رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم».

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٩٩.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٩٣

وآله وسلم» إلى صاحب الدار، فقال: النخلة لك ولعيالك، فأنزل الله: والليل إذا يغشى إلى آخر السورة^(١).

ولأجل هذا نجد السيوطي يقول عن: «سورة الليل: الأشهر أنها مكية؛ وقيل: مدنية لما ورد في سبب نزولها من قصة النخلة، كما أخرجناه في اسباب النزول»^(٢).

وهذه القضية هي المناسبة للآيات؛ لأنها تذكر أن بعضهم أعطى واتقى، وبعضهم بخل واستغنى.

إلا أن يكونوا - والعياذ بالله - يقصدون بمن بخل، النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه. مع أن فرض عدم مال له ينافي صدق البخل عليه. ويشير إلى عدم المال عنده قولهم: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» هو الذي قال: لو كان عنده مال لاشتري بلالاً.

أو يقصدون بمن بخل، العباس، الذي تقول الروايات: إنه ذهب فاشتري بلالاً، فأرسله إلى أبي بكر، فأعتقه.

٤ - لسوف يأتي إن شاء الله في حديث الغار، قول عائشة: إنه لم ينزل في آل أبي بكر شيء من القرآن، إلا أن الله أنزل عذرها. يعني الآيات المرتبطة بالإفك، والتي هي في سورة النور. وحتى عذرها هذا؛ فإنه لم ينزل فيها، كما حققناه في كتابنا: حديث الإفك فراجع.

ورابعاً: لم نفهم معنى قوله «صلى الله عليه وآله وسلم» إنه لو كان عنده مال لاشتري بلالاً، وكيف نوفق بين هذا وبين قولهم: إنه «صلى الله

(١) الدر المشورج ٦ ص ٣٥٧ عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وتفسير البرهان ج ٤ ص ٤٧٠ عن علي بن إبراهيم، باختلاف مع ما عن الدر المشور. وستأتي بقية المصادر في حرب أحد في فصل: قبل نشوب الحرب، حين الكلام حول إرجاع الصغار، والريب فيما ينقل عن سمرة.

(٢) الإتيان: ج ١ ص ١٤.

٩٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

عليه وآله وسلم» طلب من أبي بكر الشركة في بلال فأخبره أنه اعتقه^{(١)؟!}.

ثم أولست أموال خديجة تحت تصرفه «صلى الله عليه وآله وسلم»؟! ألم يكن هو الذي ينفق على المسلمين في مكة، كما قالت أسماء بنت عميس لعمر حينما عيّرها بأنها لا هجرة لها، حيث قالت له: إنه ومن معه من المسلمين كانوا مع رسول الله يطعم جائعهم، ويعلم جاهلهم؟!^(٢). وستأتي هذه القضية في موضعها إن شاء الله.

واحتمال أن تكون قصة بلال في أواخر سني ما قبل الهجرة، لا يقبل به المؤرخون؛ فإن النووي يذكر: أنه أسلم أول النبوة، وهو من أول من أظهر إسلامه^(٣).

إلا أن يقال: إن إسلامه، وإن كان متقدماً، لكن شراءه وعتقه يمكن أن يتأخرا لعدة سنوات.

هذا كله عدا عما تذكره بعض الروايات من أن العباس هو الذي ذهب فاشتراه، ثم أرسله إلى أبي بكر فأعتقه^(٤)! وروايات أخرى تقول: بل اشتراه نفس أبي بكر مباشرة، وأعتقه.

وفي بعض الروايات: أنه لما توفي رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قال بلال لأبي بكر: إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن

(١) طبقات ابن سعد: ج ٣ ص ١٦٥.

(٢) تقدمت من المصادر لذلك في الجزء السابق من هذا الكتاب في آخر فصل: بحوث تسبق السيرة.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات: ج ١ ص ١٣٦.

(٤) السيرة النبوية لدحلان: ج ١ ص ١٢٦، والسيرة الحلبية: ج ١ ص ٢٩٩، وراجع: المصنف: ج ١ ص ٢٣٤ وغيره.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٩٥

كنت إنما اشتريتني لله فذبرني^(١).

وهذا يشير إلى أنه لم يكن قد أعتقه حتى وفاته «صلى الله عليه وآله وسلم»!!.

وبالنسبة لشراء العباس له؛ فإن العباس إن كان قد اشتراه لنفسه، فلماذا لم يعتقه هو نفسه؟ وإن كان إنما اشتراه لأبي بكر فلا ندري: متى كان العباس وكيلاً لأبي بكر؟ ومتى كان العباس يهتم بأمور كهذه، وهو الذي لم يسلم إلا عام الفتح، أو في بدر، كما يقولون؟.

وحاول بعضهم أن يدعي: أن العباس فاوض أمية بن خلف، ثم جاء أبو بكر فاشتراه^(٢)! وهذا أعجب!! وما عشت أراك الدهر عجباً!!.

وأيضاً، فإن حالة أبي بكر الإقتصادية لم تكن تسمح له بأن يدفع تلك المئات من الدنانير، فضلاً عن أن يكون أحد مواليه يملك عشرة آلاف دينار، وجوار، ومواش، وغير ذلك، لو فرض أن العرب كانوا يملكون عبيدهم الأموال.

حيث إن أبا بكر لم يكن تاجراً، وإنما كان معلماً، فمن أين تأتية تلك الآلاف أو حتى المئات من الدراهم والدنانير لشراء سبعة أو تسعة وإعتاقهم؟! ولسوف يأتي إن شاء الله البحث عن ثروة أبي بكر حين الكلام حول قضية الغار. بل لقد شك البعض في أن يكون كثير ممن ذكروا في مواليه شخصية حقيقية أو خيالية، ولا سيما مثل «زيرة»، التي قال السهيلي عنها: «ولا تعرف زيرة في النساء^(٣)».

(١) طبقات ابن سعد: ج ٣ ص ١٧٠.

(٢) السيرة النبوية لدحلان: ج ١ ص ١٢٦، والسيرة الحلبية: ج ١ ص ٢٩٩، وراجع المصنف للصنعاني ج ١ ص ٢٣٤، وغيره.

(٣) الروض الانف ج ٢ ص ٧٨.

٩٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ويقول العلامة السيد الحسنى: «إن قريشاً كانت تعذب من آمن؛ من أجل أن لا ينتشر الإسلام، وكانت تودّ أن تبذل لمحمد كل غال ونفيس، ليتراجع عما جاء به، ودعا إليه؛ فكيف تنازل قريش عن ملكيتهم لأبي بكر، وترك تعذيبهم بهذه السهولة^(١)؟!»

إلا أن يقال: إن حبها للمال، ثم اليأس من محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» هو الذي يدفعها إلى ذلك كما يقوله البعض.

هل عذب المشركون أبا بكر؟!!

هذا ويذكرون: أن أبا بكر قد تعرض للعذاب في سبيل الإسلام حيث إن عمر بن عثمان أخذه وقرنه مع طلحة بن عبيد الله التيمي في حبل حين أسلما، وعذبهما نوفل بن خويلد، وفتنهما عن دينهما، فلذلك سمي أبو بكر وطلحة بـ «القرينين».

ويرى البعض أن الذي قرنهما وعذبهما هو نوفل فقط، وليس لعمر بن عثمان ذكر في شيء^(٢).

ونحن نسجل هنا ما يلي:

١ - إنهم يقولون: إن أبا بكر قد منعه الله بقومه^(٣)، وهذا يتناقض

(١) سيرة المصطفى ص ١٤٩.

(٢) راجع في ذلك: العثمانية للجاحظ ص ٢٧/٢٨، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٥٣، وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٠١، ونسب قريش لمصعب الزبيري ص ٢٣٠، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩، والبيهقي، ومستدرک الحاكم ج ٣ ص ٣٦٩ والبدء والتاريخ ج ٥ ص ٨٢.

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٨، ومستدرک الحاكم ج ٣ ص ٢٨٤، وصححه هو والذهبي في تلخيصه بهامشه، وحلية الاولياء ج ١ ص ١٤٩، والاستيعاب ج ١ ص ١٤١ وأحمد، وابن ماجه، والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٢٦، والسيرة =

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ٩٧

تماماً مع قولهم: إنه قد عذب. كما أنه يناقض قوله الآتي لابن الدغنة: إن قومه قد أخرجوه.

٢ - إنه يظهر من مراجعة كتب السيرة: أن كل قبيلة كانت تتولى تعذيب من يدخل في الاسلام منها، ولم يكن منهم من يجزؤ على تعذيب من كان من قبيلة أخرى، كما سنرى.

٣ - لقد قال الأسكافي: «إنا لا نعلم: أن العذاب كان واقعاً إلا بعد أو عسيف. (وهو الأجير)، ولمن لا عشيرة له تمنعه»^(١).

مع أنهم يقولون: إن أبا بكر كان رئيساً متبعاً، وكبيراً مطاعاً^(٢) ينتظره عظماء قريش ولا يقطعون أمراً دونه، حتى يأتيهم لبيتوا في أمر محمد صلى الله عليه وآله، (كما تقدم في حديث إسلام أبي بكر). وعلى حسب تعبيراتهم: كان ذا مكانة عليّة، وصدرًا معظماً، ورئيساً في قريش مكرماً^(٣) فكيف يعذب أبو بكر من قبل جماعة ليسوا من قبيلته؟ وكيف يترك قومه رئيسهم، وصاحب مجدهم الباذخ؟ يتعرض للمهانة من قبل هؤلاء؟.

وعلى حد تعبير ابن هشام وغيره: كان «مألفاً لقومه، محبباً، سهلاً. إلى أن قال: وكان رجال قومه يأتونه، ويألفونه لخير واحد من الأمر»^(٤).

وعلى حد التعبير المزعوم لابن الدغنة: «لا يخرج مثله. أخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف،

= النبوة لابن كثير ج ١ ص ٤٣٦ وعن كنز العمال ج ٧ ص ١٤ عن ابن أبي شيبه، والطبقات الكبرى لابن سعد ط صادر ج ٣ ص ٢٣٣.

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٥٥.

(٢) راجع: شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٥٥، والسيرة النبوية للدحلان ج ١ ص ١٢٣، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٧٣.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٣٣، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٢٦.

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٧ والسيرة النبوية لابن كثير ص ٤٣٧.

٩٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ويعين على نوائب الحق؟^(١)».

ويلاحظ: أن هذه الكلمات هي - تقريباً - نفس الكلمات التي تنسب إلى خديجة في وصف النبي صلى الله عليه وآله حين بعثته، قالها ابن الدغنة حين هجرة أبي بكر إلى الحبشة - وسيأتي عدم صحتها - فاقراً، واسمع، واعجب ما بذلك!!

ملاحظة: هل كان أبو بكر رئيساً؟!

إننا إنما ذكرنا هذا الذي سبق آنفاً، لبيان تناقض كلماتهم، إذ لو صح هذا لم يمكن أن يصح ذلك، وإلا فنحن نشك في أن يكون أبو بكر رئيساً، معظماً، وكبيراً مطاعاً، ويدل على ذلك:

١ - إن أبا بكر حج، ومعه أبو سفيان، فرفع صوته عليه، فقال أبو قحافة: إخفض صوتك يا أبا بكر عن ابن حرب، فقال أبو بكر: يا أبا قحافة، إن الله بنى في الإسلام بيوتاً كانت غير مبنية، وهدم بيوتاً كانت في الجاهلية مبنية، وبيت أبي سفيان مما هدم^(٢).

٢ - وحين بويع أبو بكر نادى أبو سفيان: «غلبكم على هذا الأمر أذل أهل بيت في قریش»،

وفي نص الحاكم: «ما بال هذا الأمر في أقل قریش قلة، وأذلها ذلة، يعني أبا بكر^(٣)».

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٠١. وسيأتي العديد من المصادر لذلك حين الكلام عن هجرة أبي بكر ان شاء الله.

(٢) راجع: النزاع والتخاصم للمقرئ ص ١٩ والغدير ج ٣ ص ٣٥٣ عنه.

(٣) راجع المصنف لعبد الرزاق ج ٥ ص ٤٥١، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٧٨، عن ابن عساکر، وأبي أحمد الدهقان، وراجع الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٢٦، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٩٤٤. والنزاع والتخاصم: ص ١٩، وكنز العمال: ج ٥ =

٩٩ الفصل الأول : حتى الهجرة الى الحبشة

وعلى حد تعبير البلاذري : إن أبا سفيان جاء إلى علي «عليه السلام» فقال : يا علي ، بايعتم رجلاً من أذل قبيلة من قريش؟^(١).

٣ - ويقول عوف بن عطية :

وأما الألمان بنو عدي وتيم حين تزدحم الأمور
فلا تشهد بهم فتیان حرب ولكن أدن من حلب وعير
إذا رهنوا رماحهم بزبد فان رماح تيم لا تضير^(٢).

ملاحظة أخيرة:

وأخيراً ، فإن ما يذكرونه : من أن أبا بكر هو أول من أظهر إسلامه ، فمنعه قومه . أو أنه ضرب حتى كاد يموت^(٣).

يكذبه الكثير مما قدمناه ، ونزيد هنا : أن النبي كان أول من أعلن الدعوة . وليس أبا بكر.

هذا عدا عن أنهم يذكرون تارة : أن ابن مسعود هو أول من أعلن ، وأخرى عمر بن الخطاب ، وهنا يذكرون : أبا بكر.

كما أن الرواية تنص على أن إظهار أبي بكر للإسلام قد كان حينما كان المسلمون ثمانية وثلاثين رجلاً والنبي صلى الله عليه وآله في دار الأرقم.

= ص ٣٨٣ و ٣٨٥ ، عن ابن عساكر وعن أبي أحمد الدهقان في حديثه .

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (قسم حياة النبي «صلى الله عليه وآله» ص ٥٨٨ .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٣٨ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٣٩/٤٤٩ والبداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ ، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٩٤ والغدير ج ٧ ص ٣٢٢ عنه وعن الرياض النضرة ج ١ ص ٤٦ .

١٠٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وقد تقدم: أن أبا بكر لم يكن قد أسلم بعد. لأنه إنما أسلم بعد أكثر من خمسين رجلاً.

إلا أن يكون المقصود هو بلوغ المسلمين الذين أسلموا بعد الهجرة إلى الحبشة ثمانية وثلاثين رجلاً.

لكن ذلك لا يتلاءم مع تصريح الرواية بأن ذلك قد كان يوم إسلام حمزة، حينما كان النبي صلى الله عليه وآله في دار الأرقم.

أول شهيد في الإسلام من آل ياسر:

وعلى كل حال؛ فلقد عذب آل ياسر أشد العذاب، واستشهدت سميّة أم عمار على يد فرعون قريش أبي جهل لعنه الله، فكانت أول شهيدة في الإسلام^(١) ثم استشهد ياسر رحمه الله تعالى.

ولكنهم ذكروا: أن أول قتيل في الإسلام هو الحارث بن أبي هالة، حيث إنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يصدع بما يؤمر، قام صلى الله عليه وآله في المسجد، فقال: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا؛ فوثبت إليه قريش؛ فأتى الصريخ أهله؛ فكان أول من أتاه الحارث هذا؛ فضرب في القوم فصرفهم عنه وعطفوا عليه حتى قتلوه^(٢).

وهذا لا يصح؛ لما تقدم؛ من أن الله قد منع النبي صلى الله عليه وآله من أن ينالوه بسوء في شعره وبشره.

(١) الاستيعاب هامش الإصابة ج ٤ ص ٣٣١ و ٣٣٠ و ٣٣٣، والإصابة ج ٤ ص ٣٣٥ و ٣٣٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٩٥، واسد الغابة ج ٥ ص ٤٨١، وتاريخ يعقوبي ج ٢ ص ٢٨.

(٢) نور القبس ص ٢٧٥ عن الشرقي ابن القطامي، والإصابة ج ١ ص ٢٩٣ عن الكلبي، وابن حزم وعن العسكري واللائل ج ١ ص ٣١١/٣١٢.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ١٠١

وكذلك الحال بالنسبة إلى من أسلم من بني هاشم، حيث لم يعذب جعفر، ولا علي ولا غيرهما، وذلك لمكان أبي طالب رحمه الله، كما قلنا.

وأيضاً فإن كلمة المؤرخين تكاد تكون متفقة على أن أول شهيد في الاسلام كان سمية وزوجها.

أضف إلى ذلك: أن كل ما يقال في كيفية إعلانه بالدعوة يتنافى ويتناقض مع ما ذكره هنا (راجع ما تقدم تحت عنوان: فاصدع بما تؤمن).

والذي يمكن أن نفهمه: هو أنه ربما يكون الهدف من وضع هذه القضية هو أن يثبتوا أن خديجة قد تزوجت قبل النبي صلى الله عليه وآله برجل أو أكثر، وولد لها منهما. وقد تقدم ما يوجب الشك في ذلك، حين الكلام على زواجها بالرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ...

عمار بن ياسر:

وعذب عمار أيضاً عذاباً شديداً من قبل بني مخزوم، حتى أكره على التفؤ به يعجب المشركين، فتركوه؛ فأثنى النبي «صلى الله عليه وآله» باكياً، وقال له: لم أترك يا رسول الله، وقد أكرهوني حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير.

فقال له النبي «صلى الله عليه وآله»: كيف تجد قلبك يا عمار؟

قال: إنه مطمئن بالايمان يا رسول الله

قال: لا عليك، فإن عادوا إليك فعد لما يريدون؛ فقد أنزل الله فيك: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان»^(١).

(١) النحل/ ١٠٦ راجع: حلية الاولياء ج ١ ص ١٤٠ وتفسير الطبري ج ٤ ص ١١٢ وتفسير النيسابوري بهامشه وغير ذلك كثير جداً.

١٠٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

التقية في الكتاب والسنة:

ونقول:

١ - إن ما جرى لعمار ونزول الآية فيه دليل على مشروعية التقية، إذا خاف الإنسان على نفسه وماله.

وقد صرحوا بجواز التقية وإظهار الموالاة حتى للكفار، إذا خيف على النفس التلف، أو تلف بعض الأعضاء، أو خيف من ضرر كبير يلحق الإنسان في نفسه^(١).

بل لقد قال محمد بن عقیل: «التقية مما أجمع المسلمون على جوازها، وإن اختلفت تسميتهم لها، فسامها بعضهم بالكذب لأجل الضرورة أو المصلحة، وقد عمل بها الصالحون، فهي من دين المتقين الأبرار. وعكس القول فيها كذب ظاهر»^(٢).

٢ - ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾^(٣).

٣ - قال تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم. قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض. . . إلى قوله: واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾.

قال البخاري: «فَعذر الله المستضعفين الذين لا يمتنعون من ترك ما أمر الله، والمكره لا يكون إلا مستضعفاً غير ممتنع من فعل ما أمر به»^(٤).

(١) راجع على سبيل المثال: احكام القرآن للجصاص ج ٢ ص ٩.

(٢) تقوية الايمان ص ٣٨.

(٣) آل عمران/ ٢٨.

(٤) صحيح البخاري ط الميمنية ج ٤ ص ١٢٨.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ١٠٣

ملاحظة:

الآية موجودة كما في سورة النساء الآية ٩٧ ولكن الفقرة الأخيرة غير موجودة فيها ولا في الآيات بعدها لكن البخاري قد ذكرها كذلك. فذكرناها حسبما هي فيه رعايةً لأمانة النقل عنه.

٤ - وقال تعالى ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾^(١).

والقول بأن هذه الآية قد نسخت لا مثبت له، بل لقد روي عن الامام الباقر عليه السلام ما يدل على خلاف ذلك، فقد روى الكليني عن عبد الله بن سليمان، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول - وعنده رجل من أهل البصرة، يقال له: عثمان الأعمى، وهو يقول: إن الحسن البصري يزعم: أن الذين يكتمون العلم يؤذي ربح بطونهم أهل النار. فقال ابو جعفر عليه السلام: فهلك إذاً مؤمن من آل فرعون، ما زال العلم مكتوماً منذ بعث الله نوحاً عليه السلام؛ فليذهب الحسن يميناً وشمالاً؛ فوالله ما يوجد العلم إلا هاهنا»^(٢).

فاستدلال الإمام بالآية يدل على أن عدم كونها منسوخة كان متسالمًا عليه لدى العلماء آنئذٍ.

وأما من السنة، فنذكر:

١ - عن أبي ذر، عنه صلى الله عليه وآله: ستكون عليكم أئمة يميّتون الصلاة، فإن أدركتموهم فصلوا الصلاة لوقتها، واجعلوا صلاتكم

(١) غافر/٢٨.

(٢) الكافي (الاصول) ج ٢ ص ٤٠ - ٤١ منشورات المكتبة الاسلامية، و الوسائل

ج ١٨ ص ٨.

١٠٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

معهم نافلة^(١) وثمة حديث آخر بهذا المعنى فليراجع^(٢).

٢ - ما جاء: أن مسيلمة الكذاب أتى برجلين، فقال لأحدهما: تعلم أني رسول الله؟ قال بل محمد رسول الله. فقتله. وقال للآخر ذلك، فقال: أنت ومحمد رسول الله؛ فخلى سبيله. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: أما الأول فمضى على عزمه ويقينه. وأما الآخر، فأخذ برخصة الله فلا تبعة عليه^(٣).

٣ - ما رواه السهمي عنه صلى الله عليه وآله: لا دين لمن لا ثقة له^(٤). وهو تصحيف على الظاهر، والصحيح: «لا تقية» كما يدل عليه ما رواه شيعة أهل البيت عنهم عليهم السلام^(٥).

٤ - قصة عمار بن ياسر المعروفة، وقول النبي صلى الله عليه وآله هذه المناسبة نزل قوله تعالى: «من كفر بالله بعد إيمانه، لا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»^(٦).

٥ - استعمال النبي صلى الله عليه وآله نفسه للتقية، حيث بقي ثلاث أو خمس سنوات يدعو إلى الله سرا، وهذا مجمع عليه، ولا يرتاب فيه أحد، وإن كنا قد ذكرنا: أن الحقيقة ليست هي ذلك.

(١) مسند أحمد ج ٥ ص ١٥٩.

(٢) مسند أحمد ج ٥ ص ١٦٠ و ١٦٨.

(٣) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني: ج ٤ ص ٤٠٨ - ٤٠٩ واحكام القرآن للجصاص ج ٢ ص ١٠ وسعد السعود ١٣٧.

(٤) تاريخ جرجان: ص ٢٠١.

(٥) راجع: الكافي (الأصول): ج ٢ ص ٢١٧ ط الأخندي، ووسائل الشيعة: ج ١١ ص ٤٦٥. وراجع: ميزان الحكمة: ج ١٠ ص ٦٦٦ و ٦٦٧.

(٦) النحل/١٠٦. وراجع: فتح الباري: ج ١٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ١٠٥

٦ - إن الاسلام يخير الكفار في ظروف معينة بين الإسلام والجزية، والسيوف. وواضح: أن ذلك إغراء بالتقية، لأن دخولهم في الإسلام في ظروف كهذه لن يكون إلا لحقن دمائهم، وليس عن قناعة راسخة.

وهذا نظير قبول المنافقين في المجتمع الإسلامي، وتألفهم على الإسلام، على أمل أن يتفاعلوا مع هذا الدين، ويستقر الإيمان في قلوبهم.

٧ - وحين فتح خبير قال حجاج بن علاط للنبي «صلى الله عليه وآله»: ان لي بمكة مالاً وان لي أهلاً واني أريد أن آتيهم فانا في حلّ إن أنا نلت منك وقلت شيئاً؟! فاذن له رسول الله أن يقول ما شاء^(١).

وأما التقية في التاريخ:

فنذكر على سبيل المثال:

١ - إن رجلاً سأل ابن عمر فقال: «أدفع الزكاة إلى الأمراء؟ فقال ابن عمر: ضعها في الفقراء والمساكين. قال: فقال لي الحسن: ألم أقل لك: إن ابن عمر إذا أمن الرجل قال: ضعها في الفقراء والمساكين؟؟^(٢)».

٢ - وقد ادّعوا: أن أنس بن مالك قد روى حديث القنوت قبل الركوع تقية من بعض أمراء عصره^(٣).

٣ - وحين شاور العباس بن الحسن كتابه وخواصه فيمن يولّون الخلافة بعد موت المكتفي، أشار عليه ابن الفرات بأن ينفرد بكل واحد منهم فيعرف رأيه وما عنده «فأما أن يقول كل واحد رأيه بحضرة الباقيين

(١) دراسات في الكافي والصحيح ص ٣٣٨ عن السيرة الحلبية.

(٢) المصنف للصنعاني ج ٤ ص ٤٨.

(٣) راجع: المحلّي ج ٤ ص ١٤١.

١٠٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

فربما كان عنده ما يسلك سبيل التقية في كتمانها وطيه .

قال : صدقت . ثم فعل ما أشار به عليه^(١) .

٤ - تقية النبي «صلى الله عليه وآله» والحمزة في بيعة العقبه .
وستأتي نصوصها في فصل مستقل .

٥ - عن أيوب قال : ما سألت الحسن عن شيء قط ما سألته عنها (أي عن الزكاة) . قال : فيقول لي مرة : أدها إليهم . ويقول لي مرة : لا تؤدها إليهم^(٢) أي للأمرء .

إلا أن يقال : إن هذا التردد من الحسن ، إنما هو لأجل عدم وضوح الحكم الشرعي له ، جوازاً أو منعاً .

٦ - وفي خطبة لمحمد بن الحنفية : «لا تفارق الأمة ، اتق هؤلاء القوم (يعني الامويين) بتقيتهم . ولا تقاتل معهم . قال : قلت : وما تقيتهم؟ قال : تحضرهم وجهك عند دعوتهم ؛ فيدفع الله بذلك عنك ، وعن دمك ودينك وتصيب من مال الله الذي انت أحق به .»^(٣)

٧ - استفتي مالك بالخروج مع محمد بن عبدالله بن الحسن ، وقيل له : في اعناقنا بيعة لأبي جعفر المنصور . فقال : إنما بايعتم مكرهين . وليس على مكره يمين^(٤) .

٨ - ونقل القرطبي ، عن الشافعي ، والكوفيين : القول بالتقية عند الخوف من القتل ، وقال : «أجمع أهل العلم على ذلك»^(٥) .

(١) الوزراء للصابي ص ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٧٠ .

(٤) مقاتل الطالبين ص ٢٨٣ ، والطبري ط أوروبا ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٥) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٨١ .

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ١٠٧

٩ - عن حذيفة قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: احصوا لي كم يلفظ الإسلام. قال: فقلنا: يا رسول الله، أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟ قال: إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا.

قال: فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرّاً^(١).

وحذيفة قد مات بعد البيعة لعلي «عليه السلام» باربعين يوماً، فهذا النص يدل على أن الناس المؤمنين كانوا قبل ذلك يعيشون في ضغط شديد، وأن الذين يسيطرون على الشارع هم الناس الذين كانوا يحقدون على الدين والمتدينين، ويهزؤون ويحاربون كل شيء يمت إلى الدين بصلة.

١٠ - لقد اتقى عامة أهل الحديث، وكبار العلماء واجابوا إلى القول بخلق القرآن، وهم يعتقدون بقدمه، ولم يمتنع منهم الا أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح^(٢).

وحتى أحمد؛ فانه قد تناقّى في ذلك، فكان إذا وصل إلى المخنق قال: ليس أنا بمتكلم. كما أنه حين قال له الوالي: ما تقول في القرآن أجاب: هو كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله لا أزيد عليها^(٣).

بل قال اليعقوبي: إنه لما سئل أحمد عن ذلك قال: «أنا رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا. وبعد المناظرة وضربه عدة سياط، عاد

(١) صحيح مسلم: ج ١ ص ٩١، وصحيح البخاري ط سنة ١٣٠٩ هـ. ق: ج ٢ ص ١١٦ ومسند أحمد ج ٥ ص ٣٨٤.

(٢) تجارب الامم المطبوع مع العيون والحدائق ص ٤٦٥.

(٣) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٢٠١ وراجع: آثار الجاحظ ص ٢٧٤، ومذكرات الرمانى ص ٤٧.

١٠٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

اليه إسحاق بن إبراهيم فناظره، قال له: فيبقى عليك شيء لم تعلمه

قال: بقي علي

قال: فهذا مما لم تعلمه؛ وقد علمك أمير المؤمنين.

قال: فإني أقول بقول أمير المؤمنين.

قال: في خلق القرآن؟ قال: في خلق القرآن. قال: فأشهد عليه، وخلع عليه، وأطلقه الى منزله^(١).

مع أنه هو نفسه يقول: إن من قال: القرآن كلام الله، ووقف؛ فهو من الواقفة الملعونة^(٢).

وقد عمل ابن الزبير بالتقية في مواجهة الخوارج^(٣).

واتقى أيضاً الشعبي ومطرف بن عبدالله من الحجاج.

واتقى عرباض بن سارية ومؤمن الطاق من الخوارج وصعصعة بن صوحان من معاوية^(٤).

وممن استعمل التقية في قضية خلق القرآن إسماعيل بن حماد، وابن المدني، وكان ابن المدني يلزم مجلس القاضي أبي دؤاد المعتزلي، ويقتدي به في الصلاة، ويجانب أحمد بن حنبل وأصحابه^(٥).

١١ - ويقولون: إن إبراهيم عليه السلام عندما سأله ذلك الحاكم

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٢.

(٢) بحوث مع أهل السنة والسلفية ص ١٨٣ و ١٨٤ عن: الرد على الجهمية لابن حنبل في كتاب الدومي ص ٨٢.

(٣) راجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٣٩٣.

(٤) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٥.

(٥) راجع لسان الميزان ج ١ ص ٣٣٩ - ٤٠٠ متناً وهامشاً.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ١٠٩

الجبار عن امرأته قال: «هذه أختي» وذلك في الله^(١) فراجع.

١٢ - وعن عبيد الله بن معاذ العنبري، عن أبيه قال: «كتبت إلى شعبة أسأله عن أبي شيبة، قاضي واسط، فكتب إلي: لا تكتب عنه، ومزق كتابي^(٢)».

١٣ - وقد عمل صعصعة بالتقية في خطبته في قصة خروج المستورد أيام معاوية^(٣).

١٤ - وفي غارة بسر بن أبي أرطاة على المدينة، وشكوى جابر بن عبد الله الأنصاري لأم سلمة زوج النبي: أنه خشي أن يقتل، وهذه بيعة ضلال، قالت: إذن، فبايع؛ فإن التقية حملت أصحاب الكهف على أن كانوا يلبسون الصلب ويحضرون الأعياد مع قومهم^(٤).

١٥ - وقد خطب الإمام الحسين عليه السلام مؤنباً أخاه الحسن السبط عليه السلام حينما توفي، فكان مما تمدّحه به: انه قد أثر الله عند مداحض الباطل، في مكان التقية بحسن الروية^(٥).

١٦ - والإمام الحسين عليه السلام لم يستجب لأهل الكوفة حينما طلبوا منه القيام ضد معاوية بعد سم الإمام الحسن عليه السلام. وله موقف آخر عليه السلام يؤيد فيه موقف أخيه القاضي بعدم الثورة

(١) صحيح البخاري ط الميمنية: ج ٤ ص ١٢٩ ومسنند احمد ج ٢ ص ٤٠٣ وأخرجه ابو داود والترمذي، وقصص الانبياء للنجار: ص ٩٨ - ٩٩ ومسنند أبي يعلى ج ١٠ ص ٤٢٧.

(٢) صحيح مسلم: ج ١ ص ١٨ ومعرفة علوم الحديث ص ١٣٦.

(٣) راجع: بهج الصباغة: ج ٧ ص ١٢١.

(٤) تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ١٩٨.

(٥) راجع: تهذيب تاريخ دمشق: ج ٤ ص ٢٣٠ وعيون الأخبار لابن قتيبة: ج ٢ ص ٣١٤، وحياة الإمام الحسن «عليه السلام» للقرشي: ج ١ ص ٤٣٩.

١١٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

على معاوية ما دام حياً. فراجع (١).

١٧ - قال الحسن (البصري): التقية إلى يوم القيامة (٢).

١٨ - وقال البخاري: «وقال ابن عباس: في من يكرهه اللصوص، فيطلق، ليس بشيء. وبه قال ابن عمر، وابن الزبير، والشعبي، والحسن» (٣).

١٩ - وقال البخاري أيضاً: «يمين الرجل لصاحبه: أنه أخوه، إذا خاف عليه القتل أو نحوه، وكذلك كل مكروه يخاف، فإنه يذب عنه الظالم، ويقا تل دونه ولا يخذله، وإن قاتل دون المظلوم فلا قود عليه ولا قصاص. وإن قيل له: لتشربن الخمر، أو لتأكلن الميتة، أو لتبيعن عبدك، أو تقرب بدين، أو تهب هبة أو تحل عقدة، أو لتقتلن أباك، أو أخاك في الإسلام وسعه ذلك. . إلى أن قال: قال النخعي: إذا كان المستحلف ظالماً فنية الحالف، وإن كان مظلوماً؛ فنية المستحلف» (٤).

ولا بأس بمراجعة الشروح على صحيح البخاري على كتاب الإكراه، ففيها توضيحات ومطالب مفيدة في هذا المجال (٥).

٢٠ - حتى المغيرة بن شعبة فإنه يدعي أنه في عيه علياً يعمل بالتقية فهو يقول لصعصعة: «هذا السلطان قد ظهر، وقد اخذنا باظهار عيه للناس، فنحن ندع كثيراً مما أمرنا به، ونذكر الشيء الذي لا نجد منه بداً

(١) راجع: الأخبار الطوال: ص ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٢.

(٢) صحيح البخاري: ج ٤ ص ١٢٨/ ط الميمنية.

(٣) صحيح البخاري: ج ٤ ص ١٢٨.

(٤) المصدر السابق.

(٥) راجع: عمدة القاري: ج ٢٤ ص ٩٥-١٠٨، وفتح الباري: ج ١٢ ص ٢٧٧-٢٨٩، وإرشاد الساري: ج ١٠ ص ٩٣-١٠٢.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ١١١

ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقية فإن كنت ذاكرًا فضله فاذكره بينك وبين أصحابك وفي منازلكم سرًا... الخ^(١)

٢١ - وفي حرب الجمل حمل محمد بن الحنفية على رجل من أهل البصرة، قال: فلما غشيتة قال: انا على دين ابي طالب فلما عرفت الذي اراد كففت عنه^(٢)

٢٣ - ويقول ابن سلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمره أن يصلي الصلاة لوقتها ثم يصلي مع الامراء الذين يؤخرون الصلاة نافلة^(٣).

٢٤ - وقد صرح الخدري بأنه يعمل بالتقية في ما يرتبط بموقفه من علي عليه السلام ليحقن دمه من بني أمية واستدل بأية ادفع بالتي هي أحسن السيئة^(٤).

وقد ذكر في الصراط المستقيم للبيضاوي ج ٣ ص ٧٢ - ٧٣ موارد عديدة أخرى فراجع.

التقية ضرورة فطرية عقلية دينية اصلاحية:

إن تشريع التقية لهو خير دليل على شمولية الإسلام ومرونته، واتساعه لكل الظروف والأحوال. إذ لو كانت الرسالة جافة وقاسية، ولا تلاحظ الظروف الطارئة، والأحوال العارضة، فلا بد أن تصطدم مع الواقع، وتنهار أمامه، دون أن تتمكن من تجاوزه في حركتها الإصلاحية والتكاملية.

فهو بتشريعه للتقية، إنما يحافظ على الرسالة من خلال حفاظه على

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ١٢.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ٦٧.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق ج ٦ ص ٢٠٥.

(٤) سليم بن قيس ص ٥٣، مؤسسة البعثة - قم - إيران.

١١٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

رائدها، وحافظها، وحاملها في ذلك الظرف العصيب. وخير شاهد على ذلك هو تلك الفترة التي مربها النبي صلى الله عليه وآله والمسلمون في أول البعثة حيث كانوا يتحاشون فيها الصدام مع المشركين.

وإن المحافظة على حامل الرسالة من خلال مرونة الرسالة، تكون ضرورية جداً حينما لا يكون للتضحية به فائدة، ولا عائدة. إن لم يكن في ذلك ضرر على الرسالة نفسها حينما تفقد جندياً أميناً من جنودها، ربما تكون في وقت ما بأمر الحاجة إليه.

فكثيراً ما يكون الحفاظ على الإسلام من خلال الحفاظ على جنوده الأبرار الأوفياء، والذين يكونون دائماً على استعداد للتضحية في سبيله كلما اقتضى الأمر ذلك. فالتقية إنما شرعت للحفاظ على هؤلاء. أما الآخرون، الذين لا يفكرون إلا في أنفسهم، فلا ينفعهم تشريع التقية، ولا عدمه.

ومما يدلنا على أن تشريع التقية إنما هو للحفاظ على الرسالة من خلال الحفاظ على جنودها، وليس ذلك نفاقاً، ولا انهزاماً. لأن هؤلاء المخلصين الذين يراد الحفاظ عليهم هم دائماً على استعداد للبذل والعطاء: أن الإمام الحسين عليه السلام الساكت في زمان معاوية هو نفسه الحسين الثائر على يزيد، تحت شعار:

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذي^(١)
فسكوته هناك كان حفاظاً على الدين والحق؛ تماماً كما كانت ثورته هنا حفاظاً على الحق والدين. وقد تكلمنا على هذه النقطة في حلف الفضول.

ولأجل ذلك نجد: أنه إذا توقف الحفاظ على الحق على الفداء والتضحية؛ فإن الإسلام يأمر به، ولا يتسامح مع من يمتنع عنه.
وأيضاً، فلو كان في الإسلام جفاف وقسوة؛ فربما يبعث ذلك

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ١١٣

الكثيرين على التخلي عنه، أو بالأحرى على عدم الإقدام عليه. وسوف يأتي في إسلام وحشي وغيره: أن البعض كان يسلم؛ لأنه يعرف أن محمداً لا يقتل أصحابه.

فمرونة الإسلام هذه هي التي أعطته قوة الدفع هذه، ومكنته من أن يشق طريقه رغم كل التحديات الكبيرة، والمصاعب الخطيرة، التي واجهته عبر التاريخ.

وواضح: أن مرونة الإسلام هذه لا يجوز أن تفسر على أنها نوع من التساهل في الأحكام؛ ليهون على البعض اعتناق الإسلام، بل هي من قبيل الحفاظ على الإسلام والمسلمين، حيث لا ضرر على المبدأ والرسالة. وحيث يكون في عدم الثقة هدر للطاقات والإمكانات، حيث لا جدوى من هدرها. وليكن ذلك هو الفرق بين الثقة وبين النفاق الذي يحلو للبعض أن ينز به - ظلماً وعدواناً - من يعتقد بمشروعية الثقة.

وقد رأينا: أنه صلى الله عليه وآله، حينما جاءته بعض القبائل وهي قبيلة ثقيف، وطلبوا منه أن يعطيهم فرصة لعبادة أصنامهم، وأن لا يفرض عليهم الصلاة لأنها صعبة عليهم، وأن لا يكسروا صنمهم بيدهم، نرى أنه صلى الله عليه وآله قبل بهذا الأخير، ورفض الأولين^(١).

(١) تاريخ الخميس: ج ٢ ص ١٣٥، والسيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحلبية): ج ٣ ص ١١، والكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٢٨٤، والسيرة النبوية لابن كثير: ج ٤ ص ٥٥، والسيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص ١٨٤ و ١٨٥، والبداية والنهاية: ج ٥ ص ٣٠، والمواهب اللدنية: ج ١ ص ٢٣٦.

وهذا يلاحظ: أن عمر بن الخطاب لم يكن موفقاً حين أصر على الاقتصاص من جبلة بن الأيهم الذي دخل في الإسلام جديداً. وكان ملكاً في قومه، ولم يتعرف بعد بعمق على عظمة وخصائص الإسلام ومميزاته الفريدة، إذ قد كان عليه أن يراعي الموقف، ويحل المشكلة بأسلوب مرن آخر.

١١٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

كما أنهم قد طلبوا منه أن يسمح لهم بالزنا، وشرب الخمر، والربا، وترك الصلاة^(١). نعم فرفض ذلك، ولم يأخذ بنظر الاعتبار أن هذه قبيلة تريد أن تسلم، فيتقوى بها الإسلام، ويضعف بذلك جانب أعدائه ومناوئيه.

وهي في خلال هذه السنة تكون قد تعرفت على الإسلام وتدربت عليه. نعم، لقد رفض السماح لها بعبادة صنمها، الذي عبدته عشرات الأعوام، ولو لمدة سنة واحدة أيضاً. بل هو يرفضه ولو كان لساعة واحدة، لأنه لا يريد أن يستفيد من أية وسيلة من أجل الوصول إلى أهدافه، لأنه يعتبر الوسيلة جزءاً من الهدف، ومنه تستمد قدسيته، كما سبق.

ولكنه في مقابل ذلك: لو أساء إليه أحد الناس مثلاً؛ فإنه على استعداد لأن يعفو عنه، ولكن شرط: أن يعرف المعفو عنه أنه قد أذنب، وأن هذا عفو عنه، أما إذا فهم من ذلك مشروعية الأمر الذي ارتكبه، فإن ذلك العفو يكون مرفوضاً جملة وتفصيلاً.

وخلاصة الأمر^(٢): إنه إذا كان المسلم ضعيفاً، فإنه لا مبرر لأن يدخل في صراع عنيف مع الآخرين، ينتهي بالقضاء عليه، أو عليه وعلى عقيدته؛ لأن المبدأ لا يستفيد من صراع كهذا، بل ربما يلحق به الضرر. وكذا إذا كان الحفاظ على الحق يحتاج إلى غطاء واقٍ من

(١) السير النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحلبية): ج ٣ ص ١١، والمواهب اللدنية: ج ١ ص ٢٣٦، وتاريخ الخميس: ج ٢ ص ١٣٥ و ١٣٦ و ١٣٧. وراجع بالنسبة لترك الصلاة المصادر التالية: الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٢٨٤، وكذا في السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص ١٨٥، والسيرة النبوية لابن كثير: ج ٤ ص ٥٦، والبداية والنهاية: ج ٥ ص ٣٠.

(٢) هذه الخلاصة مقتبسة من كلمات العلامة الجليل السيد محمد حسين فضل الله في: مفاهيم اسلامية عامة الحلقة ٨ ص ١٢٧.

الفصل الأول: حتى الهجرة الى الحبشة ١١٥

الإضطهاد، الذي يحاول القضاء عليه جملة وتفصيلاً، بالأساليب الوحشية التي لا تخضع للفكر، ولا تستجيب لشروط الصراع المبدئي وظروفه. وليكن هذا دليلاً آخر على عظمة الإسلام، وعلى شموليته، وانسجامه مع واقع الحياة، ومع كل ظروفها ومناخاتها.

الفصل الثاني:

هجرة الحبشة

لا بد من حل:

لقد استمرت قریش في تعذيب من يدخل في دين الاسلام ممن لم يكن لهم عشيرة تمنعهم. وكان الإستمرار في هذا الوضع غير ممكن. فقد كان وأصبح لا بد لهؤلاء المعذبين من العثور على موضع أمل لهم، يساعدهم على تحمل المشاق، ومواجهة الصعاب، ويجعلهم أقدر على مقاومة الضغوط التي يتعرضون لها من قبل من رفضوا أن يعترفوا بألوهية وحاكمية فوق ألوهيتهم وحاكميتهم، وآثروا الإستكبار والعناد على الرضوخ والإنقياد.

ومن جهة ثانية: فإن استمرار هذا الوضع الذي يواجهه المسلمون، المليء بالآلام والمشاق، لسوف يقلل من إقبال الناس على الدخول في الإسلام، ما دام أن هذا الدخول لا حصاد له سوى الرعب، والتعذيب والمصائب.

ومن جهة ثالثة: فقد كان لا بد من تسديد ضربة لكبرياء قریش وجبروتها - ولو نفسياً - لتدرك: أن قضية الدين تتجاوز حدود تصوراتها وقدراتها - وأن عليها: أن تفكر بموضوعية وعقلانية أكثر.

فكان أن اختار رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» للمسلمين الهجرة

١٢٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

إلى الحبشة. وكانت هجرتهم إليها في السنة الخامسة من البعثة.

سر إختيار الحبشة:

وأما عن سر اختيار رسول الله صلى الله عليه وآله الحبشة مهاجراً للمسلمين، فقد أشار إليه صلى الله عليه وآله بقوله: «إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق» و«إنه يحسن الجوار».

وقد كان من الواضح أنه:

١ - كان لا بُدَّ لقريش، من أن تبذل محاولاتها لاسترجاع المسلمين، لتبقى هي المهيمنة، وصاحبة الإختيار الأول والأخير في مصير هذا الدين، الذي تراه يتهدد كبرياءها وشركها، وانحرافها.

٢ - لقد كان لقريش نفوذ في بلاد الروم والشام، لما كان لها من علاقات تجارية وإقتصادية معها، فالهجرة إلى هذه البلاد إذن سوف تسهل على قريش استرجاع المهاجرين، أو على الأقل إلحاق الأذى بهم. ولا سيما إذا كان ملوك تلك البلاد لا يلتزمون بأي من الاصول الأخلاقية والإنسانية، ولم يكن لديهم مانع من ممارسة أي نوع من أنواع الظلم والجور، وعلى الأخص بالنسبة لمن ينتسب إلى دعوة يرون أنها تضر بمصالحهم الشخصية، وتهدد كيانهم وجبروتهم.

وأما بلاد اليمن، وبعض المناطق العربية والقبلية الأخرى فقد كانت تحت نفوذ النظام الفارسي، المتجبر والظالم. ويذكر هنا: ان بعض القبائل عندما عرض عليها النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» دعوته وطلب منها حمايتها له، قبلت بذلك، ولكن مادون كسرى^(١)، وأما من كسرى، فلا.

(١) السير الحلبية: ج ٢ ص ٥ و ص ١٦، والسيرة النبوية لابن كثير: ج ٢ ص ١٦٨.

الفصل الثاني : هجرة الحبشة ١٢١

وواضح : أن الإلتجاء إلى كسرى لا يقل خطراً عن الإلتجاء إلى بلاد الروم ، خصوصاً إذا رأى : ان هذا العربي - وهو بطبعه كان يحتقر العرب ، ولا يرى لهم حرمة ، ولا شأنًا يذكر - لسوف يخرج في منطقة قريبة من بلاده ، وقد تسري دعوته إلى بلاده نفسها ، ويؤثر ذلك على الإمتيازات الظالمة التي يجعلها لنفسه ، كما يظهر من دراسة طبيعة دعوة ذلك النبي ، وأهدافها .

٣ - قد كان لقريش نفوذ قوي في مختلف القبائل العربية ، حتى ما كان منها تحت نفوذ الفرس والروم . كما ربما يتضح مما ذكرناه في أوائل هذا الكتاب ، فلا نعيد .

٤ - ما ذكره النبي «صلى الله عليه وآله» من ان بها ملكاً لا يظلم عنده أحد :

فإن كل ذلك :

يجعلنا نضع أيدينا على السر الحقيقي لاختيار بلاد الحبشة ، البعيدة عن النفوذ الفارسي والرومي والقريشي ، والتي لا يمكن لقريش أن تصل إليها على ظهر جواد او راحلة ، وإنما بالسفن عبر البحار . ولم تكن قريش تعرف حرب السفن ، فاختار الرسول «صلى الله عليه وآله» هذه البلاد بالذات لتكون ارضاً لهجرة المسلمين ، الذين لا يزالون ضعافاً أمام قوة قريش وجبروتها .

ثم اننا نستفيد من قوله «صلى الله عليه وآله وسلم» عن ارض الحبشة : إنها ارض صدق : أنه قد كان فيها شعب يعيش على الفطرة ، ويتعامل بالصدق والصفاء ، فيمكن لهؤلاء الثلة من المسلمين المهاجرين ان يعيشوا مع هؤلاء الناس ، وأن يتعاملوا معهم ، لا سيما وأنها بلاد لم يكن فيها من الانحرافات والافكار والشبهات ما كان في بلاد الروم والفرس ، التي كانت قد لوثتها المفاهيم والنظريات اللاإنسانية ، والأديان

١٢٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

المنحرفة الى حد بعيد، ولم تتعرض بلاد الحبشة لمثل ذلك، فلم تنشأ فيها أديان، ولا كان فيها علماء وفلاسفة بالمستوى الذي كان في دولتي الروم والفرس فكانت اقرب الى الفطرة، والحق من غيرها.

ولكن هيمنة الفطرة على بلاد الحبشة ليس معناه خلوتك البلاد عن أي انحراف، فان وجود الانحراف فيها أمر طبيعي، بل ان ذلك على حد قولهم: أهل البلد الفلاني مؤمنون، أو شجعان، أو كرماء، فإن ذلك لا يمنع وجود البخل والكافر أو الفاسق والجبان فيها.

ومن الواضح: ان المسلمين لو هاجروا الى بلاد لا تهيمن عليها الفطرة، وكان لها ملك لا يأبى عن الظلم فلسوف تصعب عليهم الحياة والإستمرار فيها، ولم يكن لهجرتهم من بلادهم كبير فائدة، ولا جليل أثر.

الهجرة الى الحبشة:

وهاجر المسلمون بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحبشة، ذهبوا إليها ارسالاً على حسب رواية أم سلمة،^(١) ويقال: إنه سافر أولاً عشرة رجال وأربع نساء عليهم عثمان بن مظعون^(٢)، ثم خرج آخرون حتى تكاملوا في الحبشة اثنين أو ثلاثاً وثمانين رجلاً، إن قلنا إن عمار بن ياسر كان معهم. وتسعة عشر امرأة عدا الأطفال.

وقد كانت هذه الهجرة في السنة الخامسة من البعثة كما نص عليه عامة المؤرخين.

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٧، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٧٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٩٠ عن الصفوة والمتقى.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٥، والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٥، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٦٧، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٤، قال: وبه جزم ابن المحدث في سيرته، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٨٨.

الفصل الثاني: هجرة الحبشة ١٢٣

ولكن عند الحاكم: أن هجرة الحبشة قد كانت بعد وفاة أبي طالب^(١)، وهو إنما توفي في السنة العاشرة من البعثة.

إلا إذا كان الحاكم يتحدث عن هجرة جديدة قام بها بعض المسلمين في هذا الوقت، لعلها عودة الراجعين الى مكة بعد سماعهم بالهدنة، ففوجئوا بالعكس فعادوا أدراجهم.

ولكننا لا نملك شواهد تؤيد أن ذلك كان في تلك السنة بالذات.

وكيف كان فإننا نقول:

إننا نرجح: أنه لم يكن سوى هجرة واحدة للجميع، عليها جعفر بن أبي طالب «عليه السلام»، الذي لم يكن غيره من بني هاشم فلم يكن ثمة هجرتان، عشرة أولاً، ثم الباقي ثانياً، وإن كان خروجهم إنما كان إرسالاً حفاظاً على عنصر السرية، وذلك بدليل الرسالة التي وجهها الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، والتي جاء فيها:

«قد بعثت إليكم ابن عمي جعفر بن أبي طالب، معه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرهم إلخ...»^(٢). وهذا هو الظاهر من رواية أخرى عن أبي موسى، قال: «أمرنا رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» أن ننطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي إلخ...»^(٣).

وإن كانت هجرة أبي موسى هذه محل شك كما سنرى.

(١) مستدرک الحاكم: ج ٢ ص ٦٢٢.

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٣، والبحار ج ١٨ ص ٤١٨، واعلام الوری ص ٤٦ - ٤٥ عن قصص الانبياء.

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٧٠ عن أبي نعيم في الدلائل، والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١١.

١٢٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

أمير الهجرة جعفر:

ونعتقد: إن هجرة جعفر إلى الحبشة، لم تكن بسبب تعرضه للتعذيب من قبل قريش، فقد كانت قريش تخشى مكانة أبي طالب، وتراعي جانبه، وجانب بني هاشم بصورة عامة. وإنما أرسله النبي صلى الله عليه وآله مع المهاجرين ليكون أميراً عليهم، ومدبراً لأمرهم، ومشرفاً على شؤونهم ومصالحهم، وحافظاً لهم من أن يذوبوا في هذا المجتمع الجديد، كما كان الحال بالنسبة إلى ابن جحش الذي تنصر في الحبشة.

من هو أول مهاجر إلى الحبشة؟

ويقولون: إن عثمان بن عفان كان أول من هاجر إلى الحبشة بأهله، وأن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد قال عنه بهذه المناسبة: إنه أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام^(١). وقيل إنه كان أول خارج أيضاً^(٢). ونحن نشك في ذلك، لأنه إن أريد أنه أول من هاجر بأهله، فإن أبا سلمة - كما يقولون - هو أول من هاجر بأهله^(٣). وإن أريد أنه أول خارج بنفسه، فإننا نجد أنهم يقولون: أن أول خارج كان حاطب بن أبي

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٦٦ عن ابن اسحاق، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٣، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٨٩ و ٢٧٥.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٤ والبدية والنهاية ج ٣ ص ٦٦ عن البيهقي، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٢٣.

(٣) الإصابة ج ٢ ص ٣٣٥، وراجع ج ٤ ص ٤٥٨/٤٥٩ والاستيعاب بهامشها ج ٢ ص ٣٣٨ عن: مصعب الزبيري، وتهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ٣٦٢، وأسد الغابة ج ٣ ص ١٩٦ عن أبي عمر، وابن مندة، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٣، وذخائر العقبى: ص ٢٥٣.

الفصل الثاني: هجرة الحبشة ١٢٥

عمر^(١)، أو سليط بن عمرو^(٢). كما أنهم يقولون: مثل ذلك عن أبي سلمة فراجع، وستأتي الإشارة إلى هذا إن شاء الله تعالى.

هجرة أبي موسى إلى الحبشة لا تصح:

روى الإمام أحمد بسند حسن، وغيره: أن أبا موسى الأشعري كان في جملة من هاجر إلى الحبشة في الهجرة الأولى^(٣).

ولكن الظاهر هو أن هذا وهم أو إدراج عمدي من الراوي، فإن أبا موسى لم يسلم إلا في المدينة في السنة السابعة من الهجرة، وقيل: إنه خرج في جماعة إلى النبي فألقته سفينتهم إلى الحبشة، فجاءوا مع مهاجري الحبشة إلى المدينة، في سنة سبع من الهجرة^(٤).

ويظهر: أن ذلك قد حدث بعد الهجرة إلى المدينة، إذ لم يكونوا ليقدموا على قصده «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى مكة، ولا ليقيموا هذه السنوات الطويلة في الحبشة.

والظاهر أنه التقى بمهاجرة الحبشة في الطريق، فقد قال العسقلاني: «صادفت سفينته سفينة جعفر بن أبي طالب، فقدموا جميعاً»^(٥).

(١) الإصابة ج ١ ص ٣٠١، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٣.

(٢) البيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٣.

(٣) راجع: سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٧، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٦٧ و ٦٩ و ٧٠ عن ابن اسحاق وأحمد وعن أبي نعيم في الدلائل والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٧ و ٩، وفتح الباري، ج ٧ ص ١٤٣ ومجمع الزوائد ج ٦ ص ٢٤ عن الطبراني وحلية الأولياء ج ١ ص ١١٤.

(٤) راجع: السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٤ والبداية والنهاية ج ٣ ص ٧١.

(٥) الإصابة: ج ٢ ص ٣٥٩.

١٢٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

رقة عمر للمهاجرين

ويقولون: إن عمر رأى المهاجرين، وهم يتهيأون للخروج إلى الحبشة، فرق لهم، وأحزنه ذلك^(١).

وذلك لا يصح، لأن خروجهم كان سراً، متسللين، منهم الراكب، ومنهم الماشي، حتى انتهوا إلى البحر فوجدوا سفينة فأقلتهم فخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤا البحر، فلم يجدوا أحداً منهم^(٢).

هذا كله، عدا عن شدة عمر وغلظته، التي تدعى له قبل وبعد الهجرة إلى الحبشة على من أسلم، وتعذبه لمن قدر عليه منهم، فإن ذلك لا يتناسب مع ما يقال عنه هنا.

هجرة أبي بكر لا تصح:

ويقولون: إنه حين اشتد البلاء على بقية من بمكة من المسلمين، وضافت مكة على أبي بكر، وأصابه فيها الأذى، خرج حين حصر المسلمين في الشعب مهاجراً إلى الحبشة، فلما وصل إلى برك الغماد - موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن - لقيه ابن الدغنة، سيد قبيلة «القارة»، وكانوا حلفاء لبني زهرة من قريش، فقال له: أين تريد يا أبا بكر، فقال: أخرجني قومي؛ فأريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: مثلك يا أبا بكر لا يخرج؛ إنك تكسب المعدوم إلى أن قال: فارجع فأنا لك جار

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٧٩ عن ابن اسحاق، ومجمع الزوائد ج ٦ ص ٢٤، ومستدرک الحاكم ج ٤ ص ٥٨ والطبراني، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٣/٣٢٤.

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٤، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٨٨/٢٨٩ عن المنتقى والطبري ج ٢ ص ٦٩ وراجع البدء والتاريخ ج ٤ ص ١٤٩، وأعلام الوري ص ٤٣ واليعقوبي ج ٢ ص ٢٩ وزاد المعاد لابن القيم ج ٢ ص ٤٤.

الفصل الثاني : هجرة الحبشة ١٢٧

فرجع ، ورجع معه ابن الدغنة ، فطاف عشية في أشراف قریش ، وأعلمهم بأنه أجاره ، فأجازوا جواره بشرط : أن يعبد ربه في داره ، ولا يستعلن .

ولكن أبا بكر ابتنى بعد مدة ، مسجداً في بني جمح ، بجوار داره يصلي فيه ، ويقرأ القرآن ، وجعل نساء المشركين ، وأبنائهم يجتمعون لسماع قراءته ، حتى يسقط بعضهم على بعض . وكان له صوت رقيق ، ووجه عتيق أي جميل . فراجع المشركون ابن الدغنة في ذلك ، فأتاه فطالبه ، فرد عليه أبو بكر جواره^(١) .

ونحن نشك في ذلك ، إذ مع غض النظر عن :

١ - أن إخراج قوم أبي بكر له لا يعني أنه قد هاجر مختاراً مع أن ظاهر الكلام هو ذلك .

٢ - ومع غض النظر عن أن هذا الحديث مروي عن عائشة فقط - وهو عجيب !! - فهم يدعون :

أنها كانت حينئذ صغيرة السن جداً لا يمكن أن تعي كل تلك الأمور والخصوصيات ، وإن كنا نعتقد : أن عمرها كان أكثر مما يقولونه بكثير ، كما سنشير إليه .

٣ - أضف الى ذلك : أنها لم توضح لنا عمن روت ذلك .

ودعوى البعض : أن إرسال الصحابي لا يضر ، لأنه يروي عن صحابي مثله ؛ وهم عدول كلهم .

(١) راجع : السيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٢٧/١٢٨ ، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٢ - ١٣ ، وشرح النهج ج ١٣ ص ٢٦٧ ، والمصنف ج ٥ ص ٣٨٥/٣٨٦ والبداية والنهاية ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ ، وفي تاريخ الخميس ج ١ ص ٣١٩/٣٢٠ أن ذلك كان في الثالثة عشرة من البعثة ، وحياة الصحابة ج ١ ص ٢٧٦ و ٢٧٧ عن البخاري ص ٥٥٢ .

١٢٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

لا تصح، فأما بالنسبة لعدالتهم جميعاً، فقد أثبتنا عدم صحة ذلك فراجع مقالنا: الصحابة في الكتاب والسنة، في كتابنا: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام، الجزء الثاني.

وأما دعوى: أن إرسال الصحابي إنما هو عن صحابي مثله، فهي أيضاً غير صحيحة، لجواز أن يكون الصحابي قد روى عن غير صحابي، كما كان أبو هريرة يروي عن كعب الأحبار^(١).

نعم، إننا مع غض النظر عن ذلك كله، نسجل هنا الأمور التالية:
أولاً: إن الرواية تنص على أن ابن الدغنة كان حليفاً لبني زهرة من قريش، فكيف أجار على قريش مع أن الحليف لا يجير؟! كما اعتذر به الأحنس بن شريق، حينما طلب منه النبي أن يجيره ليدخل مكة، حسبما يدعون^(٢).

وثانياً: لماذا بعد أن ردّ جوار ابن الدغنة لم تؤذ قريش ولم تخرجه، وإذا كانت قبيلته قد منعه الآن؛ فلماذا لم تمنعه أولاً. وإذا كانت قد أقنعتهم تقريظات ابن الدغنة لأبي بكر، فلماذا لم تقنعهم أولاً، حتى احتاج أبو بكر إلى جواره؟!.

وثالثاً: لقد رد الاسكافي على الجاحظ المدعي لهذه القضية بقوله:

«كيف كانت بنو جمح تؤذي عثمان بن مظعون وتضربه، وهو عندهم ذوسطوة وقدر، وتترك أبا بكر يبيني مسجداً يفعل فيه ما ذكرتم؟ وأنتم الذين

(١) راجع: شيخ المضيرة للشيخ محمود أبي رية، وأبو هريرة للسيد شرف الدين رحمهما الله تعالى، وراجع ترجمة كعب الأحبار في: سير أعلام النبلاء: ج ٣ ص ٤٩٠ وغيره.

(٢) اعلام الوري ص ٥٥ والبحار ج ١٩ ص ٧ عن القمي، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠، والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٧، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٦٠، والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٤٢، وبهجة المحافل ج ١ ص ١٢٦.

الفصل الثاني: هجرة الحبشة ١٢٩

روى عن ابن مسعود: أنه قال: ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر بن الخطاب. والذي تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر.

وأما ما ذكرتم من رقة صوته، وعتاق وجهه، فكيف يكون ذلك، وقد روى الواقدي، وغيره: أن عائشة رأت رجلاً من العرب، خفيف العارضين، معروق الخدين، غائر العينين أجناً (يعني مائل الظهر)، لا يمسك إزاره، فقالت: ما رأيت أشبه بأبي بكر من هذا. فلا أراها دلت على شيء من الجمال في صفته^(١).

ويدل على صحة ما ذكره الاسكافي حول جمال أبي بكر: أن المقدسي، بعد أن ذكر: أنه لقب بعتيق لحسن وجهه وعتقه، يقول: «كان أبيض البشرة، مشرباً حمرة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الأشاجع، أحنى لا يستمسك إزاره، ويسترخي عن حقويه، وكان الخ...» وكذا قال غيره^(٢).

هذا كله عدا عن قولهم: إنه لقب بـ «عتيق» لأن الرسول قال له: «هذا عتيق من النار» فيومئذ سمي عتيقاً، وكان اسمه قبل ذلك: عبدالله بن عثمان^(٣) وذلك ينافي قولهم: إنه عتيق لجمال وجهه.

ورابعاً: لقد نصت الرواية على أن أبا بكر قد ابتنى مسجداً في بني جمح. ولكننا نجدهم يقولون: إن مسجداً قباء كان أول مسجد بني في الإسلام^(٤). ويقولون أيضاً: إن عماراً كان أول من بنى مسجداً في

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٦٨ عن الاسكافي.

(٢) البدء والتاريخ ج ٥ ص ٧٦/٧٧، وتاريخ الخميس ج ٢ ص ١٩٩، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٦١٥.

(٣) كشف الأستار عن مسند البزار: ج ٣ ص ١٦٣، وجمع الزوائد: ج ٩ ص ٤٠.

(٤) وفاء الوفاء ج ١ ص ٢٥٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٥.

١٣٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الإسلام^(١).

وحاول البعض الإجابة عن هذا بأن المقصود: هو أن مسجد قباء كان أول مسجد بني في المدينة. وأن عماراً كان أول من بنى مسجداً لعموم المسلمين^(٢).

وقد فاته: أن إطلاق قوله: في الإسلام يدفع الأول، وإطلاق كون عمار أول من بنى مسجداً؛ يدفع الثاني، كما أن ثمة تصريحاً بأنه أول من بنى في بيته مسجداً يتعبد فيه^(٣).

وخامساً: نحن بحاجة الى إجابات على الأسئلة التالية: لماذا يترك أبو بكر يني مسجداً في بني جمح؟ وكيف لم يعترض الجمحيون على هذا التحدي؟ ولماذا لم يدرك التيميون صفات أبي بكر النبيلة تلك، ويدعونه يخرج، ثم يدركها ابن الدغنة؟!

ولماذا لم تلاحظ قريش تلك الصفات النبيلة التي أقرت بها، وتركته يخرج؟! بل ولماذا عذبتة أشد العذاب؟! مع علمها بما ذكره ابن الدغنة عنه!!.

فضيلة عثمان بن مظعون تجعل لغيره:

والذي نظنه قوياً هو أنهم ارادوا: أن يجعلوا له فضيلة سبق إليها عثمان بن

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٥، وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٧٩ و ١٧٨ والاعلاق النفيسة ص ١٩٦ وتاريخ ابن كثير ج ٧ ص ٣١١، والغدير ج ٩ ص ٢٠ عنها. والاول للطرطري ص ١٠٩ والروض الأنف ج ٣ ص ٢٤٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٤٣.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٥ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٢٥٠.

(٣) طبقات ابن سعد ط ليدن ج ٣ ص ١٧٨ وذكره في البداية والنهاية ج ٧ ص ٣١١، وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٥ فانه صرح بأن هذا المسجد كان خاصاً بالنبي بنائه.

الفصل الثاني: هجرة الحبشة ١٣١

مظعون؛ فإنه كما يذكره المؤرخون: لما رجع من الحبشة مع من رجع، بعد شهرين من الهجرة، وفوجيء بأن الأمر بين المشركين والنبى صلى الله عليه وآله لا يزال على حاله، دخل مكة بجوار الوليد بن المغيرة.

ولكنه لما رأى ما فيه المسلمون من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان. صعب عليه ذلك، فمشى إلى الوليد فرد عليه جواره؛ فقال: يا بن أخي، لعله أذاك أحد من قومي؟ قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله عز وجل، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال: فانطلق إلى المسجد، فاردد علي جوارى علانية، كما أجرتك علانية.

فانصرف معه، ورد عليه جواره علانية في المسجد^(١).

محاولة قريش اليائسة:

وبعد أن صحا مشركوا مكة من عنف الصدمة. «ورأت قريش استقرارهم في الحبشة وأمنهم»، على حد تعبير البعض^(٢) ائتمرت فيما بينها، وقررت إرسال رجلين من قبلها إلى الحبشة لاسترداد المهاجرين. ووقع اختيارهم على عمرو بن العاص، ويقال: وعلى عمارة بن الوليد أيضاً، فأرسلوهما إلى النجاشي بهدايا له ولبطارقه. (وجرى بين عمارة وعمرو بن العاص في الطريق شيء مثير، يرتبط بالعلاقة بين عمارة وزوجة عمرو فاحتملها له عمرو ليكيده في الوقت المناسب) ..

وآدعيا أمام النجاشي: أنه «قد ضوى إلى بلدك منا غلمان

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٩٢، وقد ذكرت هذه القضية في مختلف المصادر التاريخية فلا حاجة إلى تعدادها.

(٢) سيرة مغلطاي ص ٢٢.

١٣٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

سفهاء، فارقوا دينهم، ولم يدخلوا في دينك. وجاؤا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم، وأعمامهم، وعشائهم لتردهم إليهم الخ».

فرفض تسليمهم إليهم حتى يسألهم عن صحة ما جاء به عمرو وعمارة، فجاء المسلمون؛ فسألهم فقال جعفر: «أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه؛ فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا: أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام الخ.. (١)».

وقرأ عليه جعفر بعض سورة الكهف: فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وكذلك اساقفته؛ ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا، فوالله لا أسلمهم اليكما، ولا يكادون.

ثم غدا عمرو في اليوم التالي؛ ليخبر النجاشي، بأن المسلمين يقولون: إن عيسى بن مريم عبد؛ فأرسل إليهم؛ فسألهم؛ فقال له جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا «صلى الله عليه وآله وسلم»: هو عبدالله

(١) ذكرت الزكاة والصيام في مختلف المصادر؛ فراجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦٠، والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٢١، والكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٨٠ (ولم يذكر الزكاة) واعلام الوري ص ٤٤ ولم يذكر الصيام والبداية والنهاية ج ٣ ص ٧٤ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٩٠، وحلية الأولياء ج ١ ص ١١٤، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٤٠. وستأتي بقية المصادر حين الكلام عن أن تشريع الصلاة والزكاة كان في مكة، وذلك قبيل الكلام عن غزوة بدر ان شاء الله تعالى.

الفصل الثاني: هجرة الحبشة ١٣٣

ورسوله، وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فتناول النجاشي عوداً، وقال: والله، ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود. فتناخرت بطارقه، فقال: وإن نخرتم، إذهبوا فأنتم شيوم: أي آمنون، من سبكم غرم - قالها ثلاثاً - ما أحب أن لي دبراً - أي جبلاً - من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

ثم رد هدايا قريش^(١).

وقد روي عن الإمام الحسين عليه السلام: أن ابن العاص قد ذهب إلى الحبشة مرتين ليؤكد المسلمين، فرد الله تعالى كيده إلى نحره، وباء بغضب من الله تعالى^(٢).

ملاحظة:

قد شكك البعض في صحة هذه الرواية، وذلك لذكر الصيام فيها، وهو انما شرع في المدينة^(٣).

ولكنه كلام باطل؛ فإن الصيام، والزكاة، وغير ذلك، كله قد شرع في مكة، وسوف يأتي إن شاء الله بيان ذلك في هذا الكتاب حين الحديث على ما بعد الهجرة.

ويرى بعض الاعلام: أن منشأ هذه التحقيقات الرشيدة لأحمد أمين، ومن هم على شاكلته، هو التشكيك في موقف يظهر بطولة جعفر، وجراءته وحكمته، وعقله، ودرايته.

(١) راجع المصادر المتقدمة.

(٢) راجع: الإحتجاج: ج ١ ص ٤١١/٤١٢، والسيرة النبوية لابن كثير: ج ٢ ص ٢٧، والبداية والنهاية: ج ٣ ص ٧٦.

(٣) هذا ما ذكره أحمد أمين في كتاب فجر الإسلام ص ٧٦ ولعله اقتبس من السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٣٩.

١٣٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وقد ابتلي جعفر أيضاً بمثل هذا الإجحاف في حقه في مورد آخر، وهو كونه الأمير الأول في غزوة مؤته، فإن لهم اهتماماً خاصاً في إبعاد جعفر عن هذا المقام والتأكيد على ان الأمير الأول هو زيد بن حارثة رحمه الله كل ذلك من أجل اخوته لعلي وقرابته منه. (١)

قريش، وخطتها المستقبلية:

حقاً لقد كانت هجرة المسلمين الى الحبشة ضربة قاسية لقريش، أفقدتها صوابها، وزعزعت وجودها وكيانها؛ فحاولت أن تتدارك الأمر، فلحقت بهم بهدف إرجاعهم، وإبقائهم تحت سلطتها، ولكن بعد فوات الاوان. وكان أن اضطرت قريش للمرة الأولى لمراجعة حساباتها من جديد، بعد أن أدركت: أن زمام المبادرة لم يعد بيدها؛ وذلك لأنها:

١ - أدركت أن الإستمرار في تعذيب المسلمين، الذين اصبحوا متفرقين في مختلف القبائل، لم يعد له كبير جدوى ولا جليل اثر، إن لم يكن سبباً في اثاره حرب داخلية، تكون عواقبها السيئة على سمعتها وكرامتها كبيرة وخطيرة، حينما لا توافق كل قبيلة على التصفية الجسدية للمنتقلين إليها، للمنطق القبلي. الذي ما زالوا يتعاملون على أساسه، حتى في مواقفهم من هذا الدين الجديد، ومناهضتهم لمحمد «صلى الله عليه وآله وسلم»، ودعوته، رغم إجماعهم على العداء له ولها. ويكفي أن نشير هنا إلى أنهم قد قرروا: أن تتولى كل قبيلة تعذيب الذين ينتسبون إليها!!!.

٢ - لقد رأت قريش: أن محمداً صلى الله عليه وآله يريد أن تكون دعوته انسانية عالمية، لا تختص بعرب مكة والحجاز وأدركت أن هجرة

(١) راجع كتابنا: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام، الجزء الأول، بحث: من هو الأمير الاول في غزوة مؤته.

الفصل الثاني : هجرة الحبشة ١٣٥

هؤلاء إلى الحبشة لم تكن متمحضة في الهروب من التعذيب، لأن الكثيرين من أولئك المهاجرين لم يكن ممن يعذب. هذا عدا عن أنهم يمثلون مختلف القبائل المكية أيضاً.

ويمثلون رصيذاً يملكه الإسلام والمسلمون، ويذخرونه للوقت المناسب، وأصبح واضحاً لكل أحد: أن القضاء على مسلمي مكة لا يعني القضاء على الإسلام.

٣ - وترى كذلك: أن معنى هجرة المسلمين هذه، وخروجهم من تحت سلطتها، هو أنها سوف تكون امام مواجهة شاملة، وان مصالحها في معرض التهديد والبنار.

وقد رأت أن أبا ذر باقامته بعسفان على طريق القوافل، وكلما أقبلت غير لقريش احتجزها حتى يقولوا: لا إله الا الله وان محمداً رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم». وظل على ذلك الى ما بعد حرب أحد، قد ضايقها تلك المضايقة الشديدة مع العلم بأن القضاء على حركته ربما يكون أسهل وأيسر، لأنه في منطقها، ويمكن تطويقه، والحد من نشاطه بسرعة؛ لأنه بين أمة كلها تدين لقريش بالولاء، وتقول بمقاتلتها، كما أنهم ينظرون إليه على انه غريب ومعتد.

إذن فإن وجود المسلمين - وهم من قريش في الصميم في منطقة بعيدة عن نفوذ القرشيين وسلطانهم، وفي ملجأ أمين، ومنطلق مطمئن. ليشكل أعظم الاخطار على قريش ومصلحتها، الأمر الذي يحتم عليها التريث والصبر، وإحكام التدبير، لا سيما وأنها لا تجد الى تصفية النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» جسدياً حيلة، ولا الى إسكاته سبيلاً، ما دام في حماية شيخ الابطح، أبي طالب «عليه السلام» والهاشميين، باستثناء أبي لهب لعنه الله

فأرسلت الى النجاشي ممثلين عنها لاسترداد المهاجرين، فرجعا

١٣٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

إليها بالفشل الذريع والخيبة القاتلة، فافقدها ذلك صوابها وأصبحت تتصرف بدون وعي، ولا تدبر، فعدت من جديد على من تبقى من المسلمين بالعذاب والتنكيل. وجعلت تتعرض للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بالسخرية، والاستهزاء، والإتهام بالجنون والسحر، والكهانة، وبأنواع مختلفة من الحرب النفسية والأذى.

الثورة على النجاشي:

وكان وجود المسلمين في الحبشة، قد تسبب للنجاشي ببعض المتاعب؛ حيث اتهمه أهل بلاده بأنه خرج من دينهم فثاروا عليه. ولكنه استطاع أن يخمد الثورة بحسن إدراكه ووعيه، واستمر المسلمون عنده في خير منزل، وخير جار، حتى رجعوا إلى المدينة، بعد هجرة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» إليها كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

فيروي محمد بن إسحاق، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: اجتمعت الحبشة، فقالوا للنجاشي: إنك فارقت ديننا، وخرجوا عليه، فأرسل إلى جعفر وأصحابه، فهدأ لهم سفناً، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم؛ فإن هزمت؛ فاذهبوا حيث تلحقوا بحيث شتم. وإن ظفرت فاثبتوا، ثم خرج إليهم فجادلهم في الأمر، فانصرفوا عنه^(١).

وكان ذلك قبل إيفاد قريش عمروا وعمارة، بدليل قول النجاشي لهما «فوالله» ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، ولا أطاع الناس في، فأطيع الناس فيه، ردوا عليهم هداياهم؛ فلا حاجة لي بها، وأخرجنا من بلادنا، فخرجنا مقبوحين^(٢).

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦٥، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٧٧، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٢.

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٧٥ عن ابن اسحاق، وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦٢.

١٣٧ الفصل الثاني : هجرة الحبشة

وقد كانت هذه الفترة التي اعقبت هجرة المسلمين الى الحبشة قد تميزت بهدوء نسبي ، ولعله استمر إلى عودة عمرو بن العاص من الحبشة إلى مكة بالخبية والخسران .

عودة بعض المهاجرين:

وتسربت انباء الهدنة القصيرة والعفوية غير المعلنة التي حصلت في مكة الى مسامع المسلمين في الحبشة . ورأى المسلمون ما جرى للنجاشي بسببهم ، فارتأى فريق منهم العودة الى مكة ، بعد شهرين ، او ثلاثة أشهر ، وعاد منهم أكثر من ثلاثين رجلاً ، ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة ، وكان ما كان من رده جوراه ، ورضاه بجوار الله تعالى ، حسبما تقدم .

نعم هذا هو السر في رجوع بعض المهاجرين من الحبشة ، وليس ما ذكره اعداء الاسلام من قصة الغرانيق التي لا شك في كذبها كما سنرى .

قصة الغرانيق

وملخص هذه القضية المكذوبة : أنه بعد أن هاجر المسلمون إلى الحبشة بحوالي شهرين ؛ جلس رسول الله « صلى الله عليه وآله وسلم » مع المشركين ، فأنزل الله تعالى عليه سورة النجم ؛ فقرأها ، حتى إذا بلغ قوله تعالى : أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، وسوس اليه الشيطان بكلمتين ، فتكلم بهما ، ظاناً انهما من جملة الوحي وهما : « تلك الغرانيق^(١) العلى ، وان شفاعتهن لترتجى » ، ثم مضى في السورة ، حتى اذا

(١) الغرانيق ، جمع غرنوق بكسر الغين : طيور الماء . شبهت الاصنام بها لارتفاعها في السماء فتكون الاصنام مثلها في رفعة القدر ، والغرنوق أيضاً : الشاب الابيض الناعم .

١٣٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

بلغ السجدة، سجد وسجد معه المسلمون والمشركون. لكن الوليد بن المغيرة لم يتمكن من السجود، لشيخوخته، اولتكبره - على الخلاف - فرفع تراباً الى جبهته فسجد عليه، وقيل: إن الذي فعل ذلك هو سعيد بن العاص، وقيل كلاهما، وقيل: أمية بن خلف، وصحح، وقيل: أبو لهب، وقيل: المطلب.

وأضاف البخاري سجود الانس والجن، الى مجموع المسلمين. والمشركون وطار الخبر في مكة، وفرح المشركون، بل ويقال: انهم حملوا الرسول، وطاروا به في مكة من اسفلها إلى أعلاها.

ولما أمسى جاءه جبرائيل فعرض عليه السورة، وذكر الكلمتين فيها؛ فأنكرهما جبرئيل؛ فقال «صلى الله عليه وآله وسلم»: قلت على الله ما لم يقل؟ فأوحى الله إليه: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك، لتفترى علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلاً، ولولا أن ثبتناك، لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً، إذن لأذقناك ضعف الحياة، وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾^(١).

وقد استدلوا على صحة هذه الرواية بالآية التي يدعون: انها نزلت بهذه المناسبة وهي قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض الخ﴾. وعدد من أسانيد هذه الروايات صحيح عند بعض الفرق^(٢).

(١) الاسراء/٧٣-٧٥.

(٢) راجع: الدر المنثور ج ٤ ص ١٩٤ و ٣٦٦-٣٦٨ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٥-٣٢٦، وتفسير الطبري ج ١٧ ص ١٣١-١٣٤، وفتح الباري ج ٨ ص ٣٣٣.

الفصل الثاني: هجرة الحبشة ١٣٩

ويقولون: إنه لما سمع المسلمون في الحبشة بالسلام والوثام بين النبي وقريش عادت طائفة منهم إلى مكة، فوجدوا الأمر على خلاف ذلك.

ونحن نعتقد جازمين بكذب هذه الروايات، وافتعالها. وشاركنا في هذا الإعتقاد جمع من العلماء، فقد قال محمد بن إسحاق حين ما سئل عنها: «هذا من وضع الزنادقة». وصنف في تنفيذها كتاباً^(١).

وقال القاضي عبد الجبار عن هذا الخبر: «لا أصل له، ومثل ذلك لا يكون إلا من دسائس الملحدة»^(٢).

وقال أبو حيان: إنه نزه كتابه عن ذكر هذه القصة فيه.^(٣)

وأنكرها البيضاوي، طاعناً في أسانيدها، وكذا البيهقي، والنووي والرازي، والنسفي، وابن العربي، والسيد المرتضى، وفي تفسير الخازن: أهل العلم وهنوا هذه القصة^(٤).

وقال عياض: «إن هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به، وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، والمتلقفون من الصحف كل صحيح

وأشار إلى أصلها البخاري أيضاً في غير موضع من صحيحه، كما في البداية والنهاية ج ٣ ص ٩٠، وقد صرح السيوطي في دره المنتور بصحة اسانيد عدد منها، وراجع لباب النقول، وتفسير الطبري، وهي موجودة في مختلف التفاسير، عند تفسير الآيات، ولذا فلا حاجة إلى تعداد مصادرها.

(١) راجع: البحر المحيط لأبي حيان ج ٦ ص ٣٨١.

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢٤٣.

(٣) عن تفسير البحر المحيط ج ٦ ص ٣٨١.

(٤) السيرة الحلبية ج ١ ص ١١، والهدى إلى دين المصطفى ج ١ ص ١٣٠، والرحلة المدرسية ص ٣٨. وفتح الباري ج ٨ ص ٣٣٣، وتفسير الرازي ج ٢٣ ص ٥٠.

١٤٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وسقيم. وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي، حيث قال: لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون، مع ضعف نقلته واضطراب رواياته، وانقطاع أسناده واختلاف كلماته^(١)»

ونحن نؤيد ما قاله:

فأولاً: إن جميع روايات هذه القصة سوى طريق سعيد بن جبير، إما ضعيف، أو منقطع^(٢) وحديث سعيد مرسل، والمرسل عند جمهور المحدثين من قسم الضعيف، لاحتمال أن يكون قدرناه عن غير الثقة^(٣).

وأيضاً فإن الاحتجاج بالمرسل لو سلم؛ فإنما يكون في الفرعيات وما نحن فيه يرتبط بالعقائد، التي تحتاج إلى القطع. هذا والملاحظ لأسانيدنا يراها تنتهي: إما إلى تابعي أو إلى صحابي لم يولد إلا بعد هذه القضية.

بل إن هذه الرواية يجب ردها والقطع بكذبها، ولو كان سندها متصلاً، لأنها مصادمة لحكم العقل كما سنرى وبهذا رد على القسطلاني، والعسقلاني، وآخرين حيث قد حكموا بصحتها، وبأن لها أصلاً لكثرة طرقها^(٤).

وثانياً: تناقض رواياتها، وقد تقدم التناقض فيمن لم يسجد، ونزید هنا: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قرأها وهو يصلي. أو وهو جالس في نادي قومه.

(١) الشفاء ج ٢ ص ١٢٦ ط العثمانية والمواهب اللدنية ج ١ ص ٥٣.

(٢) فتح الباري ج ٨ ص ٣٣٣.

(٣) راجع: مقدمة ابن الصلاح ص ٢٦.

(٤) فتح الباري ج ٨ ص ٣٣٣، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٦ وراجع سيرة مغلطاي

ص ٢٤ المواهب اللدنية ج ١ ص ٥٣.

الفصل الثاني: هجرة الحبشة ١٤١

حدث نفسه بها. . أوجرت على لسانه .

الشیطان أخبرهم: أنه (ص) قالها . أقرأها المشركون .

تنبه «صلى الله عليه وآله وسلم» حين قراءتها .

اولم يتنبه الى المساء .

بل ذكر الكلاعي: أن الأمر لم ينكشف بهذه السرعة، بل فشا الأمر حتى بلغ الحبشة: أن المسلمين قد آمنوا في مكة، فقدم مسلموها، ونزل نسخ ما ألقاه الشيطان، فلما بين الله قضاءه اشتد المشركون على المسلمين^(١). إلى غير ذلك من وجوه الاختلاف .

ويقولون: لا حافظة لكذب .

وثالثاً: إن هذه الرواية ليس فقط تنافي ما هو مقطوع به من عصمته «صلى الله عليه وآله وسلم» عن الخطأ والسهو . وعلى الأخص في أمر التبليغ، وهو ما قام عليه إجماع الأمة، والادلة القطعية . وإنما هي تثبت الإرتداد له «صلى الله عليه وآله وسلم» نعوذ بالله من الغواية، عن طريق الحق والهداية .

ورابعاً: ان هذه الرواية تنافي قوله تعالى: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٢) وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٣) إلا أن يفرض هؤلاء - والعياذ بالله - : أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يكن من عباد الله، ولا من الذين آمنوا، ولا من المتوكلين . وليس هذا القول إلا الكفر بعد الايمان، كما هو ظاهر للعيان .

(١) راجع: الاكتفاء للكلاعي ج ١ ص ٣٥٢/٣٥٣ .

(٢) الاسراء الآية ٦٥ .

(٣) النمل الآية ٩٩ .

١٤٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وخامساً: ينص الكلاعي على ان المشركين والمسلمين قد سجدوا جميعاً لما بلغ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» آخر السورة. وأن المسلمين قد عجبوا لسجود المشركين؛ لأن المسلمين لم يكونوا قد سمعوا الذي ألقى الشيطان على ألسنة المشركين مع انه يصرح قبل ذلك بأسطر: ان الشيطان قد ألقى تلك الكلمات على لسان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه^(١)!!

فيرد سؤال: إنه كيف سمع المشركون ما ألقاه الشيطان على لسانه «صلى الله عليه وآله وسلم»، ولم يسمعه المسلمون، وهم معهم، ولا بد أنهم كانوا أقرب اليه «صلى الله عليه وآله وسلم» منهم؟! .
وسادساً: إن جميع الآيات المذكورة لا يمكن ان تكون ناظرة الى مناسبة هذه الروايات إطلاقاً؛ فأما:

١ - آيات سورة النجم؛ فإنه تعالى قد قال عن أصنام المشركين: مناة، واللات، والعزى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ، مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ. إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾^(٢).

فكيف رضي المشركون بأن يذم آلهتهم بهذا النحو الحاد، ثم فرحوا بقوله المزعوم ذاك وسجدوا معه؟! وكيف لم يدركوا أو كيف فسّروا هذا التناقض الظاهر في كلامه، حتى حملوه - كما زعم - وطاروا به في مكة من أسفلها إلى أعلاها وهم يقولون: نبي بني عبد مناف؟! .

والنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه، لماذا لم يلتفت إلى هذا التناقض الظاهر، وبقي غافلاً عنه الى الليل، حتى جاء جبرئيل فنبهه

(١) المصدر السابق ص ٣٥٢.

(٢) النجم الآية ٢٣.

الفصل الثاني: هجرة الحبشة ١٤٣

اليه؟! فهل كان «صلى الله عليه وآله وسلم» في غيبوبة طيلة تلك الفترة؟! أم أنه كان سقيم الذهن - والعياذ بالله - إلى هذا الحد؟!

ثم، أليست هذه الرواية تناقض تماماً قوله تعالى في سورة النجم نفسها، وبالذات في أول السورة بعد القسم: «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى»؟! فيها هو في نفس السورة ينطق عن الهوى، بل هو يردد ما يلقيه إليه الشيطان. على أنه آيات قرآنية إلهية. مع أن الله تعالى يقول: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين﴾^(١) فيها هو يقول عليه ولا يفعل به شيئاً^(٢).

وإذا كانت هذه الآية قد نزلت بعد سورة النجم، فإن ذلك لا يضر ما دامت الآية تعطي قاعدة كلية، ولا تشير إلى قضية خارجية خاصة.

٢ - وأما آية التمني، فهي في سورة الحج، التي هي مدنية بالاتفاق، ولا سيما وأنه قد ورد فيها الأمر بالأذان في الناس بالحج والأمر بالقتال، والأمر بالجهاد، وذكر فيها الصد عن المسجد الحرام، وكل ذلك إنما كان بعد الهجرة، وبعضه بعدها بعدة سنوات. هذا بالإضافة إلى أن الضحاك، وابن عباس، وقتادة، وابن الزبير وغيرهم، قد ذكروا أنها مدنية.

وإذا كانت مدنية، فهذا يعني: أن هذه الآية قد نزلت بعد قصة الغرانيق بسنوات عديدة، لأن قصة الغرانيق قد حصلت!! في السنة الخامسة من البعثة، فكيف أخر الله تسليته وتهدئة خاطر الرسول هذه السنين الطويلة؟!.

على أن معنى الآية لا ينسجم مع مفاد الرواية، فإن التمني هو

(١) الحاقة الآيات ٤٤ - ٤٦.

(٢) هذا إن لم نقل إن الآية ناظرة إلى صورة تعمد الكذب على الله، لأنه عبر بالتقول، الذي هو تعمد القول.

١٤٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

تشهي حصول أمر محبوب ومرغوب فيه، فالرسول إنما يتشهى ويتمنى ما يتناسب مع وظيفته كرسول، وأعظم أمنية لإنسان كهذا هي ظهور الحق والهدى، وطمس الباطل وكلمة الهوى فيلقي الشيطان بغوايته للناس ما يشوش هذه الأمنية، ويكون فتنة للذين في قلوبهم مرض، كما ألقى فيما بين أمة موسى من الغواية ما ألقى، فينسخ الله بنور الهدى غواية الشيطان، ويظهر الحق للعقول السليمة.

وأما لو أردنا تطبيق الآية على ما يقولون. فإن المراد بالتمني يكون هو القراءة والتلاوة وهو معنى شاذ غريب، يخالف الوضع اللغوي وظاهر اللفظ، ولا نشك في أنه تفسير موضوع ومفتعل ليوافق الرواية المزعومة.

أما الشعر المنقول عن حسان بن ثابت، كشاهد على ذلك^(١) فنعتقد: أنه مصنوع ومنسوب إليه للغرض نفسه، وما أكثر ما نجده من ذلك في كتب التاريخ:

وحتى لو قبلنا أن المراد بالتمني هو التلاوة، فإن من الممكن أن يكون معناه ما قاله المرتضى رحمه الله، وهو:

انه إذا تلا النبي على قومه الآيات حرفوها، وزادوا ونقصوا فيها، كما فعلت اليهود بالكذب على نبيهم فإضافة ذلك إلى الشيطان إنما هو لأنه هو الموسوس لهم بذلك ثم يدحض الله ذلك ويزيله بظهور حجته^(٢).

٣ - وأما بالنسبة لآيات سورة الإسراء التي يقولون: إنها نزلت في هذه المناسبة، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا

(١) ففي تنزيه الانبياء ص ١٠٧: أن حسان بن ثابت قال:

على أن من الممكن أن يكون المقصود بالتمني هنا حب ذلك والشوق إليه.

(٢) تنزيه الانبياء ص ١٠٧ وص ١٠٨.

الفصل الثاني : هجرة الحبشة ١٤٥

إليك لتفتري علينا غيره الخ ﴿ فإنها تناقض وتنافي هذه القضية فكيف تكون قد نزلت من أجلها .

وذلك لأن هذ الآيات تقول : إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يركن إليهم ، بل لم يقرب الى الركون إليهم ، وأن الله قد ثبته ، وأنه لوركن لعوقب ، وقضية الغرائيق تقول : إنه قد زاد على الركون ، فاستجاب ، وافتري ، وأدخل في القرآن ما ليس منه .

ومعنى الآية : أن المشركين قد أصروا على ان يتركهم وشأنهم ، وتفاوضوا معه ، ومع أبي طالب كثيراً ، فلربما يكون النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد فكر في أن يمهلهم قليلاً ، لعلهم يفكرون ويرجعون ؛ فجاءت الآية لتقول له : إن الصلاح في عدم الامهال ، بل في الشدة .

هذا كله . عدا عن أنهم يقولون : إن آيات سورة الاسراء قد نزلت في ثقيف ، حينما اشترطوا لاسلامهم شروطاً تزيد في شرفهم ، وقيل : نزلت في قريش حينما منعه من استلام الحجر ، وقيل : نزلت في يهود المدينة ، عندما طلبوا منه ان يلحق بالشام .^(١) وقد اقتصر القاضي البيضاوي على هذه الوجوه . .

وسادساً : وأخيراً . . كيف سجد المشركون عند نهاية السورة لقوله تعالى : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ مع أنهم يرفضون السجود لله ؟ قال تعالى : ﴿ وإذ قيل لهم : اسجدوا للرحمان قالوا : وما الرحمان ؟ انسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾

ثم كيف . لا يرتد أحد من المسلمين ، او يتزلزل إيمانه حينما يعلم أن رسول الله قد مدح الأصنام ، وجعل لها شفاعاة^(٢) ؟ ! .

(١) راجع : السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٦ ، والدر المنثور ، وتفسير الخازن ، وسائر كتب التفسير .

(٢) راجع هامش : الاكتفاء للكلاعي ج ١ ص ٣٥٣/٣٥٤ .

١٤٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

تساؤلات حائرة:

وأخيراً... فلا نذري كيف يمكن فهم وتعقل ما ذكرته بعض الروايات من أنه إنما حدث «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه بتلك الفقرات؟ فكيف علم قومه بذلك حتى فعلوا ما فعلوا، ثم بلغ الخبر إلى المسلمين في الحبشة، فجاءوا.

وكذا قولهم: إن المشركين قد حملوا رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» وطاروا به في مكة من أسفلها إلى أعلاها، فكيف لم يتساءل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عن سر هذا التبديل العظيم في موقف قومه؟!

وقولهم: إن هذه القضية قد كانت بعد شهرين من الهجرة إلى الحبشة، نقول فيه، إنهم يقولون: إن عودة مهاجري الحبشة قد كانت بعد شهرين أيضاً. فهل وصل اليهم الخبر بالتلكس، أو بالتلفون، وهل جاءوا بالطائرة، أم بالصواريخ؟!

إلا أن يكون المراد أنهم بدأوا بالتوجه نحو مكة بعد شهرين من هجرتهم، وإن كان هذا بعيداً عن ظاهر اللفظ.

وكذا قولهم: إنه لما عرض «صلى الله عليه وآله وسلم» السورة على جبرائيل، وقرأ الفقرتين، أنكرهما جبرائيل فقال «صلى الله عليه وآله وسلم»: قلت على الله ما لم يقل؟ فأنزل الله، وإن كادوا ليفتنوك.

نقول فيه: إن الخطاب في الآية للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: أن الناس كادوا يفتنونه، مع أن الرواية تنص على أن الشيطان هو الذي كاد أن يفتنه.

إلى غير ذلك من موارد الضعف والوهن والتناقض التي يمكن تلّمسها في هذا المجال.

الفصل الثاني: هجرة الحبشة ١٤٧

حقيقة الأمر:

والظاهر هو ان حقيقة ما جرى هو ما قيل من: ان الكفار كانوا يكثرون اللغو واللغو حين قراءته «صلى الله عليه وآله وسلم» حتى لا يسمع أحد ما يقرأ قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، لعلكم تغلبون﴾^(١) فحينما قرأ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» سورة النجم، وانتهى الى هذا المورد، قال المشركون تلك الغرائق العلى الخ^(٢).

نعم، ثم جاء القصاصون والحاقدون، ولعل منهم مسلمة أهل الكتاب، الذين ادخلوا الكثير من اسرائيلياتهم في الاسلام - جاؤا - ونسجوا حولها ما يتلاءم مع مصالحهم وأهدافهم الشريرة، من الطعن بعصمته «صلى الله عليه وآله وسلم»، ثم التشكيك بكل ما في القرآن، بحيث يتهيأ الجو لتطرق احتمالات من هذا النوع في كل سورة وآية، ثم التدليل على مدى جهل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وعدم إدراكه حتى المتناقضات الواضحة.

ثم خضوعه لسلطان الشيطان، وعدم قدرته على تمييز ما هو منه عما هو من غيره .

ولكننا نجدهم يقولون في مقابل ذلك، كما تقدم: ان الشيطان يفر من حس عمر^(٣) أولم يلق الشيطان عمر منذ أسلم إلا خسر لوجهه^(٤)، أو ما

(١) فصلت الآية ٢٦.

(٢) السيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٢٨ وتنزيه الانبياء ص ١٠٧ وليراجع هامش الاكتفاء للكلاعي ج ١ ص ٣٥٤ عن السيوطي، وقد نقل الكلبي في كتاب الاصنام: أن قريشا كانت تقول هذه الكلمات في مدحها لاصنامها حول الكعبة - كما نقل.

(٣) الرياض النضرة ج ٢ ص ٣٠١.

(٤) عمدة القاري ج ١٦ ص ١٩٦ وراجع تاريخ عمر ص ٦٢.

١٤٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

سلك عمر فجاً إلا سلك الشيطان فجاً آخر^(١) ولعلمهم ارادوا: ان يقولوا:
ان للنبي شيطاناً يعتريه كما كان لابي بكر... وقد تقدم الحديث عن كل
ذلك في بحوث سابقة.

ثم جاء المستشرقون الحاقدون، أعداء الاسلام، فحاولوا الاستفادة
من هذه الاباطيل والاساطير للطعن في نبينا الاعظم «صلى الله عليه وآله
وسلم»^(٢).

فأحبط الله سعيهم، ورد كيدهم في نحورهم... فان الحق
كالصبح أبلج، وسيرة نبينا في النبل والصفاء والطهر من كل عيب وشين
كذكاء في كبد السماء تتوهج.

(١) صحيح مسلم ج ٧ ص ١١٥ وفي تاريخ عمر ص ٣٥ ما يقرب من ذلك وكذلك
ص ٦٢ والغدير ج ٨ ص ٩٤ ومسند احمد ج ١ ص ١٧١ و ١٨٢ و ١٨٧ وصحيح
البخاري ج ٢ ص ٤٤ و ١٨٨ وعمدة القاري ج ١٦ ص ١٩٦.

(٢) راجع: تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٤ لبروكلمان وكتاب الاسلام ص ٣٦/٣٥
لألفريد هيوم.

الفصل الثالث:

حتى الشعب

تناقضات في تاريخ اسلام حمزة عليه السلام:

ويقولون: إن إسلام حمزة بن عبد المطلب عليه السلام كان في الثانية من البعثة. ثم يقولون: إنه أسلم بعد دخوله «صلى الله عليه وآله وسلم» دار الأرقم. وهذا متناقض؛ لأنه إنما دخل دار الأرقم في أواخر السنة الثالثة، كما يدعون.

وتناقض آخر: انهم يذكرون انه أسلم قبل عمر بثلاثة ايام، مع أنهم يذكرون ان عمر أسلم في السنة السادسة بعد خروج النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من دار الأرقم.

وهذا متناقض؛ لأنه «صلى الله عليه وآله وسلم» إنما دخلها في أواخر السنة الثالثة من البعثة ولمدة شهر واحد فقط كما يقال. . . وسيأتي أن التحقيق هو: أن إسلام عمر كان بعد إسلام حمزة بسنوات.

اسلام حمزة (رض)

ونلاحظ: أن ابن هشام وغيره يذكرون اسلام حمزة «رحمه الله» بعد الهجرة إلى الحبشة، أي في حوالي السنة السادسة للبعثة، ونحن نرجع ذلك؛ لأنه حين أسلم - كما يقول المقدسي - «عز به النبي «صلى

١٥٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الله عليه وآله وسلم» واهل الإسلام، فشق ذلك على المشركين، فعدلوا عن المنابذة الى المعاتبة، واقبلوا يرغبونه في المال والأنعام، ويعرضون عليه الأزواج^(١)».

وعروضهم هذه إنما كانت بعد الهجرة إلى الحبشة، كما يفهم من سيرة ابن هشام. كما أنه إنما أسلم بعد الإعلان بالدعوة، وبعد مفاوضات قريش مع أبي طالب وعروضها عليه، وبعد أن عدلوا عن ذلك إلى العداوة والأذى.

وعلى كل حال، فقد كان إسلام حمزة تطوراً جديداً لم يكن قد دخل في حسابات قريش، حيث قلب الموازين رأساً على عقب، وفت في عضد قريش، وزاد من مخاوفها، وكبح من جماحها.

فقد مر أبو جهل بالرسول عند الصفا، فأذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه الرسول صلى الله عليه وآله.

وكان حمزة صاحب صيد وقنص، وكان إذا رجع بدأ بالبيت، وطاف به، وسلم على من فيه، ورجع إلى بيته.

وفي هذه المرة كان حمزة راجعاً من صيده، فأخبرته إحدى النساء بما كان من أبي جهل تجاه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فاحتمل حمزة الغضب، ودخل المسجد، فرأى أبا جهل جالساً مع القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس، فضربه بها ضربة شجه بها شجة منكورة. ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فرد علي ذلك إن استطعت وكان ذلك بعد أن تضرع إليه أبو جهل، وأخذ بشوبه،

(١) البدء والتاريخ ج ٤ ص ١٤٨/١٤٩، وهو الظاهر من سيرة ابن هشام، حيث ذكر هذه العروض بعد ذكره لإسلام حمزة «عليه السلام».

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٥٣

فلم يقبل منه .

فقام رجال من بني مخزوم، لينصروا أبا جهل، فقالوا لحمزة: ما نراك إلا قد صبأت؟ فقال حمزة: وما يمنعني؟ وقد استبان لي منه أنه رسول الله، والذي يقول حق؟! فوالله لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين.

فقال أبو جهل: دعوا أبا عماره، فإني والله لقد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.

يقول المقدسي: «فلما أسلم حمزة عُزِّبَه الدين والنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»^(١)، وسرَّ رسول الله بإسلامه كثيراً.

وعلمت قريش: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قد عز وامتنع، فكفوا عما كانوا ينالونه منه. وقال حمزة للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: فأظهر يا بن أخي دينك، فوالله ما أحب أن لي ما أظلمته السماء، وأني على دين الأول^(٢).

وكان حمزة أعزفتي في قريش، وأشدَّهم شكيمه^(٣).

إسلام حمزة كان عن وعي لا حمية:

والظاهر، بل الصريح من كلام حمزة رحمه الله، ولا سيما قوله الأخير: «وما يمنعني، وقد استبان لي منه: أنه رسول الله، والذي يقول حق» أنه لم يكن في إسلامه منطلقاً من عاطفته التي أثرت وحسب، وإنما

(١) البدء والتاريخ ج ٥ ص ٩٨.

(٢) راجع: تاريخ الامم والملوك ج ٢ ص ٧٢-٧٣ والسيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٣١٢.

(٣) راجع: تاريخ الامم والملوك ج ٢ ص ٧٢.

١٥٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

سبقت ذلك قناعة كاملة، كَوْنُها مما شاهده عن قرب من مواقف وسلوك، وسمعه من أقوال النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد يستفاد من قوله: أتشتبه وأنا على دينه أن إسلامه كان متقدماً على ذلك الوقت، ولكنه كان يتكتم به مراعاة للظروف، وحفاظاً على الإسلام والمسلمين، الذين كانوا أضعف من أن يتمكنوا من مواجهة قريش وجبروتها. ولربما كان بعضهم بحاجة إلى المزيد من التربية النفسية الخاصة، ليتمكن من مواجهة تلك الظروف القاسية مع المشركين.

سرّ جبن أبي جهل في مواجهة حمزة:

ولا بُدَّ من التذكير هنا: بأن أبا جهل، عظيم المشركين وجبارهم مع أنه كان بين أهله وعشيرته، ومع أن عشيرته قد أعلنت عن استعدادها لنصرته، فإنه كان أجبن وأذل من أن يقف في وجه أسد الله وأسد رسوله، وما ذلك إلا لأنه كان من جهة: يعلم فتوة حمزة وعزته، وشدة شكيمة وبطولته، ورأى مدى تصميمه وإصراره، وعرف مقدار استعداده للتضحية والفداء في سبيل دينه، وعقيدته.

ومن الجهة الأخرى: فإن أبا جهل إنما كان يحارب النبي صلى الله عليه وآله ويناقضه، حباً بالحياة، ومن أجل الدنيا، فهو إذن لا يريد الموت إطلاقاً، بل هو يهرب منه، ويعده خسارة له، ما بعدها خسارة. أما حمزة رحمه الله، فكان يعتبر الموت في سبيل هذا الدين نصراً وفوزاً، تماماً بالمقدار الذي يعتبره أبو جهل، ومن هم على شاكلته خسراً وضياًعاً فلماذا إذن يخشى الموت ويخافه؟، بل لماذا لا يكون الموت عنده أحلى من العسل، وألذ من الشهد؟.

ومن جهة ثالثة: فإن أبا جهل لم يكن على استعداد لأن يحارب بني هاشم في تلك الفترة، التي كان له فيهم أنصار كثيرون، لأن حربه لهم لسوف تؤدي إلى أن يخسر هؤلاء الذين يلتقي معهم فكرياً وعقدياً، لأنهم

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٥٥

بحكم المنطق القبلي الذي يهيمن على مواقفهم وتصرفاتهم لن يتركوا ابن أخيه، حتى ولو كان على غير دينهم، (وقد وعدوا أبا طالب باستثناء أبي لهب أن يمنعوا محمداً ممن يريد به سوءاً كما تقدم). بل إن تحرك أبي جهل في ظروف كهذه لربما يؤدي إلى ترسيخ أمر محمد، وإلى دخول الكثيرين من بني هاشم في دينه، حمية وانتصاراً. وهذا ما لا يريده أبو جهل، ولا يرغب فيه.

إذن، فقد كانت جميع الظروف تدفعه إلى الاستسلام للذل والهوان في مقابل أسد الله وأسد رسوله.

والخلاصة: أن حب أبي جهل للحياة، وجبنه، ثم ما كان يراه من الصلاح في عدم التصعيد في مناهضة محمد وبني هاشم. قد جعله في موقف الذليل المهان.

وجعل الله كلمة الباطل هي السفلى، وكلمة الحق هي العليا.

ملاحظة هامة:

والملاحظ هنا: أنه بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب تتراجع قريش، وتلّين من موقفها، وتدخل في مفاوضات معه «صلى الله عليه وآله وسلم»، وتعطيه بعض ما يُريد، لأنها رأت أن المسلمين يزيد عددهم ويكثر، فكلّمه عتبة، فأبى «صلى الله عليه وآله وسلم» كل عروضهم^(١).

عبس وتولى:

ويذكر المؤرخون بعد قضية الغرانيق، القضية التي نزلت لأجلها سورة عبس وتولى، المكية، والتي نزلت بعد سورة النجم. وملخص هذه

(١) راجع: كنز العمال: ج ١٤ ص ٤٨ عن البيهقي في الدلائل، وابن عساکر.

١٥٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

القضية :

أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يتكلم مع بعض زعماء قريش، ذوي الجاه والمال، فجاءه عبد الله بن أم مكتوم - وكان أعمى - فجعل يستقرئ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» آية من القرآن، قال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله. فاعرض عنه رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» وعبس في وجهه، وتولى، وكره كلامه، وأقبل على أولئك الذين كان «صلى الله عليه وآله وسلم» قد طمع في إسلامهم، فأنزل الله تعالى :

﴿عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى. فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهي﴾^(١).

وفي رواية: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كره مجيء، ابن أم مكتوم وقال في نفسه: يقول هذا القرشي: إنما اتباعه العميان والسفلة، والعبيد، فعبس «صلى الله عليه وآله وسلم» إلخ. (وكأن ذلك الزعيم لم يكن يعلم بذلك!! وكأن قريشاً لم تكن قد صرحت بذلك وأعلنته!!).

وعن الحكم: ما رأي رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» بعد هذه الآية متصدياً لغني، ولا معرضاً عن فقير.

وعن ابن زيد: لو أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» كتم شيئاً من الوحي، كتم هذا عن نفسه^(٢).

(١) سورة عبس/١ - ١٠.

(٢) راجع في هذه الروايات: مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٣٧ والميزان عن المجمع وتفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٧٠ عن الترمذي، وأبي يعلى، وحياة الصحابة ج ٢ ص ٥٢٠ عنه، وتفسير الطبري ج ٣٠ ص ٣٤/٣٣، والدر المنثور ج ٦ ص ٣١٥/٣١٤. وأي تفسير قرآن آخر لغير الشيعة؛ فانك تجد فيه الروايات المختلفة التي تصب في هذا الاتجاه، فراجع الأخير على سبيل المثال.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٥٧

فابن زيد يؤكد بكلامه هذا على مدى قبح هذا الأمر، وعلى مدى صراحة الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، حتى إنه لم يكتف هذا الأمر، رغم شدة قبحه وشناعته!

لقد أجمع المفسرون، وأهل الحديث، باستثناء شيعة أهل البيت عليهم السلام - على أصل القضية المشار إليها.

ونحن نرى: أنها قضية مفتعلة، لا يمكن أن تصح. وذلك.

أولاً: لضعف أسانيدھا، لأنها تنتهي: إما إلى عائشة، وأنس، وابن عباس، من الصحابة، وهؤلاء لم يدرك أحد منهم هذه القضية أصلاً، لأنه إما كان حينها طفلاً، أو لم يكن ولد^(١).

أوالى أبي مالك^(٢)، والحكم، وابن زيد، والضحاك، ومجاهد، وقتادة، وهؤلاء جميعاً من التابعين فالرواية مقطوعة، لا تقوم بها حجة.

وثانياً: تناقض نصوصها^(٣) حتى ما ورد منها عن راو واحد، فعن عائشة. في رواية: إنه كان عنده رجل من عظماء المشركين، وفي أخرى عنها: عتبة وشيبة، وفي ثالثة عنها: في مجلس فيه ناس من وجوه قريش، منهم أبو جهل، وعتبة بن ربيعة.

وفي رواية عن ابن عباس: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يناجي عتبة، وعمه العباس، وأبا جهل. وفي التفسير المنسوب إلى ابن عباس: إنهم العباس، وأمّية بن خلف، وصفوان بن أمّية.

وعن قتادة: أمّية بن خلف. وفي أخرى عنه: أبي بن خلف.

(١) راجع: الهدى إلى دين المصطفى ج ١ ص ١٥٨.

(٢) الظاهر أن المراد به أبا مالك الاشجعي، المشهور بالرواية، وتفسير القرآن، وهو تابعي.

(٣) راجع: الهدى إلى دين المصطفى ج ١ ص ١٥٨/١٥٩.

١٥٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وعن مجاهد: صنديد من صناديد قريش، وفي أخرى عنه: عتبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف.

هذا، عدا عن تناقض الروايات مع بعضها البعض في ذلك، وفي نقل ما جرى، وفي نص كلام الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، ونص كلام ابن أم مكتوم. ونحن نكتفي بهذا القدر، ومن أراد المزيد فعليه بالمراجعة والمقارنة.

وثالثاً: إن ظاهر الآيات المدعى نزولها في هذه المناسبة هو أنه كان من عادة هذا الشخص وطبعه، وسجيته، وخلقه: أن يتصدى للغني، ويهتم به ولو كان كافراً ويتلهى عن الفقير ولا يبالي به أن يتزكى، ولو كان مسلماً. وكلنا يعلم: أن هذا لم يكن من صفات وسجايا نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ولا من طبعه، وخلقه.

كما أن العبوس في وجه الفقير، والإعراض عنه، لم يكن من صفاته «صلى الله عليه وآله وسلم» حتى مع أعدائه، فكيف بالمؤمنين من أصحابه وأودّائه^(١). وهو الذي وصفه الله تعالى بأنه ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾^(٢).

بل لقد كان من عاداته صلى الله عليه وآله وسلم مجالسة الفقراء، والاهتمام بهم، حتى ساء ذلك أهل الشرف والجاه، وشق عليهم. وطالبه الملائكة من قريش بأن يبعد هؤلاء عنه ليتبعوه، وأشار عليه عمر بطردهم، فنزل قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾^(٣).

(١) راجع: الهدى إلى دين المصطفى ج ١ ص ١٥٨، والميزان ج ٢٠ ص ٢٠٣، وتنزيه الانبياء ص ١١٩ ومجمع البيان ج ١ ص ٤٣٧.

(٢) سورة التوبة الآية/١٢٨.

(٣) راجع: الدر المنثور ج ٣ ص ١٢/١٣.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٥٩

ويظهر: أن الآية قد نزلت قبل الهجرة إلى الحبشة لوجود ابن مسعود في الرواية. أو حين بلوغهم أمر الهدنة، ورجوعهم إلى مكة.

ولكن يبقى إشكال أن ذكر عمر في هذا المقام في غير محله، لأنه لم يكن قد أسلم حينئذٍ لأنه إنما أسلم قبل الهجرة إلى المدينة بيسير، كما سنرى.

كما أن الله تعالى قد وصف نبيه في سورة القلم التي نزلت قبل سورة عبس وتولّى بأنه على خلق عظيم، فإذا كان كذلك، فكيف يصدر عنه هذا الأمر المنافي للأخلاق، والموجب للعتاب واللوم منه تعالى لنبيه «صلى الله عليه وآله وسلم»، فهل كان الله - والعياذ بالله - جاهلاً بحقيقة أخلاق نبيه؟ أم أنه يعلم بذلك، لكنه قال هذا لحكمة ولمصلحة اقتضت ذلك؟ نعوذ بالله من الغواية، عن طريق الحق والهداية.

ورابعاً: إن الله تعالى يقول في الآيات: ﴿وما عليك ألا يذكركي﴾، وهذا لا يناسب أن يخاطب به النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، لأنه مبعوث لدعوة الناس وتزكيتهم. وكيف لا يكون ذلك عليه، مع أنه هو مهمته الأولى والأخيرة، ولا شيء غيره. ألم يقل الله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسلاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؟﴾^(١) فكيف يغريه بترك الحرص على تزكية قومه^(٢).

خامساً: لقد نزلت آية الانذار: ﴿وأندر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾^(٣) قبل سورة عبس بستتين فهل نسي «صلى الله عليه وآله وسلم»: أنه مأمور بخفض الجناح لمن

(١) سورة البقرة الآية/ ١٢٩.

(٢) تنزيه الانبياء ص ١١٩.

(٣) الشعراء/ ٢١٤ - ٢١٥.

١٦٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

اتبعه؟ وإذا كان نسي، فما الذي يؤمننا من أن لا يكون قد نسي غير ذلك أيضاً؟، وإذا لم يكن قد نسي، فلماذا يتعمد أن يعصي هذا الأمر الصريح؟!^(١).

سادساً: إنه ليس في الآية ما يدل على أنها خطاب للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، بل الله سبحانه يخبر عن رجل ما أنه: ﴿عبس وتولى* أن جاءه الأعمى﴾ ثم التفت الله تعالى بالخطاب الى ذلك العابس نفسه، وخطابه بقوله: ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ الخ..

سابعاً: لقد ذكر العلامة الطباطبائي: أن الملاك في التفضيل وعدمه ليس هو الغنى والفقر، وإنما هو الأعمال الصالحة، والسجيا الحسنة، والفضائل الرفيعة. وهذا حكم عقلي وجاء به الدين الحنيف، فكيف جازله «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يخالف ذلك، ويميز الكافر لما له من وجاهة على المؤمن؟^(٢).

والقول: بأنه إنما فعل ذلك لأنه يرجو إسلامه، وعلى أمل أن يتقوى به الدين، وهذا أمر حسن، لأنه في طريق الدين، وفي سبيله.

لا يصح، لأنه يخالف صريح الآيات التي تنص على أن الذم له كان لأجل أنه يتصدى لذاك الغني لغناه، ويتلهى عن الفقير لفقره.

ولو صح هذا، فقد كان اللازم أن يفيض القرآن في مدحه واطرائه على غيرته لدينه، وتحمسه لرسالته؛ فلماذا هذا الذم والتقريع إذن.

ونشير أخيراً: إلى أن البعض قد ذكر: أنه يمكن القول بأن الآية خطاب كلي مفادها: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كان إذا رأى

(١) الميزان ج ٢٠ ص ٣٠٣.

(٢) راجع: الميزان ج ٢٠ ص ٣٠٤.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٦١

فقيراً تأذى وأعرض عنه .

والجواب : .

أولاً: إن هذا يخالف القصة التي ذكروها من كونها قضية في واقعة واحدة لم تتكرر .

وثانياً: إذا كان المقصود هو الإعراض عن مطلق الفقير؛ فلماذا جاء التنصيص على الأعمى؟!

وثالثاً: هل صحيح أنه قد كان من عادة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ذلك؟! .

المذنب رجل آخر:

فيتضح مما تقدم: أن المقصود بالآيات شخص آخر غير النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ويؤيد ذلك:

ما روي عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»، أنه قال: كان رسول الله إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال: مرحباً، مرحباً، والله لا يعاتبني الله فيك أبداً. وكان يصنع به من اللطف، حتى يكف عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مما كان يفعل به^(١).

فهذه الرواية تشير إلى أن الله تعالى لم يعاتب نبيه في شأن ابن أم مكتوم، بل فيها تعريض بذلك الرجل الذي ارتكب في حق ابن أم مكتوم تلك المخالفة، إن لم نقل: إنه يستفاد من الرواية نفى قاطع حتى لإمكان صدور مثل ذلك عنه «صلى الله عليه وآله وسلم»، بحيث يستحق العتاب والتوبيخ؛ إذ لا معنى لهذا النفي لو كان الله تعالى قد عاتبه فعلاً.

(١) تفسير البرهان ج ٤ ص ٤٢٨، وتفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٠٩، ومجمع البيان ج ١٠ ص ٤٣٧.

١٦٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

هذا ولكن الأيدي غير الآمنة قد حرفت هذه الكلمة؛ فادعت أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي. فلتراجع كتب التفسير، كالدر المنثور وغيره. والصحيح هو ما تقدم.

سؤال وجوابه:

ولعلك تقول: إنه إذا كان المقصود بالآيات شخصاً آخر؛ فما معنى قوله تعالى: «فأنت له تصدى» وقوله: «فأنت عنه تلهي» فان ظاهره: أن هذا التصدي والتلهي من قبل من يهيمه هذا الدين؛ فيتصدى لهذا، ويتلهي عن ذلك.

فالجواب: انه ليس في الآيات ما يدل على أن التصدي كان لأجل الدعوة إلى الله أو غيرها. فلعل التصدي كان لأهداف أخرى دينوية، ككسب الصداقة، أو الجاه، أو نحو ذلك. وقوله تعالى: «لعله يزكى» ليس فيه أنه يزكى على يد المخاطب، بل هو أعم من ذلك، فيشمل التزكي على يد غيره ممن هم في المجلس، كالنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أو غيره.

ثم لنفرض: أنه كان التصدي لأجل الدعوة، فإن ذلك ليس محصوراً به «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ فهم يقولون: إن غيره كان يتصدى لذلك أيضاً، وأسلم البعض على يديه، لو صح ذلك!

الرواية الصحيحة:

وبعد ما تقدم، فإن الظاهر هو أن الرواية الصحيحة، هي ما جاء عن الإمام الصادق «عليه السلام»: أنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٦٣

النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ فجاءه ابن أم مكتوم . فلما جاءه تقذر منه ، وعبس في وجهه، وجمع نفسه، وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك عنه، وانكره عليه^(١).

ويلاحظ: أن الخطاب في الآيات لم يوجه أولاً الى ذلك الرجل؛ بل تكلم الله سبحانه عنه بصورة الحكاية عن الغائب: إنه عبس، وتولى، أن جاءه الأعمى . ثم التفت اليه بالخطاب، فقال له مباشرة: وما يدريك . ويمكن أن يكون الخطاب في الآيات أولاً للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة . والأول أقرب، وألطف ذوقاً.

إتهام عثمان:

وبعض الرويات تتهم عثمان بهذه القضية ، وانه هو الذي جرى له ذلك مع ابن أم مكتوم^(٢).

ولكننا نشك في هذا الامر، لأن عثمان قد هاجر إلى الحبشة مع من هاجر - فمن أين جاء عثمان إلى مكة، وجرى منه ما جرى؟! .

إلا أن يقال: إنهم يقولون: إن أكثر من ثلاثين رجلاً قد عادوا إلى مكة بعد شهرين من هجرتهم كما تقدم، وكان عثمان منهم ثم عاد إلى الحبشة^(٣).

(١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٣٧ وتفسير البرهان ج ٤ ص ٤٢٨ ، وتفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٠٩ .

(٢) تفسير القمي ج ٢ ص ٤٠٥ وتفسير البرهان ج ٤ ص ٤٢٧ ، وتفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٠٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣ .

١٦٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وعلى كل حال، فإن أمر اتهام عثمان^(١) أو غيره من بني أمية، لأهون بكثير من اتهام النبي المعصوم، الذي لا يمكن أن يصدر منه أمر كهذا على الإطلاق. وإن كان يهون على البعض إتهام النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بها أو غيرها، شريطة أن تبقى ساحة قدس غيره منزهة وبريئة!!.

تاريخ هذه القضية:

ونسجل أخيراً: تحفظاً على ذكر المؤرخين لرواية ابن مكتوم ونزول سورة عبس، بعد قضية الغرائق؛ فإن الظاهر هو أن هذه القضية قد حصلت قبل الهجرة إلى الحبشة لأن عثمان كان قد هاجر إلى الحبشة قبل قضية الغرائق بشهرين كما يقولون.

إلا أن يكون عثمان قد عاد إلى مكة مع من عاد بعد أن سمعوا بقضية الغرائق كما يدعون.

أعداء الإسلام وهذه القضية:

ومما تجدر الإشارة إليه هنا: أن بعض المسيحيين الحاقدين قد حاول أن يتخذ من قضية عبس وتولى وسيلة للطعن في قدسية نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»^(٢). ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره

(١) ونحن نجد في عثمان بعض الصفات التي تنسجم مع مدلول الآية، كما يشهد له قضيته مع عمار حين بناء المسجد في المدينة، حين ردد عمار ما ارتجز به علي «عليه السلام» تعريضاً بعثمان:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب قائماً وقاعدا
ومن يرى عن التراب حائدا

وستأتي هذه القضية إن شاء الله تعالى.

(٢) راجع: الهدى إلى دين المصطفى ج ١ ص ١٥٨.

الفصل الثالث : حتى الشعب ١٦٥

الكافرون . فها نحن قد اثبتنا : أنها اكاذيب وأباطيل ما انزل الله بها من سلطان .

أكاذيب أخرى مشابهة:

وبالمناسبة فقد رووا : أن الاقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، جاءا الى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، فوجدها قاعداً مع عمار ، وصهيب ، وبلال وخباب ، وغيرهم من ضعفاء المؤمنين ، فحقروهم ، فخلوا بالنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، فقالوا : إن وفود العرب تأتيك ؛ فنستحي أن يرانا العرب قعوداً مع هذه الاعداء ؛ فإذا جئناك فأقمهم عنا ، قال : نعم .

قالوا : فاكذب لنا عليك كتاباً ؛ فدعا بالصحيفة ، ودعا علياً ليكتب ، فنزل قوله تعالى : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء﴾ الخ . . (١) فرمى «صلى الله عليه وآله وسلم» بالصحيفة ، ودعاهم وجلس معهم ، وصار دأبه هذا : أن يجلس معهم ، فإذا أراد ان يقوم قام وتركهم فأنزل الله تعالى : ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾ (٢) . فكان يجلس معهم إلى أن يقوموا عنه وفي بعض الروايات : إنهم يقصدون أبا ذر وسلمان (٣) .

(١) الانعام الآية ٥٢ .

(٢) الكهف الآية ٢٨ .

(٣) حلية الاولياء ج ١ ص ١٤٦ - ٣٤٥ ، وراجع مجمع البيان ج ٤ ص ٣٠٥/٣٠٦ .
والبداية والنهاية ج ٦ ص ٥٦ وعن كنز العمال ج ١ ص ٢٤٥ وج ٧ ص ٤٦ عن ابن أبي شيبة وابن عساكر . والدر المنثور في تفسير الآيات المشار إليها . عن العديد من المصادر .

١٦٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ويرد هذه الاباطيل جميع ما تقدم حين الكلام عن قصة ابن أم مكتوم، ولذلك فلا حاجة الى الاعادة.

وأيضاً فقد استفاض: أن سورة الانعام قد نزلت دفعة واحدة في مكة^(١)، فما معنى أن تكون هذه الايات قد نزلت بهذه المناسبة في المدينة.

والقول بأن نزولها كذلك لا ينافي كون هذه الآيات نزلت بهذه المناسبة.

مرفوض لأنها قد نزلت دفعة واحدة قبل الهجرة، بعد إسلام الأنصار، لأنها نزلت وأسماء بنت يزيد الانصارية آخذة بزمام ناقة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»^(٢) والآية نزلت في المدينة على الفرض.

على أن قصة عبس وتولى وحدها كافية لأن يرتدع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عن أمر كهذا - ولا سيما إذا كانت تؤنب غيره «صلى الله عليه وآله وسلم»، ممن هو ليس بمعصوم على فعل كهذا.

ثم ان سلمان إنما أسلم في المدينة، كما أن ابا ذر قد فارق النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فور إسلامه، وأقام بعسفان على طريق قوافل مكة، كما قدمنا.

والظاهر هو انهم أصرروا على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يبعد الفقراء عنه، حتى توسطوا لدى أبي طالب في ذلك، وأشار عليه عمر بقبول ذلك كما جاء في بعض الرويات، فجاءت هذه الايات في ضمن سورة الانعام بمثابة رد عليهم، وتفنيدهم لرأيهم. وليس في الايات ما يدل على قبوله «صلى الله عليه وآله وسلم» بذلك، كما تدعيه الروايات

(١) راجع الميزان ج ٧ ص ١١٠.

(٢) الدر المنثور ج ٣ ص ٢٢.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٦٧

المزعومة آنفاً.

ولم نتوسع في بيان وجوه الاختلاف بين الروايات، ونقاط الضعف فيها، والرد على هذه المزاعم، اعتماداً على ما ذكرناه في قضية ابن أم مكتوم المتقدمة.

بل إن ظاهر الآية الأولى: أن طرد الذين يدعون ربهم إلخ... قد كان عقاباً لهم على أمر صدر منهم، وذلك بقريته قوله تعالى فيها: «ما عليك من حسابهم من شيء». فكان الله سبحانه قد رفع التكليف عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» بمؤاخذتهم، رفقا منه تعالى بهم، وعطفاً عليهم.

قضية إسلام عمر بن الخطاب:

ويقولون: إن عمر بن الخطاب قد أسلم في السنة السادسة من البعثة، بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام؛ حيث خرج متوشحاً سيفه، يريد رسول الله، ورهطاً من أصحابه، وهم قريب من أربعين رجلاً في دار الارقم عند الصفا، فيهم أبو بكر، وحمزة، وعلي، وغيرهم ممن لم يخرج إلى الحبشة، فالتقى عمر بن نعيم بن عبد الله، فسأله عن أمره، فأخبره: أنه يريد أن يقتل محمداً.

فذكر له نعيم: أنه إن قتله لا ينجو من بني عبد مناف، وأن صهره وأخته قد أسلما، فرجع عمر إليهما، وعندهما، خباب بن الارت يعلمهما سورة طه، فلما سمعوا حسه، اختبأ خباب في مخدع، وخبأت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة تحت فخذها.

فدخل عمر، وبعد كلام بطش عمر بخته، وشج أخته، فأخبرته حينئذٍ أنهما قد أسلما؛ فليصنع ما بدا له. فندم عمر، وارعوى لما رأى الدم بأخته، وطلب الصحيفة فلم تعطه إياها حتى حلف بآلهته ليردنها إليها، فقالت له: إنك نجس على شركك، ولا تغتسل من الجنابة، وهذا

١٦٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

لا يمسّه إلا المطهرون .

فقام عمر، فاغتسل (توضأ)، ثم قرأ من الصحيفة صدراً وكان كاتباً، فاستحسنه، وظهر له خباب، وأخبره: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد دعا له بأن يعز الإسلام به أو بأبي جهل. فطلب منه عمر: أن يدلّه على الرسول ليسلم؛ ففعل، فذهب إليهم، وضرب الباب، فنظر رجل منهم من خلل الباب؛ فرآه متوشحاً بالسيف، فرجع إلى الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» فزعا. فأخبره.

فقال حمزة: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً، قتلناه بسيفه. فأذن له، ونهض إليه «صلى الله عليه وآله وسلم» حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجمع رداءه، ثم جبذه جبذة شديدة، وتهده، فأخبره عمر: أنه جاء ليسلم، فكبر «صلى الله عليه وآله وسلم»، وكبر المسلمون تكبيرة سمعها من في المسجد.

ثم طلب عمر من الرسول: أن يخرج ويعلن أمره، قال عمر: فأخرجناه في صفين: حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد (أي غبار) ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد. قال: فنظرت إلي قريش فأصابتهم كآبة لم تصبهم مثلها. فسماه رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: بـ «الفاروق» يومئذ.

وفي رواية: أن قريشاً اجتمعت وتشاورت فيمن يقتل محمداً، فقال عمر: أنا لها. فقالوا: أنت لها يا عمر، فخرج متقلداً السيف، فالتقى بسعد بن أبي وقاص، وجرت بينهما مشادة، حتى سلّ كل منهما سيفه؛ فأخبره سعد بخبر أخته الخ . .

وفي ثالثة: أنهم خرجوا وعمر أمامهم، ينادي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فلما سأله قريش عما وراءه تهددهم بأنه إن تحرك منهم أحد ليكنن سيفه منه، ثم تقدم أمام رسول الله، يطوف الرسول، ويحميه

الفصل الثالث : حتى الشعب ١٦٩

عمر، ثم صلى «صلى الله عليه وآله وسلم» الظهر معلناً.

وفي رابعة : أنه لما أسلم - وكان المسلمون يضربون - جاء الى خاله أبي جهل - كما عند ابن هشام، وقال ابن الجوزي : هو غلط بل خاله العاص بن هاشم - فأعلمه بإسلامه، فأجاف الباب، فذهب الى آخر من كبراء قريش فكدلك . فقال في نفسه : ما هذا بشيء الناس يضربون، وأنا لا يضربني أحد؛ فاستدل على أنقل رجل للحديث، فدلوه، فأعلمه بإسلامه؛ فنادى في قريش بذلك، فقاموا اليه يضربونه؛ فأجاره خاله، فانكشف الناس عنه .

ولكنه عاد فرد عليه جواره؛ لأن الناس يضربون ولا يضرب . قال : فلم يزل يضرب، حتى أظهر الله الاسلام .

وفي خامسة : أنه ذهب ليطوف، فقال له أبو جهل : زعم فلان أنك صبأت؟ فتشهد الشهادتين، فوثب عليه المشركون . فوثب عمر على عتبة بن ربيعة، وبرك عليه، وجعل يضربه، وجعل إصبعيه في عينيه، فجعل عتبة يصيح، فتنحى الناس عنه، فقام عمر، فجعل لا يدنومه إلا أحد شريف، وجعل حمزة يكشف الناس عنه .

وفي سادسة : أنه كان صاحب خمر في الجاهلية؛ فقصده ليلة المجلس المألوف له، فلم يجد فيه أحداً، فطلب فلاناً الخمار، فكذلك، فذهب ليطوف فوجد محمداً يصلي، فأحب الإستماع إليه، فدخل تحت ثياب الكعبة وسمع، فدخل الإسلام في قلبه فلما انصرف الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» وذهب الى داره التي يسكنها المعروفة بالرقطاء لحقه في الطريق، وأسلم . ثم انصرف الى بيته .

وفي العمدة : قيل أسلم عمر بعد ثلاثة وثلاثين رجلاً وست نسوة، وقال ابن المسيب بعد أربعين وعشر نسوة، وقال عبدالله بن ثعلبة : بعد خمس وأربعين وإحدى عشرة امرأة . وقيل : أسلم تمام الأربعين؛ فنزل

١٧٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

قوله تعالى : يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين^(١).

وثمة أوسمة أخرى:

ويقولون : إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان قد دعا قبل إسلام عمر، فقال : اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب . وفي نص آخر : اللهم أيد (أو أعز) الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، وكان دعاؤه «صلى الله عليه وآله وسلم» يوم الأربعاء، وإسلام عمر يوم الخميس.

وعن ابن عمر : انه «صلى الله عليه وآله وسلم» قال : اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب، قال : وكان أحبهما إليه عمر.

وقالوا : إن اسلام عمر كان فتحاً، وأن هجرته نصراً، وأن أمارته

(١) راجع في مجموع ما تقدم : الاوائل للعسكري ج ١ ص ٢٢١/٢٢٢، والثقات لابن حبان ص ٧٢ - ٧٥ والبدء والتاريخ ج ٥ ص ٨٨ - ٩٠ ومجمع الزوائد ج ٩ ص ٦١ عن البزار والطبراني، وتاريخ الطبري حوادث سنة ٢٣، وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٩١، وعمدة القاري للعيني ج ٨ ص ٦٨، وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦٦ - ٣٧٤، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٧ وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٢٣ - ٣٠، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٣١ و ٧٢ - ٨٠، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٩ - ٣٣٥، والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٣٢ - ١٣٧ ومصنف الحافظ عبد الرزاق ج ٥ ص ٣٢٧/٣٢٨، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٢ ص ١٨٢/١٨٣، واسباب النزول للواحدي وحياة الصحابة ج ١ ص ٢٧٤ - ٢٧٦، والاتقان ج ١ ص ١٥، والدر المنثور ج ٣ ص ٢٠٠ وكشف الأستار عن مسند البزار ج ٣ ص ١٦٩ - ١٧٢ ولباب النقول ط دار احياء العلوم ص ١١٣، إلى غير ذلك من كتب الحديث والتاريخ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص ٤ - ٩ ط دار النصر للطباعة.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٧١

كانت رحمة. وأنه لما أسلم قاتل حتى صلى المسلمون عند الكعبة^(١)
إلى غير ذلك مما لا مجال له هنا.

وقد استغرب الترمذي هذه الاحاديث رغم تصحيحه لبعضها.
ونحن نشك في صحة كل ما تقدم، بل ونطمئن الى بطلانه جميعاً
من الاساس، ولبيان ذلك نشير الى النقاط التالية:

١ - متى كان إسلام عمر:

تذكر تلك الروايات: أن عمر قد أسلم بعد إسلام حمزة بن عبد
المطلب «صلى الله عليه وآله وسلم» بثلاثة أيام. وكان إسلامه سبباً
لخروجه «صلى الله عليه وآله وسلم» من دار الارقم، بعد أن تكامل
المسلمون أربعين رجلاً، أو ما هو قريب من ذلك.

ونحن نشير هنا إلى:

ألف: إن الخروج من دار الارقم - كما يقولون - إنما كان في الثالثة

(١) راجع هذه الأحاديث وغيرها في: البدء والتاريخ ج ٥ ص ٨٨، وسيرة مغلطاي
ص ٢٣، ومنتخب كنز العمال هامش مسند أحمد ج ٤ ص ٤٧٠ عن الطبراني،
وأحمد، وابن ماجة، والحاكم والبيهقي، والترمذي، والنسائي، عن عمر، وخباب،
وابن مسعود، والأوائل ج ١ ص ٢٢١، وطبقات ابن سعد ج ٣ قسم ١
ص ١٩١ - ١٩٣، وجامع الترمذي ط الهند ج ٤ ص ٣١٤/٣١٥، ودلائل النبوة
للبيهقي ج ٢ ص ٧ وتحفة الاحوذى ج ٤ ص ٣١٤ والبدية والنهاية ج ٣ ص ٧٩،
والبخاري ط الميمنية ج ص ومصنف عبد الرزاق ج ٥ ص ٣٢٥، والاستيعاب
هامش الاصابة ج ١ ص ٢٧١، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٣٠، وتاريخ الاسلام
للذهبي ج ٢ ص ١٠٢ وتاريخ الخميس، وسيرة ابن هشام، وسيرة دحلان، ومسند
أحمد، وسيرة المصطفى، والطبراني في الكبير والاوسط، والمشكاة وغير ذلك من كتب
الحديث والتاريخ.

١٧٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

من البعثة، حينما أمر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بالإعلان بالدعوة. وهم يصرحون بأن إسلام عمر كان في السادسة من البعثة.

ب: إنهم يقولون إن عمر قد أسلم بعد الهجرة إلى الحبشة، حتى لقد رُق للمهاجرين، لما رأهم يستعدون للرحيل، حتى رجوا إسلامه منذئذ. والهجرة إلى الحبشة قد كانت في السنة الخامسة من البعثة، والخروج من دار الأرقم قد كان قبل ذلك أي في السنة الثالثة.

ج: إنه قد اشترك في تعذيب المسلمين، وإنما كان ذلك بعد الخروج من دار الأرقم، والإعلان بالدعوة.

متى أسلم عمر إذن:

إننا نستطيع أن نقول باطمينان: إنه لم يسلم في السنة السادسة قطعاً بل أسلم بعد ذلك بسنوات، ومستندنا في ذلك:

أولاً: إنهم يقولون: إنه قد أسلم بعد فرض صلاة الظهر، فصلى رسول الله الظهر معلناً تحت حماية عمر كما تقدم. وصلاة الظهر قد فرضت - حسب قولهم - حين الأسراء والمعراج الذي كان - عندهم - في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من البعثة. فكلامهم متناقض.

وإن كنا نحن قد حققنا: أن الأسراء والمعراج كان في حوالي السنة الثانية من البعثة.

وقد أجاب البعض عن ذلك، بأن المقصود هو صلاة الغداة أي الصبح^(١).

ولكنه توجيه لا يصح؛ فإن كلمة الظهر لا تنطبق على الغداة ولا تطلق عليها وهو جواب عجيب وغريب كما ترى.

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٣٥.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٧٣

وإن كان مرادهم أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يؤخر صلاة الصبح إلى ارتفاع الشمس فهو غير معقول؛ إذ كيف يؤخر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» صلاته عن وقتها بلا عذر ظاهر؟.

وثانياً: إن عبدالله بن عمر يصرح: أنه حين أسلم أبوه كان له هو من العمر ست سنين^(١) ويرى البعض: أن عمره كان خمس سنين^(٢).

ويدل على ذلك: رواية أن ابن عمر كان حين إسلام أبيه على سطح البيت، ورأى أن الناس قد هاجوا ضد أبيه، وحصلوه في البيت؛ فجاء العاص بن وائل ففرقهم عنه، وقد استفسر ابن عمر أباه حينئذٍ عن بعض الخصوصيات كما سيأتي عن قريب.

كما أن ابن عمر يروي: أنه حين أسلم أبوه غدا يتبع أثره، وينظر ما يفعل، يقول: وأنا غلام أعقل ما رأيت^(٣) مما يدل على أن ابن عمر كان حين إسلام أبيه مميزاً مدركاً.

وذلك يدل على أن عمر أسلم حوالي السنة التاسعة من البعثة - كما ذهب إليه البعض^(٤) - لأن ابن عمر ولد في الثالثة من البعثة، وتم عمره على الخمس عشرة سنة في عام الخندق سنة خمس من الهجرة، حيث أجازته «صلى الله عليه وآله وسلم» فيها كما هو مشهور^(٥).

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١٩، وطبقات ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٩٣، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٢ ص ١٨٢.

(٢) فتح الباري ج ٧ ص ١٣٥.

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٨١ وتاريخ الاسلام للذهبي ج ٢ ص ١٠٥ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٣٩، والبدایة والنهاية ج ٣ ص ٨٢، ومروج الذهب ط دار الاندلس بيروت ج ٢ ص ٣٢١.

(٥) سير اعلام النبلاء ج ٣ ص ٢٠٩، تهذيب الكمال ج ١٥ ص ٣٤٠ الاصابة ج ٢

١٧٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

بل ورد عن ابن شهاب: ان حفصة وابن عمر قد اسلما قبل عمر.
ولما أسلم أبوهما كان عبدالله ابن نحو من سبع سنين^(١) وذلك يعني ان
إسلام عمر قد كان في العاشرة من البعثة.

بل نقول: إن عمر بن الخطاب لم يسلم إلا قبل الهجرة بقليل،
ويدل على ذلك:

أولاً: إنه بلغه: أن أخته لا تأكل الميتة^(٢)

وواضح: أن تحريم الميتة إنما كان في سورة الانعام، التي نزلت
في مكة جملة واحدة. وكانت - كما تقول بعض الروايات - اسماء بنت
يزيد الأوسية آخذة بزمام ناقته «صلى الله عليه وآله وسلم»^(٣) وإسلام
الأوس وأهل المدينة إنما كان بعد الهجرة الى الطائف، ومجيء نسائهم
الى مكة قد كان بعد العقبة الاولى.

وما تقدم في فصل: بحوث تسبق السيرة. من ان زيد بن عمر وبن
نفيل كان لا يأكل الميتة.. لو صح؛ فإنما هو لاجل أنه كان يدين
بالنصرانية إلا أن يقال: إن تحريم الميتة قد كان على لسان النبي قبل نزول
سورة الانعام لكن ذلك يحتاج الى دليل وشاهد وهو غير موجود.

وثالثاً: لقد استقرب البعض: أن يكون قد أسلم بعد اربعين، أو
خمس وأربعين ممن أسلم بعد الهجرة الى الحبشة^(٤)

ص ٣٤٧ والاستيعاب بهامش الاصابة ج ٢ ص ٣٤٢ وبقية المصادر لذلك تراجع في
كتابنا: سلمان الفارسي في مواجهة التحدي ص ٢٤.

(١) سير اعلام النبلاء ج ٣ ص ٢٠٩.

(٢) مصنف الحفاظ عبد الرزاق ج ٥ ص ٣٢٦.

(٣) الدر المنثور ج ٣ ص ٢ عن الطبراني، وابن مردويه.

(٤) الثقات لابن حبان ج ١ ص ٧٣، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٨٠ والبدء والتاريخ
ج ٥ ص ٨٨.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٧٥

ويؤيد ذلك: أن الذين هاجروا إلى الحبشة كانوا أكثر من ثمانين رجلاً. وهي انما كانت في الخامسة، وإسلام عمر كان في السادسة من البعثة كما يقولون - فلا بد ان يكون الأربعون الذين أتمهم عمر بإسلامه غير هؤلاء الذين هاجروا، وإن كان ابن الجوزي يعد الذين أسلموا قبل عمر، فيذكر اسماء من هاجر الى الحبشة على الاكثر^(١) الأمر الذي يشير الى أنه يرى: أن الأربعين الذين أتمهم عمر هم هؤلاء، وليسوا فريقاً آخر قد أسلم بعد هجرتهم.

ويؤيد ذلك أيضاً: الروايات التي تصرح بأنه أسلم في السادسة من البعثة، وأنه رق للمهاجرين الى الحبشة، حتى لقد رجوا إسلامه.

فإذا كان ذلك. فلسوف يأتي في حديث المؤاخاة التي جرت في المدينة بعد الهجرة بين المهاجرين والانصار: أن المهاجرين كانوا حين المؤاخاة خمسة وأربعين رجلاً أو أقل أو أكثر بقليل^(٢). أي ان الذين أسلموا بعد الهجرة الى الحبشة كانوا خصوص هؤلاء، فإذا كان عمر قد أسلم وكان تمام الاربعين فيهم فإن معنى ذلك هو أنه قد أسلم قبل الهجرة بقليل، ثم هاجر. ولعله لاجل ذلك لم يتعرض للتعذيب في مكة، كما سنشير اليه حين الكلام عن الذين عذبوا فيها.

ورابعاً: لقد جاء في الروايات في إسلام عمر: أنه «دنا من رسول الله، وهو يصلي ويجهر بالقراءة، فسمع رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» يقرأ: وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك،

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٢٨/٢٩.

(٢) وإن كان ابن هشام قد عد نحو سبعين ممن هاجر إلى المدينة. ولكن ذلك لا يمكن الاعتماد عليه بعد النص على عدد من آخرى رسول الله «صلى الله عليه وآله» بينهم من قبل غير واحد، كما سيأتي. ولا يعقل أن يترك أحداً من أصحابه لا يؤاخي بينه وبين آخر من اخوانه.

١٧٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

حتى بلغ: الظالمون»^(١).

وواضح: أن هاتين الآيتين قد وردتا في سورة العنكبوت، وهي إما آخر ما نزل في مكة، أو هي السورة قبل الأخيرة^(٢). فإسلام عمر قد كان قبل الهجرة بقليل، لأنه يكون أسلم قبل نزول هاتين السورتين.

وخامساً: لقد روى البخاري في صحيحه، بسنده عن نافع قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر. ثم حاول نافع أن يوجه هذا بأن ابن عمر بايع تحت الشجرة قبل أبيه، ثم قال: فهي التي يتحدث الناس: أن ابن عمر أسلم قبل عمر^(٣).

ولكننا نقول لنافع: ألم يكن الناس يعرفون اللغة العربية؟ فلم لم يقولوا: إنه بايع قبل أبيه، وقالوا: أسلم قبل أبيه؟! ثم ألم يكن أحد منهم يعرف أن هذا الكلام لا يدل على ذلك ولا يشير إليه، فكيف يصح أن يكون هو المقصود منه؟!.

ونحن نعتقد أن ما يقوله الناس في ذلك الزمان هو الصحيح الظاهر، فإن ابن عمر قد أسلم قبل الهجرة بيسير، ثم أسلم أبوه وهاجر^(٤).

وسادساً: إن عمر قد رفض في عام الحديبية: حمل رسالة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بحجة أن بني عدي لا ينصرونه؛ فمعنى ذلك هو أنه قد أسلم وهاجر ولم يعلم أحد بإسلامه، وإلا لكان قد عذب،

(١) المصنف للمحافظ عبد الرزاق ج ٥ ص ٣٢٦. وراجع مصادر روايات اسلام عمر المتقدمة.

(٢) الاتفاقان ج ١ ص ١٠ - ١١.

(٣) صحيح البخاري ط مشكول ج ٥ ص ١٦٣.

(٤) وقد تقدم عن الزهري أن عمر قد أسلم بعد حفصة وعبد الله بن عمر.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٧٧

ولم ينصره بنوعدي^(١). لا سيما مع ما سيأتي من حالة الذل التي كان يعاني منها هذا الرجل قبل إسلامه.

٢ - من سمي عمر بالفاروق؟!

وقد ذكرت تلك الروايات: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد سمي عمر بالفاروق حين أسلم.

ولكننا نشك في ذلك جداً، إذ أن الزهري يقول:

«بلغنا: أن أهل الكتاب أول من قال لعمر: «الفاروق». وكان المسلمون يأترون ذلك من قولهم. ولم يبلغنا: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» ذكر من ذلك شيئاً^(٢)».

وقد كانت كلمة الفاروق تطلق عليه في أيام خلافته^(٣).

٣ - هل كان عمر قارئاً؟!

وتذكر الروايات: أن عمر بن الخطاب كان قارئاً، وأنه قد قرأ الصحيفة بنفسه.

ونحن نشك في ذلك أيضاً: لاعتقادنا أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة، ولا سيما في بادئ أمره، إلا أن يكون قد تعلمها بعد ذلك في أواخر أيام حياته؛ وذلك لأمرين.

(١) ستأتي مصادر ذلك بعد حوالي خمس صفحات.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٣٠، وطبقات ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٩٣، والبداية والنهاية ج ٧ ص ١٣٣، وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٦٧ حوادث سنة ٢٣. وذيل المذيل ج ٨ من تاريخ الطبري.

(٣) راجع: طبقات الشعراء لابن سلام ص ٤٤.

١٧٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

احدهما : أن البعض يصرح بأن خباب بن الارت هو الذي قرأ له الصحيفة^(١) فلو كان قارئاً؛ فلماذا لا يقرؤها بنفسه ، ليتأكد من صحة الأمر؟!

الثاني : لقد روى الحافظ عبد الرزاق، بسند صحيح ، حسبما يقولون هذه الرواية نفسها، ولكنه قال فيها : «فالتمس الكتف في البيت حتى وجدها، فقال حين وجدها : أما إني قد حُذِّثُ : انك لا تأكلين طعامي الذي آكل منه ، ثم ضربها بالكتف فشجها شجتين . ثم خرج بالكتف حتى دعا قارئاً؛ فقرأ عليه . وكان عمر لا يكتب . فلما قُرِئَتْ عليه تحرك قلبه حين سمع القرآن الخ»^(٢) .

ويؤيد ذلك ما عن عياض ابن أبي موسى : أن عمر بن الخطاب قال لابي موسى : أدع لي كاتبك ليقراً لنا صحفاً جاءت من الشام . فقال أبو موسى : إنه لا يدخل المسجد . قال عمر : أبه جنابة؟ قال : لا ، ولكنه نصراني ؛ فرفع عمر يده فضرب فخذه حتى كاد يكسرها إلخ^(٣) .

فلو كان عمر يعرف القراءة لم يحتج لكاتب أبي موسى ليقراً له الصحف التي جاءت . ولربما يعتذر عن ذلك بأن الخليفة ربما لم يكن يباشر القراءة لمركزه مع معرفته لها . أو أن الرسائل كانت بغير العربية .

ولكن الظاهر هو أن هذه الاعراف والتقييدات قد حدثت في وقت متأخر ، ولم يكن عمر يتقيد بها كما أن بلاد الشام كانت ولا تزال عربية اللغة ، فمن البعيد أن يكتبوا له بغير العربية .

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ قسم ٢ ص ٩ .

(٢) مصنف الحافظ عبد الرزاق ج ٥ ص ٣٢٦ .

(٣) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٤٣ والدر المنثور ج ٢ ص ٢٩١ عن ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان وحياة الصحابة ج ٢ ص ٧٨٥ عن تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٨ .

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٧٩

ويمكن أن يؤيد ذلك أيضاً: بأن عمر لم يكن ذا ذهنية علمية، وذلك بدليل: أنه بقي اثنتي عشرة سنة حتى تعلم سورة البقرة، فلما حفظها نحر جزوراً^(١).

بل لقد ورد أنه لما طلب من حفصة أن تسأل له النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عن الكلاله، فسألتها عنها؛ فأملأها عليها؛ في كتب، ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: «عمر أمرك بهذا؟ ما أظنه أن يفهمها»^(٢).

بل لقد واجهه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه بذلك كما رواه كثيرون^(٣).

إلا أن من الممكن أن يكون عمر قد عاد فتعلم القراءة والكتابة بمشاق ومتاعب جمّة، ويمكن أن يستدل على ذلك بأنه - كما روى البخاري - كان يقول: إنه لولا أن يقال: إن عمر قد زاد في كتاب الله لكتب آية الرجم بيده!^(٤).

ومهما يكن من أمر، فإننا لسنا أول من شك في معرفة الخليفة الثاني للقراءة والكتابة، فقد كان هذا الأمر موضع نقاش وشك منذ القرن الأول للهجرة، فهذا الزهري يقول: كنا عند عمر بن عبد العزيز وهو والي

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٦٥، والدر المنثور ج ١ ص ٢١، عن الخطيب في رواة مالك، والبيهقي في شعب الايمان، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٢ ص ٦٦، والغدير ج ٦ ص ١٩٦ عنهم وتفسير القرطبي ج ١ ص ١٥٢ والتراتب الادارية ج ٢ ص ٢٨٠ عن تنوير الحوالك.

(٢) المصنف للمحافظ عبد الرزاق ج ١٠ ص ٣٠٥.

(٣) راجع الغدير ج ٦ ص ١١٦ عن غير واحد. وراجع ١٢٨.

(٤) راجع كتابنا: حقائق هامة حول القرآن ص ٣٤٦، فقد نقلنا ذلك عن عشرات المصادر.

١٨٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

المدينة ثم صارت إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبة، فقال: هل من معه به
خبر فأسأله: هل كان عمر يكتب؟.

فقال عروة: نعم كان يكتب.

فقال: بآية ماذا؟.

قال: بقوله: لولا ان يقول الناس زاد عمر في القرآن لخطت آية
الرجم بيدي.

فقال عبيد الله: هل يسمّى عروة من حدثه؟.

قلت: لا.

قال عبيد الله: فإنما صار عروة يمص مص البعوضة لثماً بطنها، ولا
يرى أثرها، يسرق أحاديثنا ويكتننا، أي أني أنا حدثته^(١).

ملاحظة:

وإذا ثبت عدم معرفته بالقراءة، أوشك في كونه كان حينئذ يقرأ
ويكتب، فمن الطبيعي أن يتطرق الشك إلى قولهم؛ إنه كان من كتاب
الوحي^(٢)، فلعل ذلك كان من الأوسمة التي نحلها إياها بعض من عزّ
عليهم أن يحرم عمر من هذا الشرف بنظرهم.

وملاحظة أخرى:

وهي أننا رأينا عمر بن الخطاب يضرب فخذ أبي موسى حتى كاد
يكسرها، لاتخاذها كتاباً نصرانياً، مع أنهم يقولون: إنه هو نفسه كان له

(١) مختصر تاريخ دمشق ج ١٧ ص ١٠.

(٢) بحوث في تاريخ القرآن وعلومه ص ١١٣ عن تاريخ القرآن للزنجاني. وفي تاريخ
اليقوي ج ٢ ص ٨٠ ط صادر والاستيعاب بهامش الأصابة ج ١ ص ٥١، ذكرنا عمر
في جملة من كان يكتب للنبي «صلى الله عليه وآله». لكن لم يبين، إذا كان يكتب
الوحي، أو غيره.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٨١

مملوك نصراني لم يسلم، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى، حتى حضرته الوفاة فأعتقه^(١)

فما هذا التناقض في مواقف الخليفة الثاني؟! وما هو المبرر لها إلا أن يكون اعتراضه على أبي موسى منصباً على استعانته بغير المسلم في شؤون المسلمين العامة، وهذا غير خدمة غير المسلم للمسلم.

٤ - هل عز الإسلام بعمر حقاً؟!

وتذكر الروايات: أن الإسلام قد عز بعمر وأنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد دعا الله أن يعز الاسلام به بل لقد ذهبت بعض الروايات الى اعتبار عمر من الجبارين في الجاهلية، حيث إنه حين أشار على ابي بكر: أن يتألف الناس ويرفق بهم، قال له أبو بكر: «رجوت نصرك، وجئتني بهذا لأنك جبار في الجاهلية، خوار في الإسلام الخ»^(٢).

ونحن نشك في صحة ذلك بل نجزم بعدم صحته، وذلك للامور التالية:

ألف: إن الإسلام إذا لم يعز بأبي طالب شيخ الأبطح، وبحمزة أسد الله وأسد رسوله، الذي فعل برأس الشرك أبي جهل ما فعل، وإذا لم يعز بسائر بني هاشم أصحاب العز والشرف والنجدة، فلا يمكن أن يعز بعمر الذي كان عسيفاً (أي مملوكاً مستهاناً به)^(٣) مع الوليد بن المغيرة الى

(١) حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٤، عن كنز العمال ج ٥ ص ٥٠ عن ابن سعد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والطبقات الكبرى ج ٦ ص ١٠٩ والتراتب الادارية ج ١ ص ١٠٢ ونظام الحكم في الشريعة والتاريخ والحياة الدستورية ص ٥٨ عن تاريخ عمر لابن الجوزي ص ٨٧ و ١٤٨.

(٢) كنز العمال ج ٦ ص ٢٩٥.

(٣) راجع: اقرب الموارد، مادة: «عسف».

١٨٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الشام^(١). لا سيما وأنه لم يكن في قبيلته سيد أصلاً^(٢)، ولم تؤثر عنه في طول حياته مع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أية مواقف شجاعة، وحاسمة، بل لم نجد له أية مبارزة، أو عمل جرىء في أي من غزواته، رغم كثرتها وتعددتها.

بل لقد رأيناه يفر في غير موضع، كأحد، وحنين وخبير حسبما صرح به الجهم الغفير من أهل السير، ورواة الأثر، كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ومن الطريف هنا ما رواه الزمخشري، من أن أنس بن مدركة كان قد أغار على سرح قريش في الجاهلية؛ فذهب به، فقال له عمر في خلافته: لقد اتبعناك تلك الليلة؛ فلو أدركناك؟. فقال: لو أدركتني لم تكن للناس خليفة^(٣).

والخلاصة: انه لا يمكن أن يعز الاسلام بعمر، الذي لم يكن له عز في نفسه، ولا بعشيرته، ولا شجاعة يخاف منها.

ب - إننا سواء قلنا: إن عمر قد أسلم قبل الحصر في الشعب أو بعده، فإن الأمر يبقى على حاله، لأننا لم نجد أي تفاوت في حالة المسلمين قبل وبعد إسلام عمر، ولا لمسنا أي تحول نحو الأفضل بعد إسلامه، بل رأينا: عكس ذلك هو الصحيح، فمن حصر المشركين للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» والهاشميين في الشعب، حتى كادوا يهلكون جوعاً، وحتى كانوا يأكلون ورق السمر، وأطفالهم يتضاغون جوعاً. إلى تأمر على حياة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم». ثم بعد وفاة أبي طالب رحمه الله لم يستطع «صلى الله عليه وآله وسلم» دخول مكة بعد عودته من الطائف إلا بعد مصاعب جمّة، لم نجد عمر ممن

(١) المنق، لابن حبيب ط الهند ص ١٤٦، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٢ ص ١٨٣.

(٢) المنق ص ١٤٧.

(٣) ربيع الابرار ج ١ ص ٧٠٧.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٨٣

ساعد على حلها. هذا كله عدا عن الاذايا الكثيرة التي كان أبولهب يوجهها للنبي باستمرار.

ج - وفي صحيح البخاري وغيره حول اسلام عمر: عن عبدالله بن عمر قال: بينما عمر في الدار خائفاً، إذ جاءه العاص بن وائل السهمي. إلى أن قال: فقال: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت. قال: لا سبيل إليك. بعد أن قالها أمنت. ثم ذكر إرجاع العاص الناس عنه. وأضاف الذهبي قول عمر: فعجبت من عزه^(١).

فمن يتهده الناس بالقتل، ويخاف، ويختبئ في داره، فإنه لا يكون عزيزاً ولا يعز الاسلام به. غير أنه هو نفسه قد ارتفع بالاسلام، وصار له شخصية وشأن، كما سنرى.

هذا عدا عن الروايات القائلة: إن أبا جهل هو الذي أجار عمر^(٢).

وعلى هذا فقد كان الأجدر: أن يدعو النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بأن يعز الاسلام بمن يجير عمر، والذي يعجب الناس من عزته، لا بعمر الخائف، والمختبئ في بيته.

د - والغريب هنا: أن أحد الرجلين اللذين دعا لهما النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وهو أبو جهل يضربه حمزة رضوان الله عليه بقوسه أمام

(١) راجع: صحيح البخاري ج ٥ ص ٦١/٦٠ ط مشكول، ففيه روايتان بهذا المعنى، وتاريخ الاسلام للذهبي ج ٢ ص ١٠٤، ونسب قريش لمصعب الزبيري ص ٤٠٩، وتاريخ عمر لابن الجوزي ص ٢٦، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٣٢، والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٣٥، وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٤، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٨٢ وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ط دار النصر ج ٢ ص ٩.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٢٤ - ٢٥ وراجع كشف الأستار ج ٣ ص ١٧١ ومجمع الزوائد ج ٩ ص ٦٤ وذكر: أن خاله هو الذي أجاره وقال ابن اسحاق المراد بخاله: أبو جهل، ولم يرتض ذلك ابن الجوزي، فراجع.

١٨٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الملا من قومه، فيشججه شجرة منكرة، ولا يجرو على الكلام، ثم يقتل في بدر في أول وقعة بين المسلمين والمشركين.

والرجل الآخر وهو عمر بن الخطاب يكون على خلاف توقعات النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ولا يستجيب الله دعاءه فيه، حيث لم يعز الإسلام به، كما رأينا. مع أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يقول: «ما سألت - ربي - الله - شيئاً إلا أعطانيه^(١)» بل لقد كانت النتيجة عكسية، حيث يذكر عبد الرزاق: (أنه لما جهر عمر بإسلامه اشتد ذلك على المشركين فعذبوا من المسلمين نفراً)^(٢).

هـ - لا بأس بالمقارنة بين نعيم بن عبد الله النحام العدوي. وبين عمر بن الخطاب العدوي؛ فقد أسلم نعيم قبل عمر، وكان يكتم إسلامه، ومنعه قومه لشرفه فيهم من الهجرة، لأنه كان ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم.

فقالوا: «أقم عندنا على أي دين شئت، فوالله لا يتعرض اليك أحد الاذهبت أنفسنا جميعاً دونك^(٣)».

ويقول عروة عن بيت نعيم هذا: «ما أقدم على هذا البيت أحد من بني عدي»^(٤) أي لشرفه.

(١) راجع: ترجمة الامام علي بن ابي طالب من تاريخ ابن عساكر بتحقيق المحمودي ج ٢ ص ٢٧٥ و ٢٧٦ و هامشها ٢٧٨ وفرائد السمطين باب ٤٣ حديث ١٧٢ وكنز العمال ج ١٥ ص ١٥٠ ط ٢ عن ابن جرير، وصححه، وابن ابي عاصم، والطبراني في الاوسط. وابن شاهين في السنة، وعن الرياض النضرة ج ٢ ص ٢١٣.

(٢) راجع المصنف لعبد الرزاق ج ٥ ص ٣٢٨.

(٣) اسد الغابة ج ٢ ص ٣٣ وراجع: نسب قريش لمصعب ص ٣٨٠.

(٤) نسب قريش لمصعب ص ٣٨١.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٨٥

أما عمر، فإن رسول الله أراد في الحديبية أن يرسله إلى مكة؛ ليلغ عنه رسالة إلى أشراف قريش، تتعلق بالأمر الذي جاء له؛ فرفض ذلك وقال: «إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعي» ثم أشار على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بأن يرسل عثمان بن عفان^(١).

و- لقد خطب ابن عمر بنت نعيم النحام، فرده نعيم، وقال: «لا أدع لحمي ترباً» وزوجها من النعمان بن عدي بن نضلة^(٢)

فنعيم يربأ بإبنته عن أن تتزوج بابن عمر، ويرى ذلك تضييعاً لها!! .

ز - وفي زيارة عمر للشام أيام خلافته خلع عمر خفيه، ووضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته، وخاض المخاضة فاعترض عليه أبو عبيدة، فأجابه عمر بقوله: «إنا كنا أذل قوم؛ فاعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله^(٣)»، وفي نص آخر عنه: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العز بغيره^(٤)».

واحتمال أن يكون مقصوده هو ذل العرب وعزهم لا خصوص بني عدي.

(١) راجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ١٦٧ عن ابن اسحاق، وحياة الصحابة ج ٢ ص ٣٩٨/٣٩٧ عن كنز العمال ج ١ ص ٨٤ و ٥٦ و ج ٥ ص ٢٨٨ عن ابن أبي شيبه، والرويانى، وابن عساكر، وابي يعلى، وطبقات ابن سعد ج ١ ص ٤٦١ وسنن البيهقي ج ٩ ص ٢٢١.

(٢) نسب قريش لمصعب ص ٣٨٠.

(٣) مستدرك الحاكم ج ١ ص ٦١. وتلخيصه للذهبي بهامشه، وصحيحه على شرط الشيخين.

(٤) مستدرك الحاكم ج ١ ص ٦٢.

١٨٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

بعيد؛ لأنه قد عنف أبا عبيدة على مقولته تلك بأن غير أبي عبيدة لو كان قال ذلك لكان له وجه، أما أن يقوله أبو عبيدة العارف بالحال والسوابق فإنه غير مقبول منه. هذا بالاضافة الى ما سيأتي مما يدل على ذل بني عدي، فانتظر.

ح - وقال أبو سفيان للعباس في فتح مكة، حينما كان يستعرض الألوية؛ فرأى عمر، وله زجل: «يا أبا الفضل، من هذا المتكلم؟ قال: عمر بن الخطاب.

قال: لقد - أمر - أمر بني عدي بعد - والله - قلة وذلة.

فقال العباس: يا أبا سفيان، إن الله يرفع من يشاء بما يشاء، وإن عمر ممن رفعه الإسلام^(١)».

ط - تقدم قول عوف بن عطية:

وأما الألمان بنو عدي وتيم حين تزدحم الأمور
فلا تشهد لهم فتیان حرب ولكن أذن من حلب وعير

وفي رسالة من معاوية لزياد بن أبيه يذكر فيها أمر الخلافة يقول: «ولكن الله عز وجل أخرجها من بني هاشم وصيرها الى بني تيم بن مرة: ثم خرجت الى بني عدي بن كعب وليس في قريش حيان أذل منهما ولا أنذل الخ. (٢).

ي - وقال خالد بن الوليد لعمر: «إنك ألأمها حسباً. وأقلها عدداً وأخملها ذكراً. . الى أن قال له: لثيم العنصر ما لك في قريش فخر. قال

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢١، وعن كثر العمال ج ٥ ص ٢٩٥، عن ابن عساكر، عن الواقدي.

(٢) كتاب سليم بن قيس ص ١٤٠.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٨٧

فأسكنه خالد»^(١)

٥ - غسل عمر لمس الصحيفة:

وإشكال آخر يبقى بلا جواب، وهو أنه كيف طلبت أخته منه: أن يغتسل لمس الصحيفة، مع أن غسل المشرك لا يجدي في جواز مس القرآن؛ فإن المانع هو شركه، لا حدثه، ولذلك قالت له: «إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسه إلا المطهرون»^(٢)

ودعوى أن المراد هو غسل الجنابة مدفوعة أيضاً، فإنهم يقولون: إن أهل الجاهلية كانوا يغتسلون من الجنابة^(٣) فكيف تقول له أخته: إنك لا تغتسل من الجنابة. إلا أن يكون هو نفسه لم يكن يلتزم بما كان يلتزم به قومه في الجاهلية.

ومما يدل على أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة، أن أباسفيان قد نذر أو حلف بعد رجوعه من بدر مهزوماً: أن لا يمس رأسه ماء من جنابة، حتى يغزو محمداً. وكانت غزوة السويق لأجل أن يكفر عن يمينه،^(٤) كما

(١) الخصال ج ٢ ص ٤٦٣.

(٢) الثقات ج ١ ص ٧٤، وراجع مصادر الرواية المتقدمة، وجمع الزوائد ج ٩ ص ٦٣.

(٣) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٩ عن الدمي، والسهيلي وذكر الدمي: أنه بقية من دين إبراهيم وإسماعيل.

قال: وفي كلام بعضهم: كانوا في الجاهلية يغتسلون من الجنابة، ويغسلون موتاهم، ويكفنونهم، ويصلون عليهم الخ.

(٤) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٤٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٥٤٠ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤١٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١١ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٣٩ والسيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحلبية) ج ٢ ص ٥ والبحار ج ٢٠ ص ٢ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٧٥.

١٨٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

سنرى .

ويدل على ذلك: ما يذكرونه عن صيفي بن الأسلت من أنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح واغتسل من الجنابة^(١).

٦ - نزول آية في إسلام عمر:

ويذكرون ان آية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد نزلت في هذه المناسبة حيث أسلم عمر رابع اربعين^(٢) ولكن يعارض ذلك ما روي عن الكلبي، من أن الآية قد نزلت في المدينة في غزوة بدر^(٣).

وعن الواقدي: أنها نزلت في بني قريظة والنضير^(٤).

وأيضاً فإن الآية في سورة الأنفال، وهي مدنية لا مكية.

وفي رواية الزهري: أن هذه الآية نزلت في الأنصار^(٥).

يضاف الى ذلك: أن الآية مسبقة بآيات القتال، ولم يشرع القتال إلا في المدينة، وهي تنسجم مع تلك الآيات تمام الانسجام، فراجعها وتأمل فيها. وهي أيضاً تناسب المدينة، حيث قويت شوكة الاسلام، وعز المؤمنون.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٤٧ وتاريخ الاسلام للذهبي ص ١٠٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤.

(٢) راجع: الدر المنثور ج ٣ ص ٢٠٠ عن الطبراني، وإبي الشيخ، وابن مردويه وراجع أيضاً ما أخرجه عن البزار وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وغيرهم.

(٣) مجمع البيان ج ٤ ص ٥٥٧.

(٤) التبيان للطوسي ج ٥ ص ١٥٢.

(٥) الدر المنثور ج ٣ ص ٢٠٠ عن ابن اسحاق، وابن أبي حاتم.

الفصل الثالث : حتى الشعب ١٨٩

ملاحظات أخيرة:

وأخيراً، فإننا نذكر:

١ - أن الذي يطالع روايات إسلام عمر، يرى: أنها متناقضة تناقضاً كبيراً فيما بينها.

٢ - إن بعض الروايات تذكر: أن عمر قد التقى بسعد الذي كان قد أسلم، أو بنعيم النحام، وجرى بينهما كلام؛ فأخبره بإسلام أخته، وزوجها، وأغراه بهما.

ويرد سؤال: انه اذا كان سعد مسلماً، وكان نعيم قد أسلم قبل عمر سراً، فلماذا يغري عمر بأخته المسلمة وصهره؟! وإذا كان انما فعل ذلك ليصرفه عن قصد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بالسوء؛ فلا ندري كيف يخاف من عمر على النبي وعند النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أمثال حمزة وعلي إلى تمام الأربعين رجلاً؟ ولماذا لا يخاف على هذين المسلمين، وليس لهما ناصر، ولا عندهما أحد؟! .

٣ - إن قول حمزة عن عمر: «وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه» يشير الى انه رحمه الله لم يكن يقيم وزناً لعمر، حتى حينما يكون عمر متوشحاً بالسيف، حتى يرى: ان امره سهل، وان بالإمكان قتله بنفس سيفه الذي يحمله، وهذا غاية في الاستهانة بقدرات عمر، ما بعدها غاية.

٤ - لا ندري لماذا تهدد النبي عمر؟ وجبذه جبذة شديدة!! .

وكيف وصل عمر الى النبي بهذه السهولة؟ ولماذا لقيه في الحجرة؟ ولماذا خرج المسلمون في صفين؟ وما هو فلسفة ذلك عسكرياً. وهل لم يكن عمر يعرف من هو أنقل رجل في قریش؟

١٩٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ولماذا لم يكن يدنو اليه إلا شريف إلى غير ذلك من الاسئلة الكثيرة.

وإذا كان قد خرج مع المسلمين في صفين وتهدد المشركين، وخاف رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» حينئذ فلماذا احتاج إلى انقل رجل للحديث في قريش؟! ولماذا ذهب إلى المسلمين متوشحاً سيفه، إلى كثير من الأسئلة التي تعلم بالمراجعة والمقارنة.

: خاتمة المطاف:

وبعد ما تقدم، فإن المراجع لروايات إسلام عمر لا يصعب عليه: أن يكتشف بسرعة: أن ثمة محاولات للتغطية على قضية إسلام حمزة، الذي عز به الإسلام حقاً، وسر به رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» سروراً كثيراً. ولهذا تجد: أنهم يقرنون عمر بحمزة كثيراً في تلك الروايات، ويحاولون إعطاءهما المواقف مناصفة، مع تخصيص عمر بحصة الأسد فيها.

كما أن فضيلة رد الجوار التي هي لعثمان بن مظعون يحاولون إعطاءها إلى عمر.

بل نجد في بعض الروايات: إن أهل الكتاب في الشام قد بشروا عمر بما سوف يؤول إليه أمره في مستقبل هذا الدين الجديد^(١)، كما بشروا أبا بكر في بصرى^(٢) وكما بشروا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه^(٣) حسب رواياتهم.

(١) راجع الرياض النضرة ج ٢ ص ٣١٩.

(٢) راجع: السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٧٤/٢٧٥ و١٨٦ والرياض النضرة ج ١ ص ٢٢١.

(٣) قد أشرنا إلى ما يذكرونه عن دور ورقة بن نوفل في ذلك، وأثبتنا عدم صحة ذلك، فراجع روايات بدء الوحي في الجزء الأول من هذا الكتاب.

الفصل الثالث: حتى الشعب ١٩١

ثم إنهم قد وجدوا في عمر العلامات التي تدعم مدعاهم^(١)، كما وجدوها في أبي بكر من قبل؟!

ثم كان إسلام عمر، وكانت كل الجهود موقوفة على صنع الفضائل والكرامات له!! فتبارك الله أحسن الخالقين!!

ولقد قال ابن عرفة: المعروف بنفطويه إن أكثر فضائل الصحابة قد افتعلت في عهد بني أمية، إرغاماً لأنوف بني هاشم^(٢)! كما أن معاوية قد أمر الناس بوضع الحديث في الخلفاء الثلاثة كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وحسبنا ما ذكرناه هنا؛ فإن فيه مقنعاً وكفاية لكل من أراد الرشد والهداية.

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٢٢.

(٢) راجع النصائح الكافية ص ٧٤ وحياة الإمام الحسن ه للقرشي ج ٢ ص ١٤٨ والكنى والألقاب ج ٣ ص ٢٦٢ وفجر الاسلام ص ٢١٣.

الفصل الرابع:

في شعب أبي طالب

المقاطعة:

و «لما رأت قريش عزة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بمن معه، وعزة أصحابه في الحبشة، وفشو الاسلام في القبائل»^(١).

وأن جميع جهودها في محاربة الاسلام قد باءت بالفشل. حاولت أن تقوم بتجربة جديدة، وهي الحصار الاقتصادي والاجتماعي، ضد الهاشميين، وأبي طالب؛ فاما أن يرضخوا لمطالبها في تسليم محمد لها للقتل. وإما أن يتراجع محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه عن دعوته، وإما أن يموتوا جوعاً وذللاً، مع عدم ثبوت مسؤولية محددة على أحد في ذلك، يمكن أن تعجز عليهم حرباً أهلية، ربما لا يمكن لأحد التكهن بنتائجها، وعواقبها السيئة.

فكتبوا صحيفة تعاقدوا فيها على عدم الزواج والتزويج لبني هاشم، وبني المطلب، وأن لا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، وأن لا يجتمعوا معهم على أمر من الأمور، أو يسلموا لهم رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» ليقتلوه.

(١) سيرة مغلطاي ص ٢٣، وراجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٥، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٩٧، عن المواهب اللدنية.

١٩٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وقد وقع على هذه الصحيفة أربعون رجلاً من وجوه قريش، وختموها بخواتيمهم، وعلقت الوثيقة في الكعبة مدة (ويقال: إنهم خافوا عليها السرقة؛ فنقلوها إلى بيت أم أبي جهل)^(١)؛

وكان ذلك في سنة سبع من البعثة على أشهر الروايات. وقيل ست.

وأمر أبو طالب بني هاشم أن يدخلوا برسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» الشعب - الذي عُرف بشعب أبي طالب - ومعهم بنو المطلب بن عبد مناف، باستثناء أبي لهب لعنه الله وأخزاه^(٢). واستمروا فيه إلى السنة العاشرة.

ووضعت قريش عليهم الرقباء حتى لا يأتيهم أحد بالطعام.

وكانوا ينفقون من أموال خديجة، وأبي طالب، حتى نفدت، حتى اضطروا إلى أن يقتاتوا بورق الشجر. وكان صَبِيَّتُهُمْ يتضاغون جوعاً، ويسمعهم المشركون من وراء الشعب، ويتذاكرون ذلك فيما بينهم، فبعضهم يفرح، وبعضهم يتذم من ذلك. ويقولون: إنه ربما وجد فيهم من يتعاطف مع المسلمين، وكان هذا يصدر غالباً ممن يتصل بهم نسباً، كأبي العاص بن الربيع، وحكيم بن حزام وإن كنا نحن نشك في ذلك كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ولم يكونوا يجسرون على الخروج من شعب أبي طالب إلا في موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة، فكانوا يشتركون حينئذ ويبيعون ضمن ظروف صعبة جداً، حيث إن المشركين كانوا يلتقون

(١) هكذا جاء في بعض الروايات في البحار ج ١٩ ص ١٦ عن الخرائج والجرائح. ولا يهمنا تحقيق هذا الأمر كثيراً..

(٢) وقيل: إن أبا سفيان بن الحارث أيضاً لم يدخل الشعب معهم، ولكنه قول نادر. والاكثر على الاقتصار على أبي لهب لعنه الله... ولنا هنا في صدد تحقيق ذلك..

الفصل الرابع : في شعب ابي طالب ١٩٧

بكل من يقدم مكة أولاً، ويطمعونه بمبالغ خيالية ثمناً لسلعته، شرط أن لا يبيعها للمسلمين. وكان أبو لهب هو رائدهم في ذلك؛ فكان يوصي التجار بالمغالة عليهم حتى لا يدركوا معهم شيئاً، ويضمن لهم، ويعرضهم من ماله كل زيادة تبذل لهم. بل لقد كان المشركون يتهدون كل من يبيع المسلمين شيئاً بنهب أمواله، ويحذرون كل قادم إلى مكة من التعامل معهم.

والخلاصة: أن قريشاً قد قطعت عنهم الاسواق، فلا يتركون لهم طعاماً يقدم مكة، ولا بيعاً إلا بادرهم إليه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»^(١).

وقد استمرت هذه المحنة سنتين أو ثلاثاً. وكان علي أمير المؤمنين «عليه السلام» اثناءها يأتيهم بالطعام سرّاً من مكة، من حيث يمكن، ولو أنهم ظفروا به لم يبقوا عليه، كما يقول الاسكافي وغيره^(٢).

وكان أبو طالب رضوان الله تعالى عليه كثيراً ما يخاف على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» البيات؛ فاذا أخذ الناس مضاجعهم، اضطجع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» على فراشه، حتى يرى ذلك جميع من في شعب أبي طالب، فاذا نام الناس جاء واقامه، وأضجع ابنه علياً مكانه^(٣).

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٤.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٥٦.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٥٦ وج ١٤ ص ٦٤، الغدير ج ٧ ص ٣٥٧/٣٥٨ عن كتاب الحجة لابن معد.

وذكر ذلك ابن كثير في البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٤ من دون تصريح بالاسم. وتيسير المطالب ص ٤٩.

١٩٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وثمة ابيات شعر له رحمه الله مخاطباً بها ولده علياً بهذه المناسبة،
فلتراجع في مصادرها.

أموال خديجة (رض)، وسيف علي «عليه السلام»:

هنا سؤال مفاده:

إن من المعروف: أن الاسلام قد قام بسيف أمير المؤمنين «عليه السلام»، الذي قال فيه رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» - كما سيأتي في غزوة أحد وبدر:

لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار

وبأموال خديجة رحمها الله تعالى، التي أنفقتها في سبيل الله سبحانه فما معنى هذا الكلام وما الذي يرمي إليه؟! فهل معنى ذلك: أن خديجة كانت ترشو الناس من أجل أن يدخلوا في الاسلام؟

وهل يمكن العثور على مورد واحد من هذا القبيل في التاريخ؟!

ولعلك تقول: إن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يتألف كثيرين على الاسلام، فيعطيهام الأموال ترغيباً لهم في ذلك. وقضية غنائم حنين الآتية إن شاء الله أوضح دليل على ذلك، ولا يجهل أحد سهم المؤلف قلوبهم في الاسلام.

والجواب: أن هذا الذي ذُكرَ ليس معناه: أنهم كانوا يأخذون الرشوة على الاسلام، وإنما يريد الاسلام لهؤلاء أن يعيشوا في الاجواء الاسلامية، ويتفاعلوا معها، وينظروا لها نظرة سليمة، ومن دون وجود أية حواجز نفسية، أو سياسية، أو اجتماعية فكان هذا المال المعطى لهم يساعد على التغلب على تلك الحواجز الوهمية في اكثرها، ويجعلهم يعيشون في الاجواء والمناخات الاسلامية، ويتعرفون على خصائص

١٩٩ الفصل الرابع في شعب ابي طالب

الاسلام وأهدافه . ولتحصل لهم من ثم القناعات الوجدانية والفكرية بأحقية الاسلام ، وسمو أهدافه .

كما أن من هؤلاء من يرى : أن هذا الدين قد حرمة من المال والثروة والامتيازات التي يحبها ، فلماذا لا يدبر في الخفاء ما يزيح هذا الكابوس الخائق ، والمضر بمصالحه؟ فإذا أعطي المال ، وأفهم أن الاسلام ليس عدواً للمال : «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق»^(١) فإنه يمكن اقناعه حينئذ بأن هدف الاسلام ليس إلا التركيز على انسانية الانسان ، واعتبارها المقياس الحقيقي له ، لا المال ، ولا القوة ولا الجمال ، ولا الجاه ، ولا غير ذلك . وأنه يهدف إلى تنظيم حياة هذا الانسان في هذا الخط ، ليكون سعيداً في الدنيا والآخرة على حد سواء .

واما اموال خديجة ؛ فلم تكن تعطى كرشوة على الاسلام ، ولا كانت تنفق على المؤلفة قلوبهم . وانما كانت تسد رمق ذلك المسلم ، الذي يعاني اعظم المشاق والآلام ، في سبيل اسلامه وعقيدته ، هذا المسلم الذي لم تتورع قريش عن محاربته بكل ما تملكه من اسلحة لا انسانية ولا اخلاقية ، حتى بالفقر والجوع ، فكانت تلك الاموال تسد رمق من يتعرض للاخطار الكبيرة ، وتخدم الاسلام عن هذا الطريق . وهذا معنى قولهم : ان الإسلام قام باموال خديجة .

وملاحظة لا بد منها ، وهي ان اموال خديجة التي أنفقت في المقاطعة ، كانت في غالبها من النوع الذي يمكن الانتفاع به في سد رمق الجائع . وكسوة العاري ، واما ما سواه ؛ فلربما لم يتعرض لذلك ؛ بسبب عدم القدرة على البيع والشراء في غالب الأحيان .

(١) الأعراف الآية/٣٢ .

٢٠٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ونشير أخيراً، إلى أن مكة مهما عظمت الثروة فيها، فإنها لا تخرج عن كونها محدودة الامكانيات، تبعاً لموقعها، وحجمها؛ لأنها لم تكن مدينة كبيرة جداً، بل كانت بلداً كبيراً بالنسبة إلى القرية، ولذا جاء التعبير عنها في القرآن بـ «ام القرى» وثروة في بلد كهذا تبقى دائماً محدودة، تبعاً لمحدوديته، وقدراته، وامكانياته.

حكيم بن حزام وعواطفه تجاه المسلمين:

قد تقدم انهم يذكرون حكيم بن حزام في جملة من كان يرسل الطعام سرّاً إلى المسلمين في شعب أبي طالب روى ذلك ابن اسحاق وغيره. (١).

ولكننا بدورنا نشك في ذلك، فإن حكيم بن حزام كان من القوم الذين انتدبتهم قريش لقتل رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» ليلة الغار، وباتوا على باب النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يرصدونه بانتظار ساعة الصفر (٢) وقد ردّ الله كيدهم إلى نحورهم.

أضف إلى ذلك: أنه كان يحتكر جميع الطعام الذي كان يأتي إلى المدينة على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» (٣). وكان من المؤلفة قلوبهم (٤).

ومن كانت له نفسية كهذه، فإنه يصعب عليه جود كهذا، خصوصاً

(١) راجع: سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٩ وغير ذلك من كتب السيرة.

(٢) البحار ج ١٩ ص ٣١ وجمع البيان ج ٤ ص ٥٣٧.

(٣) دعائم الاسلام ج ٢ ص ٣٥ والتوحيد للصدوق ص ٣٨٩ والوسائل ج ١٢ ص ٣١٦ والكافي ج ٥ ص ١٦٥ والتهذيب للطوسي ج ٧ ص ١٦٠ ومن لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ٢٦٦ ط جماعة المدرسين والإستبصار ج ٣ ص ١٥.

(٤) نسب قريش ص ٢٣١.

الفصل الرابع : في شعب ابي طالب ٢٠١

إذا كان معه تعريض نفسه لأخطار العداء مع قريش . إلا أن يكون يمارس ذلك بروحه الاحتكارية التجارية ؛ فيبيع المسلمين الطعام باغلى الاثمان . فيعرض نفسه لهذه الاخطار حباً بالمال .

ويكون حبه للمال ، وتفانيه في سبيله هو الذي يسهل عليه كل عسير ، ويذل له ركوب كل صعب وخطير .

اضف الى ذلك : أنه سوف يأتي حين الكلام على اسلام ابي طالب حين الكلام على ردّه «صلى الله عليه وآله وسلم» هدية ملاعب الاسنة : أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، قد ردّ هديته وهدية غيره ، لأنها هدية من مشرك .

فلا يعقل : أن يقبلها الآن ، ويردّها بعد ذلك . وإلا لاعترضوا عليه بقبوله لها قبل الآن .

إلا ان يدعى : ان ابن حزام إنما كان يعطي الأطفال والنساء ، وغيرهم من بني هاشم المحصورين في الشعب ، وهؤلاء كانوا يقبلون ذلك منه ، وإن كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يكن يقبل .

فتبقى ملاحظة : انه قد يكون انما ياتيهم بالطعام لبيعهم إياه باغلى الاثمان لا دافع لها .

ومن ذلك كله يظهر أيضاً : أنه لا يمكن الإطمئنان ، ولا قبول قولهم : إن أبا العاص بن الربيع كان يفعل مثل ذلك آنثذ .

ونحن لا نستبعد : أن يكون للزبيرين يد في تسجيل هذه الفضيلة لحكيم بن حزام ، لاسيما وأنه كان ممن تلكأ عن بيعة أمير المؤمنين «عليه السلام» ، وكان عثمانياً متصلياً^(١) . وقد أشرنا إلى ذلك حين الكلام حول

(١) قاموس الرجال ج ٣ ص ٣٨٧ .

٢٠٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ولادة أمير المؤمنين «عليه السلام» في الكعبة، وحين الكلام عن افتعال
الأكاذيب في موضوع الوحي وكيفياته.

انشقاق القمر:

وفي السنة الثامنة من البعثة، حينما كان المسلمون محصورين في
شعب أبي طالب، كانت قضية انشقاق القمر^(١).

وقد جاء في الروايات الكثيرة: أن قريشاً سألوا رسول الله «صلى الله
عليه وآله وسلم» أن يريهم آية، فدعا الله فانشق القمر نصفين حتى نظروا
إليه ثم التأم؛ فقالوا: هذا سحر مستمر، فأنزل الله تعالى: اقتربت الساعة
وانشق القمر، وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر^(٢).

وفي رواية: أنهم قالوا: انتظروا ما يأتيكم به السفار؛ فان محمداً لا
يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فجاء السفار، فسألوهم، فقالوا: نعم
رأيناه، فأنزل الله: اقتربت الساعة وانشق القمر^(٣).

ونقل عن السيد الشريف في شرح المواقف، وعن ابن السبكي في
شرح المختصر: أن الحديث متواتر لا يمتري في تواتره عند أهل
السنة^(٤).

وأما عند غيرهم، فيقول العلامة البحاث السيد الطباطبائي إيداه
الله: «ورد انشقاق القمر لرسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» في
روايات الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيراً، وقد تسلمه

(١) تفسير الميزان ج ١٩ ص ٦٢ و ٦٤.

(٢) سورة القمر/ ٢١.

(٣) الدر المنثور ج ٦ ص ١٣٣ عن ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبي نعيم،
والبيهقي في دلائلهم، ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٢٢.

(٤) تفسير الميزان ج ١٩ ص ٦٠.

الفصل الرابع : في شعب ابي طالب ٢٠٣

محدثوهم ، والعلماء من غير توقف^(١)»

ولكن على أية حال . . لا يمكن أن تعتبر هذه المسألة من ضروريات الدين ، كما اشار اليه بعض الاعلام^(٢).

شبهة، وحلها:

يقول العلامة الطباطبائي: «واعترض عليها: بأن صدور المعجزة منه «صلى الله عليه وآله وسلم» باقتراح من الناس، ينافي قوله تعالى: وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً»^(٣).

فمفاد هذه الآية، إما أنا لا نرسل بالآيات إلى هذه الأمة أصلاً، لأن الأمم السابقة كذبوا بها، وهؤلاء يماثلونهم في طباعهم؛ فيكذبون بها، ولا فائدة في الارسال مع عدم ترتب الأثر عليه. أو المفاد؛ أنا لا نرسل بها، لأننا أرسلنا إلى أوليهم فكذبوا بها؛ فعذبوا بها، واهلكوا. ولو أرسلنا إلى هؤلاء لكذبوا بها، وعذبوا عذاب الاستئصال، لكننا لا نريد أن نعاجلهم بالعذاب. وعلى أي حال لا يرسل بالآيات إلى هذه الأمة، كما كانت ترسل إلى الأمم الدارجة.

نعم، هذا في الآيات المرسلة باقتراح الناس، دون الآيات التي تؤيد بها الرسالة، كالقرآن المؤيد لرسالة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وكآيتي العصا، واليد لموسى «عليه السلام»، وآية احياء الموتى وغيرها لعيسى «عليه السلام»، وكذا الآيات النازلة لطفاً منه سبحانه،

(١) تفسير الميزان ج ١٩ ص ٦١ وراجع باب المعجزات السماوية في البحار، ج ١٧ ص ٣٤٨ - ٣٥٩.

(٢) راجع: هم بايد بدانند (فارسي) ص ٧٥.

(٣) الاسراء/ ٥٩.

٢٠٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

كالخوارق الصادرة عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، لا عن اقتراح منهم الخ .

ثم أجاب أيده الله بما ملخصه : أن تكذيبهم بآية انشقاق القمر كان يستدعي العذاب ، لأنها آية اقتراحية منهم ، وما كان الله ليهلك جميع من أرسل نبيّه إليهم ، وهم أهل الارض جميعاً إلا بعد إتمام الحجة عليهم ، ولم تتم الحجة بعد على جميع الناس ثم كذبوه ، ثم طلبوا الآية . بل تمت الحجة على بعض الأفراد من الذين كانوا يعيشون في مكة ، لأن هذه الآية كانت قبل الهجرة بخمس سنين هذا بالإضافة إلى أنه ما كان الله ليهلك جميع أهل مكة ومن حولها ، لأن فيهم جمعاً كبيراً من المسلمين ، قال تعالى : ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم ، فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ، ليدخل الله في رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾^(١) .

ولم يزيل المشركون عن المسلمين ، ولا امتازوا عنهم .

كما أنه إذا كان الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بينهم فانه لا يعذبهم . قال تعالى : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾^(٢) وما كان الله لينجي المؤمنين ، ويهلك الكفار بعد ان آمن جمع كثير منهم فيما بين سنة ثمان من البعثة ، وثمان من الهجرة ، ثم اسلم عامتهم يوم الفتح . والاسلام يكتفي فيه بظاهره .

وأيضاً ، فان عامة أهل مكة ومن حولها لم يكونوا أهل جحود وعناد ، وإنما كان ذلك في عظمائهم وصناديدهم ، الذين كانوا يستهزؤون به «صلى الله عليه وآله وسلم» ، ويعذبون المؤمنين .

(١) الفتح / ٢٥ .

(٢) الأنفال / ٣٣ .

الفصل الرابع : في شعب ابي طالب ٢٠٥

والآيات التي تبين أنهم لكونهم يصدون على المسجد الحرام ،
ولكونهم يستفزون «صلى الله عليه وآله وسلم» من الارض ليخرجوه منها .
سوف ينشأ عنه أنهم لا يلبثون خلافه إلا قليلا ، وليذوقوا العذاب بما كانوا
يكفرون^(١) - هذه الآيات - قد تحقق مضمونها بما أصابهم يوم بدر من
القتل الذريع .

فقوله تعالى : ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات الخ . .﴾ إنما يفيد
الامساك عن إرسال الآيات ما دام النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فيهم ،
واما إرسالها وتأخير العذاب إلى حين خروجه من بينهم فلا دلالة فيه عليه .

وقوله تعالى ﴿وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض
ينبوعاً﴾ - إلى أن قال - : ﴿قل: سبحان ربي هل كنت إلا بشراً
رسولاً^(٢) . لا يدل على نفي تأييد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»
بالآيات المعجزة ، وانكار نزولها من الاساس . وإلا فان جميع الانبياء كانوا
بشراً . ومعنى الآية : أنه من حيث هو بشر فانه لا يقدر على ذلك . وانما
الأمر إلى الله تعالى فهو الذي يأتي بالآيات في الحقيقة^(٣) .

ويقول البعض : إن آية : ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ لعلها
ناظرة إلى أن دعوة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ليست معتمدة على
الآيات ، التي هي من قبيل ناقة ثمود ، وآيات موسى «عليه السلام» ، بل
هي تعتمد بالدرجة الاولى على الاقناع ، واقامة الحجة العقلية كدعوة
ابراهيم ، وذلك لا ينافي صدور بعض الآيات في الموارد التي لا تنفع
فيها الحجج العقلية ، والبراهين القطعية .

(١) راجع الاسراء/٧٦ والانفال/٣٥ .

(٢) الاسراء/٩٣ .

(٣) راجع فيما تقدم : تفسير الميزان ج ١٩ ص ٦٠ - ٦٤ .

٢٠٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

انشقاق القمر، الحدث الكبير

وأوردوا على انشقاق القمر، بأنه لو انشق - كما يقال - لراه جميع الناس، ولضبطه أهل الارصاد في الغرب والشرق، لكونه من اعجب الآيات السماوية، والدواعي متوفرة على استماعه ونقله.

وأجيب:

أولاً: إن من الممكن أن يغفل عنه، فلا دليل على كون كل حادث أرضي أو سماوي معلوماً للناس، محفوظاً عندهم، يرثه خلف عن سلف^(١).

وأوضح ذلك بعض الأعلام بما حصله:

إنه لا بد من ملاحظة الأمور التالية

١ - إن هذا الانشقاق قد حصل في نصف الكرة الأرضية، حيث يوجد الليل دون النصف الآخر، حيث يوجد النهار.

٢ - وفي هذا النصف لا يلتفت أكثر الناس إلى ما يحصل في الاجرام السماوية إذا كان ذلك بعد نصف الليل، حيث الكل نائمون، فإنهم جميعاً لا يلتفتون إلى ذلك.

٣ - ولربما يكون في بعض المناطق سحاب يمنع من رؤية القمر.

٤ - والحوادث السماوية إنما تلفت النظر لو كانت مصحوبة بصوت كالرعد، أو بأثر غير عادي كقلة نور الشمس في الكسوف، إذا كان لمدة طويلة نسبياً.

٥ - هذا كله عدا عن أن السابقين لم يكن لهم اهتمام كبير بالسماء ومراقبة ما يحدث لاجرامها.

(١) تفسير الميزان ج ١٩ ص ٦٤.

الفصل الرابع : في شعب ابي طالب ٢٠٧

٦ - ولم يكن ثمة وسائل إعلام تنقل الخبر من أقصى الأرض إلى أقصاها بسرعة مذهلة؛ لتتوجه الانظار إلى ما يحدث.

٧ - والتاريخ الموجود بين أيدينا ناقص جداً، فكم كان في تلك المئات والآلاف من السنين الخالية من كوارث وزلازل، وسيول عظيمة أهلكت طوائف وأممًا، وليس لها مع ذلك في التاريخ أثر يذكر. بل إن زرادشت وقد ظهر في دولة عظيمة، وله أثر كبير على الشعوب على مدى التاريخ، لا يُعرف حتى أين ولد ومات ودفن، بل ويشك البعض في كونه شخصية حقيقية، أو وهمية.

وبعد ما تقدم: يتضح أنه لا يجب أن يعرف الناس بانشقاق القمر، ولا أن يضبطه التاريخ بشكل واضح^(١) كما هو معلوم.

وثانياً: لم يكن في المنطقة العربية وغيرها مرصد للأوضاع السماوية، وإنما كانت المراصد موجودة في المشرق والمغرب لدى الروم واليونان، وغيرهما. ولم يثبت وجود مرصد في هذا الوقت.

على أن بلاد الغرب، الذين كانوا معتنين بهذا الشأن بينها وبين مكة من اختلاف الأفق ما يوجب فصلاً زمانياً معتداً به. وقد كان القمر على ما في بعض الروايات بداراً قد انشق حين طلوعه، ودام مدة يسيرة، ثم التأم، فيقع طلوعه في بلاد المغرب وهو ملتئم ثانياً^(٢).

امكان الانشقاق والالتيام علمياً:

ويبقى هنا سؤال. وهو أنه هل يمكن علمياً الانشقاق في الاجرام السماوية؟، وإذا أمكن الانشقاق، فانما يمكن ببطلان التجاذب بين الشققتين حينئذ؛ فيستحيل الالتيام بعد الانشقاق.

(١) همه بايد بدانند (فارسي) ص ٩٤ للعلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

(٢) تفسير الميزان ج ١٩ ص ٦٤/٦٥.

٢٠٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وأجيب عنه : بان خرق العادة بقدرته الله سبحانه ليس محالاً . كما أن العلماء يقولون : إنه قد حدثت انشقاقات كثيرة في الأجرام السماوية ؛ بسبب عوامل خاصة ، ومن الأمثلة على ذلك :

١ - ان ثمة حوالي خمسة آلاف من القطع الكبيرة والصغيرة التي تدور حول الشمس ويعتقد العلماء انها بقايا احدى السيارات التي كانت بين مداري المريخ ، والمشتري ، ثم انفجرت لاسباب مجهولة وتحولت إلى قطع متفاوتة الاحجام في مدارات حول الشمس .

٢ - ويقولون : إن الشهب هي أحجار صغيرة تسير بسرعة مذهلة في مدار حول الشمس . وربما تتقاطع مع الارض أحياناً ، فتجذبها الارض ، فتصطدم بالجو الارضي فتشتعل ثم تتلاشى . ويقول العلماء : انها بقايا نجوم انفجرت وتشققت بهذا النحو .

٣ - والمنظومة الشمسية أيضاً يقال - حسب نظرية لابلاس - : إنها كانت في الاصل قطعة واحدة ، ثم انفجرت ، لسبب غير معلوم فصارت على هذا النحو .

فلماذا لا ينشق القمر بسبب قاهر وهو القدرة الالهية ، حيث إن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد دعا الله فاستجاب له . ؟ ولم يدع أحد أنه ينشق بلا سبب أصلاً .

وأما عودته إلى الالتيام بعد ذلك . فقد قال العلماء : إن كل جرم كبير له جاذبية . ولذلك نجد أن الشمس كثيراً ما تجذب بعض القطعات التي تدور حولها .

فتتحول تلك القطع بفعل الصدمة والاحتكاك إلى لهب متلاشي . اذن ، فما دام كل من شقي القمر قريباً إلى الآخر ، وبعد رفع تأثير القوة المانعة من تأثير الجاذبية ، فلماذا لا يشد كل من النصفين النصف الآخر

الفصل الرابع : في شعب ابي طالب ٢٠٩

إلى نفسه ، ليعودا كما كانا ، وأي محذور عقلي في ذلك^(١) .

وقد أوجز العلامة الطباطبائي الاجابة عن سؤال امتناع الالتيام لعدم الجاذبية ، فقال : إن الاستحالة العقلية ممنوعة ، والاستحالة العادية ، بمعنى اختراق العادة ، لومنت عن الالتيام بعد الانشقاق ، لمنعت أولاً عن الانشقاق بعد الالتيام ولم تمنع . وأصل الكلام مبني على خرق العادة^(٢) .

دلالة الآية القرآنية على ذلك:

ويحتمل البعض : أن يكون قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ناظراً إلى المستقبل ، وأنه من أشراط الساعة ، كتكوير الشمس ، وانكدار النجوم .

وأجيب عنه بما حاصله :

أولاً : إن ظاهر قوله تعالى : ﴿ وان يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر ﴾ هو أن جماعة من مخالفي النبي لا يؤمنون بالآيات وكلما جاءتهم آية يزيد عنادهم واستكبارهم ، ويعتبرونها من السحر . مما يدل على أنه قد جرى له « صلى الله عليه وآله وسلم » معهم في قصة انشقاق القمر مثل ذلك .

ثانياً : إن جملة « انشق » فعل ماض ، ولا يراد الاستقبال من الفعل الماضي إلا بقرينة ، وهي غير موجودة . بل الموجود خلافه ؛ فقد قال الرازي : « المفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق ، ودلت الاخبار الصحاح عليه »^(٣) - وإن كان الطبرسي وابن شهر آشوب يستثيان :

(١) كتاب : همه بايد بدانند ص ٨٤ - ٩٠ .

(٢) تفسير الميزان ج ١٩ - ٦٥ .

(٣) التفسير الكبير للرازي ج ٢٩ ص ٢٨ .

٢١٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

عطاء، والحسن والبلخي^(١). ثم قال: الطبرسي: وهذا لا يصح، لأن المسلمين أجمعوا على ذلك، فلا يعتد بخلاف من خالف فيه^(٢).

وان قيل: إن اقتران جملة: اقتربت الساعة: بجملة: وانشق القمر، يوحى بأن زمانهما واحد.

فالجواب هو: ان كثيراً من الآيات تؤكد على أن الساعة قد قرب وقتها، فلم الغفلة؟، قال تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم، وهم في غفلة معرضون﴾^(٣). وينقل عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» انه قال: «بعثت انا والساعة كهاتين»^(٤) وأشار الى اصبعيه. «والظاهر: أن ذلك بملاحظة مجموع عمر الدنيا الطويل جداً، حتى ليصح أن يقال: إن هذا الفاصل الزماني بين بعثته «صلى الله عليه وآله وسلم» وقيام الساعة ليس بشيء».

وبعد هذا. . فان مفاد الآية يكون: ان الساعة قد اقتربت، وهذه الآية المعجزة قد ظهرت للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم». ولكن هؤلاء المشركين المستكبرين لا يؤمنون، ولا يصدقون. بل يقولون: سحر مستمر^(٥).

ولكن بعض المحققين يقول: إن قوله تعالى: ﴿وإن يروا آية الخ. .﴾ جملة شرطية، لا دلالة فيها على وقوع ذلك. وجملة ﴿انشق القمر﴾ مساقها مساق قوله تعالى: أتى أمر الله؛ فلا تستعجلوه، فانها جملة

(١) مجمع البيان ج ٩ ص ١٨٦ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٢٢.

(٢) مجمع البيان ج ٩ ص ١٨٦.

(٣) الأنبياء/١.

(٤) نقله في مفتاح كنوز السنة ص ٢٢٧ عن البخاري، ومسلم، وابن ماجه والطيالسي، وأحمد، والترمذي والدارمي، فراجع.

(٥) راجع في كل ما ذكرناه في دلالة الآية كتاب: همه بايد بدانند (فارسي) ص ٧٦ - ٨٠.

الفصل الرابع : في شعب ابي طالب ٢١١

فعلية ماضوية . ولكن الأمر لم يأت بعد بقرينة قوله : ﴿فلا تستعجلوه﴾ . وكذا الحال في قوله تعالى : ﴿وانشق القمر﴾ بملاحظة قوله تعالى : ﴿وإن يروا إلخ﴾ . والمراد بيان حالهم لو وقع لهم أمر كهذا . وأما الاجماع الذي أدعاه الطبرسي ؛ فلا حجية فيه ، إذ من المحتمل أن يكون منشؤه الفهم الخاطيء للآية . انتهى كلامه .

ونقول نحن : إن هذا الكلام له وجه ، لو لم يكن لدينا أخبار صحيحة تدل على وقوع انشقاق القمر .

الاساطير:

هذا ، وقد لعبت الأهواء والاساطير في قضية شق القمر ، حتى لقد شاع على ألسنة الناس : أن أحد شقي القمر قد مرَّ من كُم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» . فيقول العلامة ناصر مكارم : إن هذا الكلام ليس له في كتب الحديث والتفسير عين ولا أثر ، سواء عند السنة ، أو عند الشيعة .

وثمة تفاصيل وخصوصيات تذكر في بعض الروايات لا نرى في تحقيق الحق فيها كبير نفع ، ولا جليل أثر ؛ ولذا فنحن نعرض عنها إلى ما هو أهم ، ونفقه أعم .

نقض الصحيفة:

وبعد ثلاث سنوات تقريباً من حصر المسلمين في شعب أبي طالب ، أخبر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عمه أبا طالب بأن الإرضة قد اكلت كل ما في صحيفتهم من ظلم وقطيعة رحم ولم يبق فيها إلا ما كان اسماً لله (وفي نص آخر: انها قد اكلت كل اسم لله تعالى فيها ، ولم تَبْقَ إلا كل ظلم وشر ، وقطيعة رحم .^(١) .

(١) ولربما يقال : إن استمرار قریش على عدايته «صلى الله عليه وآله»، إلى حين نقض =

٢١٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

فخرج أبو طالب من شعبه، ومعه بنو هاشم إلى قريش، فقال المشركون: الجوع أخرجهم.

وقالوا له: يا أبا طالب، قد آن لك أن تصالح قومك. قال: قد جئكم بخير، ابعثوا إلى صحيفتكم، لعله أن يكون بيننا وبينكم صلح فيها.

فبعثوا، فأتوا بها. فلما وضعت وعليها أختامهم. قال لهم أبو طالب: هل تنكرون منها شيئاً؟ قالوا: لا.

قال: إن ابن أخي حدثني ولم يكذبني قط: أن الله قد بعث على هذه الصحيفة الأرضية، فأكلت كل قطعة وإثم، وتركت كل اسم هو لله؛ فان كان صادقاً أقلعتكم عن ظلمنا، وإن يكن كاذباً ندفعه إليكم فقتلتموه.

فصاح الناس: أنصفتنا يا أبا طالب.

ففتحت، ثم أخرجت، فإذا هي كما قال «صلى الله عليه وآله وسلم»: فكبر المسلمون، وامتنعت وجوه المشركين.

فقال أبو طالب: أتبين لكم: أينما أولى بالسحر والكهانة؟

فأسلم يومئذ عالم من الناس.

ولكن المشركين لم يقنعوا بذلك، بل استمروا على العمل بمضمون

= الصحيفة، يدل على أن الأرضية إنما تحت اسم الله تعالى. وابتقت قطعة الرحم وسائر المواد التي اتفقوا عليها. وقد استبعد ذلك بأن أكل الأرضية لأسم الله بعيد. فلعلهم التزموا بمضمونها وإن كانت قد حيت، أو أنهم أعادوا كتابتها.

ولربما يرد على ذلك بأن الأرضية إنما تحت اسم الله عنها تنزيهاً له عن أن يكون في صحيفة ظالمة كهذه وهذا إعجاز مطلوب وراجح من أجل اظهار الحق، وليس في ذلك إهانة.

الفصل الرابع: في شعب أبي طالب ٢١٣

الصحيفة، حتى قام جماعة منهم بالعمل على نقضها، ويذكرون منهم:
هشام بن عمرو بن ربيعة، وزهير بن أمية بن المغيرة، والمطعم بن
عدي، وأبا البخترى بن هشام، وزمعة بن الأسود، وكلهم له رحم ببني
هاشم والمطلب. وتكلموا في نقضها؛ فعارضهم أبو جهل فلم يلتفتوا
إلى معارضته، ومزقت الصحيفة، وبطل مفعولها.
وخرج الهاشميون حينئذٍ من شعب أبي طالب رضوان الله تعالى
عليه^(١).

حنكة أبي طالب، وإيمانه:

إن المطالع لأحداث ما قبل الهجرة النبوية الشريفة ليجد عشرات
الشواهد الدالة على حنكة أبي طالب «عليه السلام».

وخير شاهد نسوقه الآن على ذلك، هو ما ذكرناه آنفاً، حيث رايانه
يطلب منهم أن يحضروا صحيفتهم، ويمزج ذلك بالتعريض بإمكان أن
يكون ثمة صلح في ما بينهم وبينه. وما ذلك إلا من أجل أن لا تفتح
الصحيفة إلا علناً، يراها كل أحد، وأيضاً، حتى يهينهم للمفاجأة الكبرى،
ويمهد السبيل أمام طرح الخيار المنطقي عليهم، ليسهل عليهم تقبله، ثم
الالتزام به.

ولا سيما إذا استطاع أن ينتزع منهم وعداً بما يريد، ويضعهم أمام
شرف الكلمة، وعلى محك قواعد النبل واحترام الذات، حسب المعايير
التي كانوا يتعاملون على أساسها. . وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد،

(١) راجع فيما تقدم: السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٤٤ والسيرة النبوية لابن هشام
ج ٢ ص ١٦ ودلائل النبوة ط دار الكتب ج ٢ ص ٣١٢ والكامل في التاريخ ج ٢
ص ٨٨ والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٣٧ و ١٣٨ ط دار المعرفة وتاريخ
اليعقوبي ج ٢ ص ٣١ والبداية والنهاية ج ٣ ص ٨٥ و ٨٦.

٢١٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

حتى ليصيح الناس: أنصفتنا يا أبا طالب.

ثم تبرز لنا من النصوص المتقدمة حقيقة أخرى، لها أهميتها وانعكاساتها، وهي تدل مدى ثقة أبي طالب بصدق النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»، وبسداد أمره، وواقعية ما جاء به. حتى لقد كان يتألم جداً من اتهام ابن أخيه بالسحر والكهانة، ويعتبر ذلك افتراءً ظاهراً، ويغتنم الفرصة السانحة للتعبير عن خطئ رأيهم، وسفه أحلامهم، فيقول لهم: «أتبين لكم: أينما أولى بالسحر والكهانة؟». وكانت النتيجة: أن اسلم بسبب هذه المعجزة يومئذٍ عالم من الناس.

القبلية وأثارها:

وقد لاحظنا فيما سبق: أن القبلية قد ساعدت إلى حد ما في منع الكثير من الأحداث التي تؤثر مستقبلياً على الدعوة ونجاحها. وليكن ما قام به هؤلاء الذين عملوا على نقض الصحيفة هو أحد الشواهد على ذلك. ولكن الذي يلفت نظرنا هو أننا لا نرى أبا لهب فيمن قام في ذلك أو ساعد عليه.

كما أننا لا نجد أثراً لابن عم خديجة حكيم بن حزام، الذي تدّعي الروايات!! أنه كان يرسل الطعام لهم وهم محصورون في الشعب.

وأيضاً لا نجد مكاناً لأبي العاص بن الربيع الأموي (١١)، الذي سوف يأتي حين الكلام على أسطورة تزويج علي^(١) بنت أبي جهل أنهم يدّعون (١١): أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أثنى على صهره!! تعريضاً بعلي الذي لم يكن يستحق إلا التقريع والتعريض (١١). علي الذي كان يخاطر بنفسه، ويأتي لهم بالطعام من مكة، ولو وجدوه لقتلوه، كما تقدم.

الفصل الرابع : في شعب ابي طالب ٢١٥

ما بعد نقض الصحيفة:

واستمر الرسول الاكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» يعمل على نشر دينه، وأداء رسالته، واستمرت قريش تضع في طريقه العراقيل، وتحاول أن تمنع الناس من الاجتماع به، والاستماع اليه، بكل الوسائل التي تقع تحت اختيارها.

والنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يتحمل ويصبر. لا يكل ولا يمل. ولم تغلح قريش في ذلك، ولا وصلت إلى نتيجة.

والأحداث التي في هذا السبيل كثيرة، لو أردنا استقصاءها لطال بنا المقام. ولا محيص لنا عن تجاوزها إلى غيرها، وإن كان يعز ذلك علينا.

وفد من الحبشة:

وقدم على النبي الأعظم الاكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» أول وفد من خارج مكة، وبالذات، من الحبشة، ومن النصارى، وقيل: من نجران. وكان يتألف - على قول ابن اسحاق وغيره - من عشرين رجلاً، وقيل غير ذلك. وكان على رأس الوفد جعفر بن أبي طالب رحمه الله^(١). فوجدوا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في المسجد؛ فكلّموه، وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، وبعد دعوة الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» لهم إلى الاسلام آمنوا وصدقوا.

فلما قاموا، اعترضهم أبو جهل، وعنفهم على اسلامهم، وتركهم دينهم؛ فقالوا: سلام عليكم، لانجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما انتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً؛ فأنزل الله تعالى: «الذين آتيناهم الكتاب من

(١) كذا قال البوطي في فقه السيرة ص ١٢٦ ومجمع البيان ج ٧ ص ٢٥٨ ويفهم منه أنهم قدموا مع جعفر حين قدومه نهائياً عام خيبر.

٢١٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

قبله، هم به يؤمنون، إلى قوله تعالى: إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين^(١).

وكانت هذه - بطبيعة الحال - ضربة قاسية لقريش وكبريائها، وخططها واهدافها. وخصوصاً إذا كان ذلك الوفد قد جاء من الحبشة، وبالأخص بقيادة جعفر «عليه السلام»؛ فان ذلك يعني: أن الدعوة قد بدأت تأخذ طريقها إلى القلوب في مناطق لا تخضع لقريش، وسلطانها، ونفوذها.

كما أنه إنذار لها بلزوم التحرك بسرعة قبل أن يفوت الاوان، ولكن كيف؟ وأنى؟. وهذا أبو طالب، ومعه الهاشميون والمطلبليون يمنعون محمداً ويحوظونه. فلا بد إذن من الانتظار.

من مواقف أبي طالب:

وكان أبو طالب شيخ الأبطح «عليه السلام» هو الذي حامى وناصر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وحذب عليه منذ طفولته، وحتى الآن: فقد نصره بيده ولسانه، وواجه المصاعب الكبيرة، والمشاق العظيمة، في سبيل الدفع عنه، والذود عن دينه ورسالته، واعطائها الفرصة للتوسع والانتشار، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

وهو أيضاً الذي كان يقدمه على أولاده جميعاً، وقد ارجعه بنفسه من بصرى إلى مكة عندما حذره بحيراً من اليهود عليه «صلى الله عليه وآله وسلم».

نعم، وهو الذي رضي بعداء قريش له، وبمعاناة الجوع والفقر،

(١) الآية في سورة القصص من آية ٥٢ حتى آية ٥٥، وراجع الحديث في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢، وتفسير ابن كثير، والقرطبي، والنیشابوري في تفسير الآيات، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٨٢.

الفصل الرابع : في شعب ابي طالب ٢١٧

والنبذ الاجتماعي، ورأى الاطفال يتضاغون جوعاً، حتى اقتاتوا ورق الشجر، بل لقد عبّر صراحة: عن انه على استعداد لان يخوض حرباً طاحنة، تأكل الاخضر واليابس، ولا يسلم محمداً لهم، ولا يمنعه من الدعوة الى الله، بل هو لا يطلب منه ذلك على الأقل.

وهو الذي يقف ذلك الموقف العظيم من جبابرة قريش وفراعنتها، حينما جاءه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» - وقد القت عليه قريش سلا ناقة - فأخذ رحمه الله السيف، وأمر حمزة بان يأخذ السلا، وتوجه الى القوم، فلما رأوه مقبلاً عرفوا الشر في وجهه، ثم أمر حمزة ان يُلطِّخ سبأهم، واحداً واحداً، ففعل. (١)

وفي نص آخر: انه نادى قومه، وأمرهم بان يأخذوا سلاحهم؛ فلما رآه المشركون ارادوا التفرق؛ فقال لهم: «رب البنية، لا يقوم منكم احد الا جللته بالسيف، ثم وجأ أنف من فعل بالنبي ذلك حتى ادمأها - وفاعل ذلك هو ابن الزبعرى - وأمر بالفرت والدم على لحاهم. (٢)

وفي الشعب كان يحرس النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بنفسه وينقله من مكان إلى آخر. ويجعل ولده علياً «عليه السلام» في موضع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، حتى اذا كان امر اصاب ولده دونه وقد خطب رحمه الله في هذه المناسبة علياً «عليه السلام» بأبيات معبرة،

(١) الكافي نشر مكتبة الصدوق ج ١ ص ٤٤٩ ومنية الراغب ص ٧٥ وراجع السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٩١ و ٢٩٢ والسيرة النبوية لدحلان مطبوع بهامش الحلبية ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٨ و ٢٣١ والبحار ج ١٨ ص ٢٠٩.

(٢) راجع: الغدير ج ٧ ص ٣٨٨ و ٣٥٩ وج ٨ ص ٣ - ٤ وابو طالب مؤمن قريش ص ٧٣ كلاهما عن العديد من المصادر وثمرات الأوراق ص ٢٨٥ / ٢٨٦ ونزهة المجالس ج ٢ ص ١٢٢ والجامع لاحكام القرآن ج ٦ ص ٤٠٥، ٤٠٦ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٤/٢٥.

٢١٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وأجابه علي «عليه السلام» بمثلها^(١) فلتراجع .

وكان يدفع قريشا عنه باللين تارة، وبالشدة أخرى . وينظم الشعر السياسي، ليثير العواطف، ويدفع النوازل، ويهيمء الاجواء لاعلاء كلمة الله، ونشر دينه، وحماية اتباعه .

وقد افتقد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مرة «فلم يجده؛ فجمع الهاشميين، وسلحهم، واراد ان يجعل كل واحد منهم الى جانب عظيم من عظماء قريش ليفتك به، لو ثبت ان محمداً اصابه شر.»^(٢)

كل ذلك في سبيل الدفع عن الرسول الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» ونصر دينه، واعلاء كلمته، ورفع شأنه .

وواضح : ان الالمام بكل مواقف ابي طالب، وتضحياته الجسام يحتاج الى وقت طويل، وجهد مستقل ونحن نكتفي بهذه الاشارة، ونعترف اننا لم نقض حقه كما ينبغي (وذلك من اجل ان نوّفر الفرصة لبحوث أخرى في السيرة النبوية الشريفة .

مع تضحيات أبي طالب رضوان الله عليه:

مما تقدم يظهر ان أبا طالب، شيخ الأبطح، كان على استعداد لأن :

١ - يتخلى حتى عن مكانته في قومه، إلى بديل آخر هو في الاتجاه

-
- (١) المناقب لابن شهر اشوب ج ١ ص ٦٤/٦٥ وأسنى المطالب ص ٢١ ولم يصرح بإسم (علي) وكذا في السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٤٢ وراجع البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٤٤ ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٢ ص ٣١٢ وتاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٤٠/١٤١ والغدير ج ٧ ص ٣٦٣ و ٣٥٧ و ٣٥٨ وج ٨ ص ٣ و ٤ وابو طالب مؤمن قريش ص ١٩٤ .
- (٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦ . ابو طالب مؤمن قريش ص ١٧١ ومنية الراغب ص ٧٦/٧٥ والغدير ج ٢ ص ٤٩ و ٣٥٠ و ٣٥١ .

الفصل الرابع : في شعب ابي طالب ٢١٩

المضاد تماماً، وهو العداء لهم، وسائر أهل بلده، بل والدنيا بأسرها، بل هو يتحمل النفي والنبذ الاجتماعي له، ولكل من يلوذ به، ولا يستسلم للضغوط المتنوعة التي يتعرض لها، ولا تلين قناته، ولا تصدع صفاته.

٢ - يرضى بتحمل الجوع والفقر والمحاصرة الاقتصادية، بل هو يبذل أمواله وكل ما لديه في سبيل هذا الدين.

٣ - يوطن نفسه على خوض حرب طاحنة، ربما تنتهي بآبادة الهاشميين وأعدائهم، إذا لزم الأمر.

٤ - يضحى حتى بولده الأصغر سناً علي عليه السلام ويتحمل آثار غربة ولده الآخر جعفر، المهاجر إلى الحبشة.

٥ - يجاهد بيده ولسانه، ويستخدم كل ما لديه من امكانات مادية ومعنوية، ولا يبالي بكافة الصعاب والمشاق، وهو يدافع عن هذا الدين، ويحوطه بالرعاية والعناية، ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

سؤال وجوابه :

ويرد سؤال، هو: لماذا لا يكون ذلك كله بدافع عاطفي، ونابغاً عن حمية النسب والقبيلة؟! أو على حدّ تعبير البعض: بدافع من «حبه الطبيعي»^(١)؟.

وجوابه :

١ - ما يأتي من ادلة قاطعة على ايمان ابي طالب عليه الصلاة والسلام ولا سيما اشعاره وتصريحاته الدالة على ذلك هذا بالإضافة إلى ما ورد عن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» وعن الأئمة من ولده في حقه.

٢ - يؤيد ذلك انه إذا كان محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» ابن

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٩٤.

٢٢٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

أخيه؛ فان علياً ولده، فلو كانت العاطفة النسبية هي الدافع، فلماذا يضحى بولده دون ابن أخيه، طائعاً مختاراً، بعد تفكير وتأمل وتدبر لعواقب ذلك؟ ولماذا يرضى بأن يكون الاغتيال - لوتهم - موجهاً له دونه؟! أم يعقل أن يكون حبه الطبيعي لابن أخيه أكثر منه لولده، وفلذة كبده؟! .

٣ - أما الحماية القبلية، والرابطة النسبية، فلو كانت هي السبب في موقفه ذاك، فلماذا لم تدفع أبا لهب لعنه الله لان يقف موقف أبي طالب «عليه السلام»؛ فيدفع عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، ويضحى في سبيله؛ حتى بولده، وبمكانته، وبكل ما يملك؟! .

بل لقد رأيناه من أشد الناس على النبي، وأكثرهم جرأة عليه، وايداء له .

وأما سائر بني هاشم فانهم وإن دخلوا الشعب مع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» إلا أن تضحياتهم في سبيل النبي لم تبلغ عشر معشار تضحيات أبي طالب، كما انهم انما وقفوا هذا الموقف تحت تأثير نفوذ أبي طالب، وإصراره . .

وهكذا يتضح : ان حماية الدين اقوى من حماية النسب، ولذلك نرى المسلمين يصرحون بأنهم على استعداد لقتل آبائهم واولادهم في سبيل دينهم . وقد استأذن عبدالله بن عبدالله بن أبي رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» بقتل ابيه^(١) وفي صفين أيضاً لم يرجع الأخ عن أخيه حتى أذن له امير المؤمنين (ع) بتركه،^(٢) الى غير ذلك من الشواهد الكثيرة .

٤ - ثم إنه لو كان أبو طالب يفعل ذلك من اجل الدنيا؛ فقد كان

(١) تفسير الصافي ج ٥ ص ١٨٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٤ والدر المنثور ج ٦ ص ٢٤
عن عبد بن حميد، وابن المنذر والاصابة ج ٢ ص ٣٣٦ .

(٢) صفين للمنقري ص ٢٧١/٢٧٢ .

الفصل الرابع في شعب ابي طالب ٢٢١

يجب ان يضحى بآبن اخيه دون ولده، ويضحى به دون عشيرته؛ لانه يحصل على الدنيا من هذا الطريق؛ كما قتل المأمون أخاه، وسُمّت ام الهادي ولدها، لا أن يضحى بكل شيء دونه، ثم تكون النتيجة هي: أن يدمره ويدمر نفسه معه، فان هذا لا يصح في منطق المصالح الدنيوية بآية صورة على الاطلاق.

هـ - وأيضاً، فان الحماية القبلية - لو كانت - فانما تؤثر اثرها في حدود مصالح القبيلة، والحفاظ على شؤونها، ومستقبلها اما اذا كانت هذه الحماية سبباً في تدمير القبيلة والقضاء عليها، وتعطيل مصالحها، وتعريض مستقبلها للاخطار الجسام؛ فان هذه الحماية لا يمكن ان يفسح لها المجال، ولا ان يظهر لها اثر لدى عقلاء الرجال.

وهكذا يتضح: اننا لا يمكن ان نفسر مواقف ابي طالب (ع) تلك، الاً على انها بدافع عقيدتي وايماني راسخ، يدفع الانسان للبدل والعطاء، لكل ما يملك في سبيل دينه وعقيدته.

فصلوات الله وسلامه عليك يا ابا طالب، يا ابا الرجال، ويا رائد قوافل التضحية والفداء، في سبيل الحق والدين، ورحمة الله وبركاته.

عام الحزن:

وفي السنة العاشرة من البعثة كانت وفاة الرجل العظيم، ابي طالب عليه الصلاة والسلام.

ففقد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بفقده نصيراً قوياً، وعزيزاً وفياً، كان هو الحامي له، والدافع عنه، وعن دينه، ورسالته، كما اشرنا اليه.

ثم توفيت بعده بمدة وجيزة - قيل: بثلاثة أيام، وقيل بعده بحوالي

٢٢٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

شهر^(١) خديجة أم المؤمنين صلوات الله وسلامه عليها، أفضل أزواج النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم»، وأحسنهن سيرة، وأخلاقاً مع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وقد كانت بعض نساء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» (وهي عائشة) تغار منها غيرةً شديدة، كما سنرى، رغم أنها لم تجتمع معها في بيت الزوجية، لأن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد تزوجها بعد وفاة خديجة بزمان.^(٢)

ونستطيع أن نعرف: كم كان لأبي طالب «عليه السلام»، ولخديجة صلوات الله وسلامه عليهما من خدمات جلى في سبيل هذا الدين من تسمية النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عام وفاتهما ب:

«عام الحزن».^(٣)

الحب في الله والبغض في الله:

ومن الواضح: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يكن ينطلق في حبه لهما، وحزنه عليهما من مصلحته الشخصية، أو من عاطفة رحمة، وإنما هو يحب في الله تعالى، وفي الله فقط. ويقدر أي إنسان، ويحزن لفقده، ويرتبط به روحياً وعاطفياً، بمقدار ارتباط ذلك الإنسان بالله، وقربه

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٤٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٣٢ البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٧ والتنبيه والاشراف ص ٢٠٠.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٢٧-١٢٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٣٣-١٣٥ صحيح البخاري ج ٢ ص ٢٠٢ وكتاب عائشة للعسكري ص ٤٦ فما بعدها. وقد ذكرنا بعض المصادر لذلك في ما يأتي في فصل: حتى بيعة العقبه، حين الكلام حول جمال عائشة وحظوتها.

(٣) سيرة مغلطاي ص ٢٦ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠١ والمواهب اللدنية ج ١ ص ٥٦ والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٣٩ ط دار المعرفة واسنى الطالب ص ٢١.

٢٢٣ الفصل الرابع : في شعب ابي طالب

منه ، وتفانيه في سبيله ، وفي سبيل دينه ورسالته .

أي أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يتأثر على ابي طالب وخديجة ؛ لأن هذه زوجته وذاك عمه . وإلا فقد كان أبو لهب عمه أيضاً . وإنما لما لمسه فيهما من قوة إيمان ، وصلابة في الدين ، وتضحيات وتفان في سبيل الله ، والعقيدة . وفي سبيل المستضعفين في الارض ولما خسرتهم الأمة فيهما ، من جهاد واخلاص قلّ نظيره في تلك الظروف الصعبة والمصيرية .

وقد المح النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الى ذلك حينما جعل موت ابي طالب وخديجة مصيبة للأمة بأسرها ، كما هو صريح قوله في هذه المناسبة :

« . . . اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان ، لا أدري بأيهما أنا أشدّ جزعاً »^(١) .

نعم ، وذلك هو الأصل الاسلامي الأصيل ، الذي قرره الله تعالى بقوله : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادّون من حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، أو إخوانهم أو عشيرتهم الخ »^(٢) . وهل ثمة محاذاة لله ولرسوله أعظم من الشرك ، الذي عبر الله عنه بقوله : « إن الشرك لظلم عظيم » و « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك » ؟!

والآيات والروايات التي تؤكد على الحب في الله والبغض في الله كثيرة تفوق حد الحصر في عجالة كهذه .

وعلى هذا الأساس قال الله تعالى لنوح عن ولده : ﴿ انه ليس من

(١) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ٣٥ ط صادر .

(٢) المجادلة الآية ٢٢ .

٢٢٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

أهلك إنه عمل غير صالح ﴿١﴾.

وقال تعالى حكاية لقول ابراهيم (ع): ﴿من تبغني فإنه مني﴾ ﴿٢﴾

وعلى هذا الأساس أيضاً كان سلمان الفارسي من أهل البيت.

قال «صلى الله عليه وآله وسلم»: سلمان منا أهل البيت ﴿٣﴾

وقال أبو فراس:

كانت مودة سلمان لهم رحماً ولم تكن بين نوح وابنه رحم

(١) سورة هود الآية ٤٦ .

(٢) سورة ابراهيم الآية ٣٦ .

(٣) مصادر هذا الحديث مذكورة في كتابنا سلمان الفارسي في مواجهة التحدي .

الفصل الخامس:

أبو طالب مؤمن قريش

إيمان أبي طالب «ره»:

ولا بد لنا هنا من الحديث بإيجاز عن موضوع ما زال بين أخذ وردّ بين المسلمين. ألا وهو إيمان أبي طالب رحمه الله فمن مؤيد، ومن منكر

فأما أهل البيت وشيعتهم، فإنهم مجمعون على إسلامه «رحمه الله»،^(١) بل في بعض الأحاديث: أنه من الأوصياء^(٢). وأن نوره يطغى في يوم القيامة على كل نور، ما عدا نور النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، والأئمة، وفاطمة «عليها السلام»^(٣)

ونحن وإن كنا لم نستطع أن نجزم بصحة هذه الأحاديث، إلا أن إيمانه بالله، وتصديقه برسالاته «صلى الله عليه وآله وسلم»، وانقياده

(١) روضة الواعظين ص ١٣٨، وأوائل المقالات ص ١٣ والطرائف لابن طاووس ص ٢٩٨ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ١٦٥، والبحار ج ٣٥ ص ١٣٨ والغدير ج ٧ ص ٣٨٤ عنهم، وعن: التبيان ج ٢ ص ٣٩٨، وكتاب الحجة لابن معد ص ١٣، ومجمع البيان ج ٢ ص ٢٨٧.

(٢) الغدير ص ٣٨٩ ج ٧.

(٣) الغدير ج ٧ ص ٣٨٧ عن مصادر كثيرة.

٢٢٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

للأوامر والزواجر الالهية، كالنار على المنار، وكالشمس في رابعة النهار.
والأحاديث الدالة على إيمانه، والواردة عن أهل بيت العصمة
كثيرة، وقد جمعها العلماء في كتب مفردة^(١).

وواضح: أن أهل البيت أدري بما فيه، من كل أحد. يقول ابن
الأثير: «وما أسلم من اعمام النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» غير حمزة
والعباس، وأبي طالب عند أهل البيت»^(٢).

وعدا عن ذلك، فإن الأدلة الدالة على إيمانه كثيرة، وقد ألف في
اثبات إيمانه الكثير من الكتب من السنة والشيعة على حد سواء. وقد
انهاها بعضهم إلى ثلاثين كتاباً، ومنها كتاب: أبو طالب مؤمن قريش
للاستاذ عبدالله الخنيزي، الذي كاد أن يدفع حياته ثمناً لهذا الكتاب؛
حيث حاول الوهابيون في السعودية تنفيذ حكم الاعدام فيه، بسبب كتابه
هذا؛ فتداركه الله برحمته، وتخلص من شرهم.

هذا عدا عن البحوث المستفيضة المبثوثة في ثنايا الكتب
والموسوعات، ونخص بالذكر هنا ما جاء في الغدير للعلامة الاميني قده
ج ٧ و ٨.

وقد نقل العلامة الاميني عن جماعة من أهل السنة: أنهم ذهبوا الى
ذلك أيضاً، وكتبوا الكتب والبحوث في اثبات ذلك، كالبرزنجي في أسنى
المطالب ص ٦ - ١٠ والاجهوري، والاسكافي، وأبي القاسم البلخي،
وابن وحشي في شرحه لكتاب: شهاب الاخبار، والتلمساني في حاشية
الشفاء، والشعراني، وسبط ابن الجوزي، والقرطبي، والسبكي، وأبي
طاهر، والسيوطي، وغيرهم.

(١) وكان من الكتب الأخيرة كتاب: منية الراغب في إيمان أبي طالب للشيخ الطبري.

(٢) البحار ج ٣ ص ١٣٩ والغدير ج ٧ ص ٣٦٩.

الفصل الخامس: أبو طالب مؤمن قريش ٢٢٩

بل لقد حكم عدد منهم - كابن وحشي والجاهوري ، والتلمساني بأن من أبغض أبا طالب فقد كفر، أو من يذكره بمكره فهو كافر^(١).

بعض الأدلة على إيمان أبي طالب:

وقد استدل من قال بإسلامه بعدة أدلة، مثل:

أ - ما تقدم مما روي عن الائمة «عليهم السلام»، والنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مما يدل على إيمانه، وهم أعرف بأمر كهذا من كل أحد.
ب - ما تقدم من مناصرته للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وتحمله تلك المشاق والصعاب العظيمة، وتضحيته بمكانته في قومه، وحتى بولده، وتوطينه نفسه على خوض حرب طاحنة تأكل الأخضر واليابس. ولو كان كافراً؛ فلماذا يتحمل كل ذلك؟! ولماذا لم نسمع عنه ولو كلمة عتاب أو تذمر مما جرّه عليه محمد «صلى الله عليه وآله وسلم»؟!.

واحتمال: أنه كان يطمع بمقام أعظم.

غير وجيه، فانه كان حينئذ قد بلغ من الكبر عتياً، حيث إنه قد توفي عن بضع وثمانين سنة، وهو يرى: موقف قومه منه، ومن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كيف هو، ولا يأمل أن يعيش إلى حيث يبلغ مثل ذلك المقام، كما أنه لا يجد الفرصة كبيرة لنيل ابن أخيه لذلك المقام بعده.

ج - وقد استدل سبط ابن الجوزي على إيمانه بأنه - كما نقل - لو كان أبو عليّ كافراً لكان شنع عليه معاوية وحزبه، والزبيريون وأعوانهم، وسائر أعدائه «عليه السلام»، مع أنه «عليه السلام» كان يذمهم ويزري عليهم بكفر الآباء والامهات، ورذالة النسب^(٢).

(١) راجع: الغدير ج ٧ ص ٣٨٢ و ٣٨٣ وغير ذلك.

(٢) راجع: أبو طالب مؤمن قريش ٢٧٢/٢٧٣ ط سنة ١٣٩٨ هـ. عن تذكرة الخواص.

٢٣٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

د - تصريحاته وأقواله الكثيرة جداً؛ فإنها كلها ناطقة بإيمانه وإسلامه. ويكفي أن نذكر نموذجاً من أشعاره التي عبر عنها ابن أبي الحديد المعتزلي بقوله: إن كل هذه الأشعار قد جاءت مجيئ التواتر، من حيث مجموعها^(١).

ونحن نذكر هنا اثني عشر شاهداً من شعره، على عدد الائمة المعصومين من ولده عليه وعليهم السلام، تبركاً وتيمناً، والشواهد هي:

- | | |
|----------------------------------|------------------------------------|
| ١ - ألم تعلموا: أنا وجدنا محمداً | نبياً كموسى خط في أول الكتب |
| ٢ - نبي أتاه الوحي من عند ربه | ومن قال: لا، يقرع بها سنّ نادم |
| ٣ - يا شاهد الله علي فاشهد | إنني على دين النبي أحمد |
| ٤ - أنت الرسول رسول الله نعلمه | عليك نُزْل من ذي العزة الكتب |
| ٥ - أنت النبي محمد | قرم أغر مسود |
| ٦ - أو تؤمنوا بكتاب منزل عجب | على نبي كموسى أو كذي النون |
| ٧ - وظلم نبي جاء يدعو إلى الهدى | وأمرأتى من عند ذي العرش قيم |
| ٨ - لقد أكرم الله النبي محمداً | فأكرم خلق الله في الناس أحمد |
| ٩ - وخير بني هاشم أحمد | رسول الإله على فترة ^(٢) |
| ١٠ - والله لا أخذل النبي ولا | يخذله من بني ذو حسب |

١١ - وقال رحمه الله يخاطب ملك الحبشة، ويدعوه إلى الإسلام.

- | | |
|-----------------------------|------------------------------|
| أتعلم ملك الحبش أن محمداً | نبياً كموسى والمسيح ابن مريم |
| أتى بالهدى مثل الذي أتيا به | فكل بأمر الله يهدي ويعصم |
| وانكم تتلونونه في كتابكم | بصدق حديث لا حديث الترجم |

(١) شرح النهج ج ١٤ ص ٧٨ والبحار ج ٣٥ ص ١٦٥.

(٢) وقيل: إن قائل هذا البيت هو طالب بن أبي طالب. راجع: شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٧٨. إلا أن يقال إنه قاله على سبيل التمثيل بشعر أبيه «رحمه الله».

الفصل الخامس: ابو طالب مؤمن قريش ٢٣١

فلا تجعلوا لله نداً فأسلموا فان طريق الحق ليس بمظلم

١٢ - وقال مخاطباً ولده حمزة رحمه الله :

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد وكن مظهرًا للدين وفقت صابراً
وحط من أتى بالحق من عند ربه بصدق وعزم لا تكن حمز كافراً
فقد سرنني أن قلت: انك مؤمن فكن لرسول الله في الله ناصراً
وباد قريشاً في الذي قد أتيت جهاراً، وقل: ما كان أحمد ساحراً

وأشعار ابي طالب الناطقة بايمانه كثيرة، وقد اقتصرنا منها على هذا القدر؛ لنفسح المجال لذكر لمحة عن سائر ما قيل، ويقال في هذا الموضوع.

هـ - قال المعتزلي: «قلت: كان صديقنا علي بن يحيى البطريق «رحمه الله» يقول: لولا خاصة النبوة وسرها لما كان مثل أبي طالب، وهو شيخ قريش، ورئيسها، وذو شرفها، يمدح ابن أخيه محمداً وهو شاب قد ربي في حجره. وهو يتيمه ومكفوله، وجار مجرى أولاده بمثل قوله:

وتلقوا ربيع الابطحيين محمداً على ربوة في رأس عنقاء عيطل
وتأوي اليه هاشم إن هاشماً عرانيين كعب آخر بعد أول

ومثل قوله:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل
يطيف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

فان هذا الاسلوب من الشعر لا يمدح به التابع والذناي من الناس، وإنما هو من مديح الملوك والعظماء. فاذا تصورت: أنه شعر أبي طالب، ذاك الشيخ المبجل العظيم في محمد «صلى الله عليه وآله وسلم». وهو

٢٣٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

شاب مستجير به ، معتصم بظله من قريش ، قد رباه في حجره غلاماً ، وعلى عاتقه طفلاً ، وبين يديه شاباً . يأكل من زاده ، ويأوي إلى داره ، علمت موضع خاصية النبوة وسرّها ، وأن أمره كان عظيماً^(١) .

كما أن قصيدته اللامية تلك التي يقول فيها : وابيض يستسقى الخ . وهي طويلة ، وكان بنو هاشم يعلمونها أطفالهم^(٢) فيها الكثير مما يدل على إيمانه العميق الصادق ، وقد ذكرها ابن هشام وابن كثير ، وغيرهم .

و - لقد رأينا أبا طالب الذي يدعو ملك الحبشة إلى الاسلام ، هو الذي دعا ولده جعفرأ وأمره بأن يصل جناح ابن عمه في الصلاة .^(٣) وهو ايضاً الذي دعا زوجته فاطمة بنت أسد إلى الاسلام^(٤) وأمر حمزة بالثبات على هذا الدين ، وأظهر سروره باسلامه ، وكذلك الحال بالنسبة لولده أمير المؤمنين «عليه السلام» . إلى غير ذلك مما يجده المتبع لكلامه ومواقفه في المناسبات المختلفة .

ز - وقد صرح ابو طالب في وصيته بأنه كان قد اتخذ سبيل التقية في شأن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» ، وان ما جاء به الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» قد قبله الجنان وانكره اللسان ؛ مخافة الشنآن . واوصى قريشاً بقبول دعوة الرسول ومتابعته على امره ، ففي ذلك

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٦٣ وماذا في التاريخ ج ٣ ص ١٩٦/١٩٧ عنه .

(٢) مقاتل الطالبين ص ٣٩٦ .

(٣) راجع : الاوائل لابي هلال العسكري ج ١ ص ١٥٤ ، وروضة الواعظين ص ١٤٠ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٦٩ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٦٩ وأسنى المطالب ص ١٧ والإصابة ج ٤ ص ١١٦ وأسد الغابة ج ١ ص ٢٨٧ والغدير ج ٧ ص ٣٥٧ .

(٤) شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٧٢ .

الفصل الخامس : أبو طالب مؤمن قريش ٢٣٣

الرشاد والسعادة^(١).

ح - ثم هناك ترحم النبي (ص) عليه، واستغفاره له باستمرار، وجزعه عليه عند موته^(٢) وواضح : أنه لا يصح الترحم إلا على المسلم، ولأجل ذلك قال «صلى الله عليه وآله وسلم» لسفانة بنت حاتم الطائي : لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه^(٣).

ط - وكيف يحكمون لزيد بن عمرو بن نفيل ابن عم عمر بن الخطاب، ولولده سعيد بن زيد، ولورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة. ولابي سفيان الذي ما زال كهفاً للمنافقين، والذي ستأتي لمحة عن تصرّياته ومواقفه في أواخر غزوة أحد كيف يحكمون لهؤلاء بالاسلام.

بل يروون عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» : أنه قال عن أمية بن أبي الصلت : انه كاد أن يسلم في شعره^(٤).

ويقول الشافعي عن صفوان بن أمية : «وكان كأنه لا يشك في اسلامه» لأنه حين سمع يوم حنين قائلاً يقول : غلبت هوازن، وقتل محمد، قال له : «بفيك الحجر، فوالله، لرب قريش أحب الي من رب هوازن.»

نعم، كيف يحكمون لكل هؤلاء بالاسلام، وهم لم يدركوا الاسلام، أو أدركوه ولم يسلموا، أو اظهروا الاسلام، وأبطنوا الكفر.

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ١٧١ وثمرات الاوراق ص ٩٤ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠١/٣٠٢ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٥٢ والبحار ج ٣٥ ص ١٠٧ والغدير ج ٧ ص ٣٦٦ عن مصادر أخرى.

(٢) تذكرة الخواص ص ٨.

(٣) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٠٥.

(٤) صحيح مسلم ج ٧ ص ٤٨ - ٤٩، والاغانى ط ساسي ج ٣ ص ١٩٠. والتراتب الادارية ج ١ ص ٢١٣.

٢٣٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ثم يحكمون بالكفر على ابي طالب الذي ما فتىء يؤكد ويصرح عشرات المرات، في أقواله وفي افعاله، ويعلن بالشهادة لله بالوحدانية، ولنبيه «صلى الله عليه وآله وسلم» بالنبوة والرسالة؟! .

وان حال ابي طالب مع الأمويين وأشياعهم مثل حال النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مع المشركين الذين حكى القرآن عنهم بقوله: ﴿وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه الخ...﴾^(١).

والأمويون وأشياعهم يقولون: لن نقرّ بإيمان هذا الرجل ولو تضافرت على ذلك كل الأدلة والشواهد، وحتى لو نص الله ورسوله عليه، فبئس الخلف من الأمويين وأشياعهم لبئس السلف من طواغيت الجاهلية وعتاتها.

ي - وبعد كل ما تقدم نقول:

إن اسلام أي شخص أو عدمه، إنما يستفاد من أمور أربعة:

١ - من مواقفه العملية، ومواقف ابي طالب، قد بلغت الغاية التي ما بعدها غاية في الوضوح والدلالة على اخلاصه وتفانيه في الدفاع عن هذا الدين.

٢ - من اقراراته اللسانية بالشهادتين، ويكفي أن نشير إلى ذلك القدر الكثير منها في شعره في المناسبات المختلفة.

٣ - وإما من موقف ممثل الاسلام ورائد الحق النبي الاعظم «صلى

(١) الإسراء: ٩٠ - ٩٣.

الفصل الخامس: ابو طالب مؤمن قريش ٢٣٥

الله عليه وآله وسلم» منه . والموقف الرضي أيضاً ثابت منه «عليه السلام» تجاه أبي طالب على اكمل وجه .

٤ - من إخبار المطلعين على أحواله عن قرب، وعن حس، كاهل بيته، ومن يعيشون معه . وقد قلنا: انهم مجمعون على ذلك .

بل إن نفس القائلين بكفره لما لم يستطيعوا إنكار مواقفه العملية، ولا الطعن بتصريحاته اللسانية، حاولوا: أن يشبهوا على العامة بكلام مبهم، لا معنى له؛ فقالوا: «إنه لم يكن منقاداً^(١)!!» .

كل ذلك رجماً بالغيب، وافتراء على الحق والحقيقة، من أجل تصحيح ما روه عن المغيرة بن شعبة وامثاله من أعداء آل أبي طالب كما سنشير إليه حين الكلام على الأدلة الواهية إن شاء الله تعالى .

ومن أجل أن نوفي أبا طالب بعض حقه، نذكر بعض ما يدل على إيمانه - من مصادر غير الشيعة عموماً - ونترك سائره، وهو يعد بالعشرات، لأن المقام لا يتسع لأكثر من أمثلة قليلة معدودة، وهي .

١ - قال العباس: يا رسول الله، ما ترجو لأبي طالب؟ قال: كل الخير أرجوه من ربي^(٢) .

٢ - جاء ابو بكر بأبيه أبي قحافة إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» يقوده، وهو شيخ أعمى، يوم فتح مكة . فقال رسول الله . ألا تركت الشيخ في بيته حتى نأتيه؟! قال: أردت أن يؤجره الله . لأننا كنت باسلام أبي طالب أشد فرحاً مني باسلام أبي، التمس بذلك قرّة عينك الخ^(٣) .

(١) راجع: سيرة دحلان ج ١ ص ٤٤-٤٧، والاصابة ج ٤ ص ١١٦-١١٩ .

(٢) الاذكياء ص ١٢٨ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٦٨، وطبقات ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٧٩، والبحار ج ٣٥ ص ١٥١ و ١٠٩ .

(٣) مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٧٤ عن الطبراني والبخاري، وحياة الصحابة ج ٢ ص ٣٤٤ عن المجمع، والاصابة ج ٤ ص ١١٦ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٦٩ .

٢٣٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

والعلامة الاميني في الغدير، لا يوافق على أن يكون الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» قد قال لأبي بكر ذلك، وقد بحث ذلك بحثاً جيداً، ونحن نوافقه في ذلك أيضاً. وربما تكون هذه العبارة زيادة من بعض المتزلفين، كما عودونا في امثال هذه المناسبات.

٣ - قال المعتزلي: «روي باسأنيذ كثيرة، بعضها عن العباس بن عبد المطلب، وبعضها عن أبي بكر بن أبي قحافة: أن أبا طالب مامات حتى قال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله^(١)». وتقدم في شعره تصريحات كثيرة بذلك أيضاً.

٤ - ولقد ترحم عليه ودعا له النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» واستغفر له، حتى في المدينة حينما استسقى لاهلها فجاءهم الغيث فذكر أبا طالب، واستغفر له على المنبر^(٢) ولما مات ابوطالب تبع رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» جنازته مع انهم يروون النهي عن المشي في جنازة المشرك. كما أنهم يروون أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» أمر علياً بأن يغسله ويكفنه ويواريه^(٣)، وانما لم يأمره بالصلاة عليه لأن صلاة

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٧١، وراجع: الغدير ج ٧ ص ٣٦٩ عن البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٣، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٧ والاصابة ج ٤ ص ١١٦، وعيون الاثر ج ١ ص ١٣١، والمواهب اللدنية ج ١ ص ٧١ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٧٢ والسيرة النبوية لدحلان بهامشها ج ١ ص ٨٩، واسنى المطالب ص ٢٠ ودلائل النبوة للبيهقي وتاريخ أبي الفداء ج ١ ص ١٢٠ وكشف الغمة للشعراني ج ٢ ص ١٤٤.

(٢) راجع: عيون الانباء ص ٧٠٥.

(٣) راجع: في كل ذلك تذكرة الخواص ص ٨ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٨١، والسيرة الحلبية ج ١ ص ١٤٧ والمصنف ج ٦ ص ٣٨، والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ٨٧، وتاريخ البيهقي ج ٢ ص ٣٥، وطبقات ابن سعد ج ١ ص ٧٨ وتاريخ بغداد للخطيب ج ٣ ص ١٢٦، وج ١٣ ص ١٩٦ وتاريخ ابن كثير ج ٣ ص ١٢٥، والطرائف لابن طاووس ص ٣٠٥ عن الحنبلي في نهاية الطلب والبحار =

الفصل الخامس: أبو طالب مؤمن قريش ٢٣٧

الجنائز لم تكن فرضت بعد. ولاجل ذلك قالوا: إن خديجة لم يصل عليها النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» حينما توفيت، مع أنها سيدة نساء العالمين.

٥ - لقد رثاه ولده علي «عليه السلام» حينما توفي بقوله:

أبا طالب عصمة المستجير وغيث المحول ونور الظلم
لقد هذّ فقدك أهل الحفاظ فصلى عليك ولي النعم
ولقّاك ربك رضوانه فقد كنت للظهر من خير عم^(١)

٦ - وكتب أمير المؤمنين «عليه السلام» رسالة مطولة لمعاوية جاء فيها: «ليس أمة كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبوسفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق، ولا الصريح كاللصيق»^(٢).

فإذا كان أبو طالب كافراً وأبوسفيان مسلماً، فكيف يفضل الكافر على المسلم ثم لا يردّ عليه ذلك معاوية بن أبي سفيان؟
ولكن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً؛ فان أبا سفيان هو الذي

= ج ٣٥ ص ١٥١ والتعظيم والمئة ص ٧ ولسان الميزان ج ١ ص ٤١. والاصابة ج ٤ ص ١١٦، والغدير ج ٧ ص ٣٧٢ و ٣٧٤/٣٧٥ عن ذكر، وعن: شرح شواهد الغني للسيوطي ص ١٣٦، واعلام النبوة للماوردي ص ٧٧، وبدايع الصنائع ج ١ ص ٢٨٣، وعمدة القاري ج ٣ ص ٤٣٥، واسنى المطالب ص ١٥ و ٢١ و ٣٥ وطلبة الطالب ص ٤٣. ودلائل النبوة للبيهقي والبرزنجي، وابن خزيمة، وأبي داود، وابن عساكر.

(١) تذكرة الخواص ص ٩.

(٢) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٤٧١ والفتوح لابن أعثم ج ٣ ص ٢٦٠، ونهج البلاغة الذي بهامشه شرح الشيخ محمد عبده ج ٣ ص ١٨ الكتاب رقم ١٧ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ١١٧ والامامة والسياسة ج ١ ص ١١٨، والغدير ج ٣ ص ٢٥٤ عنهم، وعن: ربيع الاربر للزنجشيري باب ٦٦، وعن مروج الذهب ج ٢ ص ٦٢. وراجع أيضاً: الفتوح لابن اعثم ج ٣ ص ٢٦٠ ومناقب الخوارزمي الحنفي ص ١٨٠.

٢٣٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

قال: «إنه لا يدري ما جنة ولا نار» كما سيأتي في أواخر غزوة أحد.

ويلاحظ هنا أيضاً: أن أمير المؤمنين يشير في كلامه الأنف الذكر إلى عدم صفاء نسب معاوية، ولهذا البحث مجال آخر.

٧ - وحمل محمد بن الحنفية يوم الجمل على رجل من أهل البصرة، قال: فلما غشيته قال: أنا على دين أبي طالب، فلما عرفت الذي أراد كففت عنه. (١)

٨ - وورد عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» أيضاً قوله: إذا كان يوم القيامة شفعت لأبي، وأمي وعمي أبي طالب، وأخ لي كان في الجاهلية (٢).

٩ - وعنه «صلى الله عليه وآله وسلم»: إن الله عز وجل قال له على لسان جبرئيل: حرمت النار على صلب أنزلك، وبطن حملك، وحجر كفلك. أما الصلب فبعد الله، وأما البطن فأمّنة، وأما الحجر فعمه، يعني أبا طالب، وفاطمة بنت أسد. وبمعناه غيره مع اختلاف يسير (٣).

١٠ - وسئل الإمام السجاد «عليه السلام» عن إيمان أبي طالب، فقال: واعجباً، إن الله نهى رسوله أن يقر مسلمة على نكاح كافر؛ وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تنزل تحت أبي

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٦٧ ط ليدن.

(٢) ذخائر العقبى ص ٧ عن تمام الرازي في فوائده، والدرج المنيفة للسيوطي ص ٨ ومسالك الحنفا ص ١٤ عن أبي نعيم وغيره وذكر أن الحاكم صححه، وتفسير القمي ج ١ ص ٣٨٠ وتفسير البرهان ج ٢ ص ٣٥٨ وتاريخ يعقوبي ج ٢ ص ٣٥ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٣٢.

(٣) أصول الكافي ج ١ ص ٣٧١ والبحار ج ٣٥ ص ١٠٩ والتعظيم والمنة للسيوطي ص ٢٧ وراجع: روضة الواعظين ص ١٣٩ وشرح النهج ج ١٤ ص ٦٧ والغدير ج ٧ ص ٣٧٨ عنهم، وعن: كتاب الحجة لابن معد ص ٨، وتفسير أبي الفتح ج ٤ ص ٢١٠.

الفصل الخامس: ابو طالب مؤمن قريش ٢٣٩
طالب حتى مات^(١).

ونزول آية النهي عن الامساك بعصم الكوافر في المدينة، لا يضر ولا يوجب بطلان هذه الرواية، لا مكان أن يكون النهي عن ذلك بالقول على لسانه «صلى الله عليه وآله وسلم» قبل نزول القرآن. وعدم خضوع بعض المسلمين لذلك حينئذ ربما كان لظروف معينة فرضت عليهم ذلك.

١١ - وأخيراً، فقد كتب بعضهم يسأل الإمام علي بن موسى الرضا «عليه السلام» عن اسلام أبي طالب، فانه قد شك في ذلك، فكتب «عليه السلام» إليه: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين^(٢) الآية. وبعدها: إنك إن لم تقر بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار^(٣).

١١ - وسيأتي في غزوة بدر: ان الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يقبل من شهيد بدر عبيدة بن الحارث أن يعرض بعمه أبي طالب، ولو بمثل أن يقول: إني أولى بما قال منه:
كذبتم وبيت الله يبرى محمد ولما نطاعن دونه ونناضل ونسلمه حتى نصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل فإذا كان النبي يغضب ولو لمثل هذا التعريض، فهل تراه سوف يكون مسروراً بمن يحكم على عمه بالشرك، ويجعله في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه؟ إلى آخر ما هنالك؟!

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٦٨، والغدير ج ٧ ص ٣٨١ و ٣٨٩ عنه وعن: كتاب الحجة ص ٢٤، والدرجات الرفيعة، وضياء العالمين، وادعي تواتر هذا الحديث عندنا.

(٢) النساء الآية/١١٥.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٦٨ والغدير ج ٧ ص ٣٨١ و ٣٩٤ عن الكراجكي ص ٨٠، وكتاب الحجة لابن معد ص ١٦، والدرجات الرفيعة والبحار وضياء العالمين.

٢٤٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وحسبنا ما ذكرناه من الامثلة الناطقة باسلام أبي طالب، ومن أراد التوسع فعليه بالكتب المعدة لذلك.

الأدلة الواهية.

وقد استدلل القائلون بكفر أبي طالب - والعياذ بالله - بروايات وأدلة واهية، ونحن نشير هنا إلى عمدة ما اعتمدوا عليه في ذلك، وهي:

١ - حديث ابن الضحاح :

عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وقد ذكر عنده عمه، فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه. وحسب نص آخر: ان العباس قال للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: ما أغنيت عن عمك، فوالله، كان يحوطك ويغضب لك، قال: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار^(١).

ونقول:

أ - لقد ناقش كل من الاميني والخنيزي^(٢) جميع أسانيد هذه الرواية، وبينوا وهنها وضعفها، وتناقض نصوصها العجيب. ونحن نحيل القارئ الذي يرغب في التوسع إلى ما ذكره هذان العالمان حول هذا

(١) صحيح البخاري ط سنة ١٣٠٩ ج ٢ ص ٢٠٩، وج ٤ ص ٥٤، والمصنف ج ٦ ص ٤١، وانساب الاشراف بتحقيق المحمدي ج ٢ ص ٢٩ و ٣٠.

وصحيح مسلم، كتاب الايمان، وطبقات ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٧٩، ومسند أحمد ج ١ ص ٢٠٦ و ٢٠٧، والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٥، الغدير ج ٨ ص ٢٣ عن بعضهم، وعن عيون الاثر ج ١ ص ١٣٢، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٦٦.

(٢) راجع: الغدير ج ٨ ص ٢٤/٢٣ وأبو طالب مؤمن قریش.

الفصل الخامس : ابو طالب مؤمن قريش ٢٤١

الموضوع.

ب - إنه إذا كان «صلى الله عليه وآله وسلم» قد نفع أبا طالب، وأخرجه من الدرك الأسفل إلى الضحضاح؛ فلماذا لا يتم معروفيه، ويخرجه من هذا الضحضاح أيضاً؟! .

وايضاً هل تكون الشفاعة في الدنيا؟! .

ج - لقد رويوا: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» طلب منه حين وفاته: أن يقول كلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ ليستحل له بها الشفاعة يوم القيامة، فلم يعطه إياها. فهذا يدل على أنه قد أناط «صلى الله عليه وآله وسلم» مطلق الشفاعة بكلمة لا إله إلا الله^(١). فلماذا استحل هذه الشفاعة، مع أنه لم يعطه الكلمة التي توجب حلّيتها؟! .

ثم أوليس يروون: أن الشفاعة لا تحل لمشرك؟ فلماذا حلّت لهذا المشرك بالذات، بحيث أخرجته من الدرك الأسفل إلى الضحضاح؟^(٢).

د - قال المعتزلي، نقلاً عن الامامية والزيدية: «قالوا: وأما حديث الضحضاح؛ فانما يرويه الناس كلهم عن رجل واحد، وهو المغيرة بن شعبة، وبغضه لبني هاشم، وعلى الخصوص لعلي «عليه السلام» مشهور معلوم، وقصته وفسقه غير خاف»^(٣).

ولكننا نجدهم يروونه عن غير المغيرة أيضاً، كما في البخاري

(١) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٣٣ عن أحمد بسندين صحيحين، وعن البزار، والطبري باسناد جيد وابن حبان في صحيحه وراجع: الغدير ج ٢/ ٢٥٠.

(٢) مستدرک الحاكم ج ٢ ص ٣٣٦، وتلخيصه للذهبي وصحاحه والمواهب اللدنية ج ١ ص ٧١ والغدير ج ٨ ص ٢٤ عنها وعن كنز العمال ج ٧ ص ١٢٨، وشرح المواهب للزرقاني ج ١ ص ٢٩١ وكشف الغمة للشعراني ج ٢ ص ١٢٤، وتاريخ أبي الفداء ج ١ ص ١٢٠.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٧٠ والبحار ج ٣٥ ص ١١٢.

٢٤٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وغيره، فلعل رواية غير المغيرة قد حدثت في وقت متأخر، فإن من غير المعقول أن يورد الشيعة على غيرهم بذلك إن لم يكن له واقع. / وقد سكت المعتزلي على ردهم هذا، وكأنه يحتمل ما احتملناه ولو وسعه الرد لفعل.

هـ - وسئل الإمام الباقر «عليه السلام» عما يقوله الناس: إن أبا طالب في ضحضاح من نار؛ فقال: لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان، وإيمان هذا الخلق في كفة أخرى لرجح إيمانه. ثم قال: ألم تعلموا: أن أمير المؤمنين علياً «عليه السلام» كان يأمر أن يحج عن عبدالله، وابنه، وأبي طالب في حياته، ثم أوصى في وصيته بالحج عنهم^(١).

و - سئل علي «عليه السلام» في رحبة الكوفة عن كون أبيه معذباً في النار أولاً، فقال للسائل: مه، فض الله فاك، والذي بعث محمداً بالحق نبياً، لو شفع أبي في كل مذنب على وجه الأرض لشفعه الله فيهم. أبي معذب في النار، وابنه قسيم الجنة والنار؟^(٢)

ز - يلاحظ: وجود التناقض في روايات الضحضاح، فواحدة تقول: لعله تنفعه شفاعتي؛ فيجعل في ضحضاح يوم القيامة. وأخرى تجزم بأنه قد جعل في الضحضاح بالفعل. فراجع

٢ - إرث عقيل لأبي طالب:

واستدلوا: بأن ولده عقيل هو الذي ورثه، ولم يرثه علي وجعفر،

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٦٨، والدرجات الرفيعة ص ٤٩، والبحار ج ٣٥ ص ١١٢ والغدير ج ٨ ص ٣٨٠ - ٣٩٠ عنها وعن كتاب الحجة للسيد ص ١٨ من طريق شيخ الطائفة عن الصدوق، والفتوني في ضياء العالمين.

(٢) البحار ج ٣٥ ص ١١٠ وكنز الفوائد ص ٨٠ ط حجرية.

الفصل الخامس : ابو طالب مؤمن قريش ٢٤٣

لأنه كان مشركاً وهما مسلمان . فهما من ملتين مختلفتين ، واهل ملتين لا يتوارثان^(١) .

ولكن ذلك لا يصح أيضا .

فأولاً : من أين ثبت لهؤلاء : أن علياً وجعفرأ لم يرثاه .

وثانياً : إن قوله اهل ملتين لا يتوارثان .

نقول بموجبه ؛ لأن التوارث تفاعل ، ولا تفاعل عندنا في ميراثهما ، واللفظ يستدعي الطرفين ، كالتضارب ، فانه لا يكون إلا من اثنين ، فان الصحيح هو مذهب اهل البيت من أن المسلم يرث الكافر ، ولا يرث الكافر المسلم^(٢) .

وثالثاً : لقد روي عن عمر قوله : « اهل الشرك نرثهم ولا يرثونا^(٣) »

وقد حكم كثير من العلماء بأن ميراث المرتد للمسلمين لا يصح ؛ وقالوا : نرثهم ولا يرثونا^(٤) .

ورابعاً : إنهم يقولون : ان الميراث في وقت موت أبي طالب لم يكن قد فرض بعد ، وإنما كان الامر بالوصية ؛ فلعل أبا طالب قد أوصى لعقيل محبة له^(٥) .

٣ - وهم ينهون عنه ، وينأون عنه :

لقد ذكروا : أن آية : وهم ينهون عنه ، وينأون عنه ، قد نزلت في أبي

(١) المصنف ج ٦ ص ١٥ ، وج ١٠ ص ٣٤٤ ، وفي هامشه أي هامش السادس عن البخاري ج ٣ ص ٢٩٣ ، وطبقات ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٧٩ .

(٢) راجع شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٦٩ .

(٣) مصنف الحافظ عبد الرزاق ج ١٠ ص ٣٣٩ وج ٦ ص ١٠٦ .

(٤) المصنف لعبد الرزاق ج ٦ ص ١٠٦ (١٠٧) و ١٠٥ وج ١٠ ص ٣٣٨ حتى ص ٣٤١ .

(٥) راجع : أسنى المطالب ص ٦٢ .

٢٤٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

طالب، الذي كان ينهى الناس عن أذى الرسول، وينأى عن أن يدخل في الاسلام^(١).
ونقول:

أ - لقد تحدث الأستاذ الخنيزي حول أسانيد هذه الرواية بما فيه الكفاية^(٢) فليراجعه من أراد.

ب - إن هذه الآية لا تنطبق على أبي طالب بأي وجه؛ حيث إن الله تعالى يقول قبلها: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، حتى إذا جاؤوك يجادلونك، يقول الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير الأولين. وهم ينهون عنه الخ.﴾^(٣).

فضمائر الجمع، ككلمة: (هم)، وفاعل (ينهون) و (ينأون) كلها ترجع إلى من ذكرهم الله في تلك الآية. وهم المشركون، الذين إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، ويجادلون الرسول في هذه الآيات، ويصفونها من عنادهم بأنها ليست سوى أساطير الأولين. ولا يقف عنادهم عند هذا وحسب، بل يتجاوزوه إلى أنهم: ينهون الناس عن الاستماع إلى النبي، كما أنهم هم أنفسهم يتعدون عنه.

وهذه الصفات كلها لا تنطبق على أبي طالب، الذي لم نجد منه إلا التشجيع على اتباع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، والنصرة له باليد واللسان. بل يطلب من غيره أن يدخل في هذا الدين. وأن يتمسك به

(١) الإصابة ج ٤ ص ١١٥، وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٧، وطبقات ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٧٨، وبهجة المحافل ج ١ ص ١١٦ وانساب الاشراف بتحقيق المحمودي ج ٢ ص ٢٦ والغدير ج ٨ ص ٣ عنهم وعن: تفسير الخازن ج ٢ ص ١١، وتفسير ابن جزى ج ٢ ص ٦، وعن الطبري والكشاف. ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٢ ص ٣٤٠ و ٣٤١.

(٢) أبو طالب مؤمن قريش ص ٣٠٥/٣٠٦.

(٣) الانعام/٢٥-٢٦.

الفصل الخامس : ابو طالب مؤمن قريش ٢٤٥

ويصبر عليه ، كما كان الحال بالنسبة لزوجته ، ولحمزة ، وجعفر ، وعلي ، وملك الحبشة حسبما تقدم .

كما أن المفسرين قد فهموا من الآية عمومها لجميع الكفار ، وأن معناها : ينهاون عن استماع القرآن ، واتباع الرسول ، ويتباعدون عنه .

وهذا هو المروي عن ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وأبي معاذ ، والضحاك ، وابن الحنفية ، والسدي ، ومجاهد ، والجبائي ، وابن جبير^(١) .

ج - ويقول الأميني : إن تلك الرواية تقول : إن آية الانعام : ﴿وهم ينهاون عنه إلخ .﴾ قد نزلت حين وفاة أبي طالب «عليه السلام» ، وتقول رواية أخرى : إن آية : ﴿إنك لا تهدي من أحببت إلخ .﴾ قد نزلت حين وفاته أيضاً ، مع أن هذه الآية قد وردت في سورة القصص التي نزلت قبل الانعام ، - التي نزلت جملة واحدة -^(٢) بخمس سور . وهذا يدل على أن سورة الانعام قد نزلت بعد وفاة أبي طالب بمدة .

إذن ، فما معنى قولهم : إنها نزلت حين وفاته «عليه السلام» ؟!

د - انهم يقولون : ان سورة الانعام قد نزلت دفعة واحدة وكانت أسماء بنت يزيد ممسكة بزمام ناقته «صلى الله عليه وآله وسلم»^(٣) وذلك

(١) راجع : مجمع البيان ج ٧ ص ٣٥ ، و ٣٦ ، وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٧ والغدير ج ٨ ص ٣ ، والدر المنثور ج ٣ ص ٨ و ٩ كلهم - كلا أو بعضاً عن القرطبي ، والطبري ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن أبي شيبة وابن مردويه وعبد بن حميد ، والقرطبي ج ٦ ص ٤٠٦ .

(٢) الدر المنثور ج ٢ ص ٣ ، وفتح القدير ج ٣ ص ٩٢/٩١ ، وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٢ والغدير ج ٨ ص ٥ عنهم وعن تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٨٢/٣٨٣ كلهم عن : أبي عبيد ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والنحاس .

(٣) الدر المنثور ج ٣ ص ٢ عن الطبراني ، وابن مردويه . وقد ذكر في ص ٢ و ٣ نزولها جملة واحدة في مكة أو باستثناء آية أو آيتين ليست الآية المذكورة واحدة منها فراجع ما رواه عن عشرات الحفاظ مثل البيهقي في شعب الإيمان ، والخطيب في تاريخه ، وأبي الشيخ ، وابن المنذر ، والنحاس في ناسخة ، وعبد الرزاق ، والفريابي ، =

٢٤٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

انما كان بعد بيعة العقبة، التي كانت بعد وفاة ابي طالب بمدة طويلة.

٤ - آية النهي عن الاستغفار للمشرك:

روى البخاري ومسلم، وغيرهما: عن ابن المسيب، عن ابيه، رواية تتلخص في أن النبي طلب من أبي طالب حين وفاته أن يقول كلمة لا إله إلا الله ليحاج بها له عند الله. فقال له أبو جهل، وعبدالله بن أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل الرسول يعرضها عليه، ويقولان له ذلك، حتى قال أبو طالب آخر كلمة: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك. فأنزل الله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، ولو كانوا أولي قربى، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾^(١). وأنزل الله في ابي طالب: ﴿إنك لا تهدي من أحببت إن الله يهدي من يشاء﴾^(٢).

ولا نريد أن نناقش في أسانيد هذه الرواية^(٣)، المقطوعة، ولا نريد أن نفيض في الدلائل والشواهد على أن ابن المسيب فضلاً عن غيره متهم

= وعبد بن حميد، وإسحاق بن راهويه، والكلبي، وأبي عبيد، والطبراني وابن الضريس، وابن مردويه، والسلفي في الطيورات، والاسماعيلي، والحاكم وصححه، وراجع: الاتقان ج ١ ص ٣٧ وراجع السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٦٠.

(١) التوبة/١١٣.

(٢) القصص/٥٦ والرواية في البخاري ط سنة ١٣٠٩ ج ٣ ص ١١١، وغير ذلك.

(٣) راجع في ذلك: أبو طالب مؤمن قریش ٣١٣ - ٣٤٠ وانساب الاشراف بتحقيق المحمودي ج ٢ ص ٢٥ و ٢٦. ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٢ ص ٣٤٢ و ٣٤٣.

الفصل الخامس: أبو طالب مؤمن قريش ٢٤٧
على علي «عليه السلام»، كما نص عليه البعض^(١). ولكننا نشير إلى ما يلي:

أولاً: إن آية النهي عن الاستغفار للمشرك قد وردت في سورة التوبة، ولا ريب في كونها من أواخر ما نزل عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» في المدينة، بل لقد ادّعى البعض أنها آخر ما نزل^(٢). ولا يعقل أن تكون هذه الآية قد بقيت أكثر من عشر سنوات منفردة، والقرآن ينزل، حتى نزلت سورة التوبة، فأضيفت إليها، لأن الآيات التي كانت تُلحق بالسور إنما تلحق بما نزل سابقاً عليها، وكان ذلك في الأكثر في السور الطوال، التي كانت تنزل أجزاء متتابعة دون سائر السور التي كانت تنزل دفعة واحدة.

فكيف بقي «صلى الله عليه وآله وسلم» يستغفر لابي طالب طيلة هذه المدة، ويترحم عليه ١٩ مع أن ذلك من اظهر مصاديق المودة للكافر، وقد نهى الله عن مودتهم في آيات كثيرة، نزلت قبل سورة التوبة كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ، أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

(١) الغارات للثقفى ج ٢ ص ٥٦٩.

(٢) الغدير ج ٨ ص ١٠ وأبو طالب مؤمن قريش ص ٣٤١ عن: البخاري، والكشاف، والبيضاوي، وتفسير ابن كثير والإتقان، وابن أبي شيبه والنسائي وابن الضريس، وابن المنذر، والنحاس، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٣) المجادلة/٢٢، وقد نزلت قبل التوبة بسبع سور كما في الإتقان ج ١ ص ١١ وفي تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٢٩، وفتح القدير ج ٥ ص ١٨٦ والغدير ج ٨ ص ١٠ عنهم وعن تفسير الألوسي ج ٣٧/٢٨ وأخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني والحاكم والبيهقي وأبو نعيم: أنها نزلت في بدر أو في أحد.

(٤) النساء/١٤٤.

٢٤٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وقوله تعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتبعون عندهم العزة﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾^(٢) إلى غير ذلك مما لا مجال لتتبعه.

ثانياً: قال تعالى: في سورة المنافقين، التي نزلت في غزوة بني المصطلق، سنة ست على ماهو المشهور، ونزلت قبل سورة التوبة على كل حال: ﴿سواء عليهم، استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾.

فإذا كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يعرف ان الله لن يغفر لهم، سواء استغفر لهم ام لا، فلماذا يتعب نفسه في امر لا نتيجة له؟ فان ذلك امر لا يقره العقلاء، ولا يقدمون عليه.

ثالثاً: إننا نجد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه يقول: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة»^(٣).

كما أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد ردّ هدية حكيم بن حزام؛ لأنه كان مشركاً، قال عبيدالله: حسبته انه قال: إنا لا نقبل من المشركين شيئاً، ولكن ان شئت احذناها بالثمن^(٤).

وردّ أيضاً هدية عامر بن الطفيل، لأنه لم يكن قد اسلم بعد. ورد

(١) النساء/١٣٩.

(٢) سورة آل عمران الآية ٢٨.

(٣) راجع ابو طالب مؤمن قريش للخنيزي.

(٤) مستدرک الحاكم ج ٣ ص ٤٨٤ وتلخيصه للذهبي بهامش نفس الصفحة، وصحاحه حياة الصحابة ج ٢ ص ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦٠ عن كنز العمال وعن مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٧٨ وكنز العمال ج ٦ ص ٥٧ و ٥٩ عن احمد والطبراني، والحاكم وسعيد بن منصور. والتراتب الادارية ج ٢ ص ٨٦ ويلاحظ هنا: انه «صلى الله عليه وآله» حين الهجرة لا يقبل ناقة أبي بكر إلا بالثمن.

الفصل الخامس : ابو طالب مؤمن قريش ٢٤٩

أيضاً هدية ملاعب الأُسنة، وقال : لا أقبل هدية مشرك^(١).

عن عياض المجاشعي : انه اهدى إلى النبي هدية فأبى قبولها، وقال : اني نهيت عن زيد المشركين^(٢).

ولم يكن ذلك منه «صلى الله عليه وآله وسلم» إلا لأنه يوجب احتراماً ومودة من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» له.

إلا ان الكشي ذكر رواية تقول : «ان رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يرد هدية على يهودي ولا نصراني»^(٣).

وهذا إن صح يشير إلى الفرق بين هدية الكتابي وهدية المشرك فكان(ص) يرد هدية الثاني دون الأول وذلك يدل على عدم صحة قوله لهم : إنه(ص) في هدنة الحديبية استهدى أبا سفيان أدماً^(٤).

وقد يكون ذلك لأجل الفرق بين المشرك والكتابي - لو صحت هذه الرواية - فكان «صلى الله عليه وآله وسلم» يقبل هدية الثاني دون الأول.

وبعد ما تقدم، فإننا نعرف عدم صحة قولهم ان النبي قد استهدى من أبي سفيان أدماً، وذلك أيام هدنة الحديبية.

(١) كنز العمال ج ٣ ص ١٧٧ طبعة اولى عن ابن عساکر ط ثانية ج ٦ ص ٥٧ عن الطبراني والمصنف لعبد الرزاق ج ١ ص ٤٤٦ و ٤٤٧ وفي الهامش عن مغازي ابن عقة ومجمع البيان المجلد الاول ص ٥٣٥.

(٢) كنز العمال ج ٦ ص ٥٧ و ٥٩ عن ابي داود والترمذي وصححه واحد والطيايلى والبيهقي، وراجع ما عن عمران بن حصين في الكنز نفس الجلد والصفحة والمصنف لعبد الرزاق ج ١٠ ص ٤٤٧ وفي الهامش عن ابي داود واحد وعن الترمذي ج ٢ ص ٣٨٩. وراجع الوسائل ج ١٢ ص ٢١٦ عن الكافي والمعجم الصغير ج ١ ص ٩.

(٣) رجال الكشي ط جامعه طهران ص ٦١٠ والبحار ج ٥٠ ص ١٠٧ والوسائل ج ١٢ ص ٢١٧.

(٤) راجع التراتيب الادارية ج ١ ص ١٩٨ عن الاستيعاب.

٢٥٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ورابعاً: لقد روي بسند صحيح - كما يقول الأميني - عن علي: أنه سمع رجلاً يستغفر لأبويه، وهما مشركان؛ فذكر علي «عليه السلام» ذلك للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فنزلت الآية المذكورة^(١).

وفي أخرى: ان المسلمين قالوا: ألا نستغفر لأبائنا؟ فنزلت^(٢).

وفي رواية: انها نزلت حينما استأذن «صلى الله عليه وآله وسلم» الله في الاستغفار لأمه فلم يأذن له، ونزلت الآية، فسأله أن يزور قبرها، فأذن له^(٣).

وإن كنا نعتقد: أن الرواية الأخيرة بعيدة عن الصحة لاعتقادنا بأن أم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كانت مؤمنة موحدة، كما أسلفناه في بحث ايمان آبائه «صلى الله عليه وآله وسلم». ولكنها على أي حال مناقضة لما تقدم فلعل الرواة طبقوها على هذا المورد، اجتهداً عمدياً أو سهوياً منهم، والصحيح هو النص المتقدم عن علي «عليه السلام». وإلا

(١) الغدير ج ٨ ص ١٢، وغيره عن: الطيالسي، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وأبي يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وإبي الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الايمان، والضياء في المختارة، والاتقان، واسباب النزول، وتفسير ابن كثير، والكشاف، واعيان الشيعة، واسنى المطالب ص ١٨، لدحلان وابو طالب مؤمن قريش، وشيخ الابطح ومسنند أحمد ج ١ ص ١٣٠/١٣١.

(٢) مجمع البيان ج ٥ ص ٧٦ عن الحسن، وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٩٣، وابو طالب مؤمن قريش ص ٣٤٨، عنها وعن الاعيان ج ٣٩ ص ١٥٨ و ١٥٩ عن ابن عباس والحسن، والكشاف ج ٢ ص ٢٤٦.

(٣) تفسير الطبري ج ١١ ص ٣١، والدر المنثور ج ٣ ص ٢٨٣، وارشاد الساري ج ٧ ص ٢٨٢ و ١٥٨ عن مسلم في صحيحه، وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٩٤ وأحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه والكشاف ج ٢ ص ٤٩. وابو طالب مؤمن قريش ص ٣٤٩.

الفصل الخامس: أبو طالب مؤمن قريش ٢٥١

فلماذا نسي النبي الاستغفار لأمه إلى آخر أيام حياته؟ هذا عدا عما تقدم.
وخامساً: إن آية لا تهدي من أحببت، يقال: إنها نزلت يوم أحد،
حينما كسرت رباعيته، وشج وجهه «صلى الله عليه وآله وسلم»، فقال:
اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون، فانزل الله: إنك لا تهدي من أحببت
إلخ^(١).

وقيل: إنها نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل، الذي كان
الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» يرغب في إسلامه، بل لقد ادّعي
الاجماع على ذلك^(٢).

سادساً: إذا كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يحب إيمان أبي
طالب فالله يحب ذلك أيضاً، لأن الرسول لا يحب إلا ما أحب الله.
وقولهم: كان «صلى الله عليه وآله وسلم» يكره إيمان وحشي، ثم آمن، لا
يصح؛ لأن هذا من نوع التضاد بين الرسول والمرسل، لو لم يتوافقا، وإذا
توافقا، فكيف يمكن أن يكره الله ورسوله إيمان أحد^(٣).

وسابعاً: إن قوله تعالى: لا تهدي من أحببت لا يمنع من إيمان أبي
طالب، فإن الله قد شاء الهداية لأبي طالب أيضاً كما دلّت عليه النصوص.
والآية إنما تريد تعليم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: إن محبته لهداية
شخص غير كافية. بل لا بد معها من مشيئة الله سبحانه.

وأخيراً، فإن عبد المطلب لم يكن كافراً ولا مشركاً حسبما قدمنا،

(١) راجع التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٩٨ عن الإستيعاب.

أبو طالب مؤمن قريش ص ٣٦٨ عن أعيان الشيعة ج ٣٩ ص ٢٥٩ والحجة
ص ٣٩. ولربما يأتي بعض مصادر ذلك في وقعة أحد.

(٢) أبو طالب مؤمن قريش ص ٣٦٩ عن شيخ الأبطح ص ٦٩.

(٣) راجع هامش أنساب الأشراف ج ٢ ص ٢٨ عن الدكتور زرزور في مقدمته على
تفسير الحاكم الجشمي.

٢٥٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

بل كان مؤمناً على دين الحنيفية . وقد صرح المسعودي في بعض كتبه بأنه قد مات مسلماً^(١) . فقول أبي طالب : بل على ملة عبد المطلب لا يدل على كفره ؛ فلو كان قد قال ذلك حقاً . فلا بد أن يكون قد قال ذلك تعمية على قريش ، لمصالح يراها لا بد من ملاحظتها في تلك الفترة .

الوجبة الأخيرة:

كان ما تقدم هو عمدة ما استدل به القائلون بكفر أبي طالب ، والعياذ بالله ، وقد رأينا : أنه لا يستطيع أن يثبت أمام النقد الواعي والدقيق . وقد بقيت بعض الروايات ، التي يمكن الاستدلال بها على ذلك . وليس فيها أيضاً ما ينفع أو يجدي ونحن نشير إليها باختصار شديد ؛ فنقول : إنهم قد رووا أيضاً :

١ - أن الرسول قال لأبي بكر حول ما ينبغي من الوسوسة : «ينجيكم من ذلك : أن تقولوا مثل الذي أمرت به عمي عند الموت ؛ فلم يفعل ، يعني شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله^(٢)» .

وفي رواية عن عمر : إن كلمة التقوى التي أوصى عليها نبي الله عمه أبا طالب عند الموت : شهادة إلخ^(٣) .

ونقول :

أ - أن من الواضح : أن الذين يسألونه عما ينبغي من الوسوسة كانوا يقولون تلك الكلمة ، ويشهدون الشهادتين ، ولكنهم كانوا - مع ذلك -

(١) الروض الانف ج ٢ ص ١٧١/١٧٠ .

(٢) حياة الصحابة ج ٢ ص ٥٤٠/٥٤١ وكنز العمال ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ عن أبي يعلى والبوصيري في زوائده ، وعن طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٣١٢ .

(٣) مجمع الزوائد ج ١ ص ١٥ ، وكنز العمال ج ١ ص ٢٦٢ و٦٣ عن أبي يعلى ، وابن خزيمة ، وابن حبان والبيهقي وغيرهم كثير جداً .

الفصل الخامس: ابو طالب مؤمن قريش ٢٥٣

مبتلين بالوسوسة فكيف يأمرهم «صلى الله عليه وآله وسلم» بقولها للنجاة من ذلك؟! .

إلا ان يكون المراد: كثرة التلفظ بها وتكرارها.

ولكن ربما يقال: إن ارادة هذا المعنى بعيد عن مساق الرواية.

ب - إن نفس هذه الرواية مروية بسند صحيح، وتفيد: أن الخلاف كان بين سعد وعثمان، وأن الذي حكم بينهما هو عمر بن الخطاب، وذكر: دعوة ذي النون: «لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين». ولم يذكر أبا طالب^(١).

٢ - لما مدّ أبو قحافة يده ليسلم بكى أبو بكر، فقال له (ص): ما يبكيك؟ قال: لأن تكون يد عمك مكان يده، ويسلم، ويقر الله به عينك أحب إلي من أن يكون^(٢).

ونقول:

أ - قد تقدمت هذه الرواية بنحو يدل على ايمان أبي طالب عن عدد من المصادر، فلا نعيد.

ب - قد جاء أنه لما اسلم أبو قحافة لم يعلم أبو بكر باسلامه، حتى بشره النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بذلك^(٣) فكيف يكون أبو بكر قد قال ذلك حين مدّ يده؟! .

(١) مجمع الزوائد ج ٧ ص ٦٨ عن أحمد ورجاله رجال الصحيح، باستثناء ابراهيم بن محمد بن سعد وهو ثقة، وحياة الصحابة عنه وعن الترمذي وعن الكنتز ج ١ ص ٢٩٨ عن أبي يعلى والطبراني - وصحح.

(٢) الاصابة ج ٤ ص ١١٦ والحاكم وصححه على شرط الشيخين، وعن عمر بن شبة وابي يعلى، وأبي بشر سمويه في فوائده، ونصب الراية ج ٦ ص ٢٨١/٢٨٢ عن عدد من المصادر في هامشه، والمصنف ج ٦ ص ٣٩، وفي هامشه عن ابن أبي شيبة ج ٤ ص ١٤٢ و ٩٥ وأبي داود ٤٥٨ ومسنند أحمد ج ١ ص ١٣١.

(٣) المحاسن والمساوي ج ١ ص ٥٧.

٢٥٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

٣ - لما توفي أبو طالب، جاء علي إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وقال له: إن عمك الشيخ الضال قد توفي.

وفي رواية أن علياً رفض ما أمره به النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من تغسيله، ودفنه، فأمر أن يتولى ذلك غيره^(١).

ونقول:

أ - قد روى أحمد في مسنده هذه الرواية، وفيها: إن عمك الشيخ قد توفي، من دون ذكر كلمة «الضال»^(٢).

ب - ولو لم يكن مؤمناً فلماذا يأمر بتغسيله؟
ثم كيف يأمر علياً بتغسيله ولا يأمر عقيلاً، أو طالباً للذين كانوا مشركين؟. إلا أن يقال: إنهما لم يكونا على استعداد لإطاعته.

ج - كيف يتناسب هذا مع كونه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد حزن، وترحم عليه، ودعا له، وعارض جنازته، ومشى فيها، مع أنهم يروون: أنه لا يجوز المشي في جنازة المشرك؟!^(٣).

د - هل صحيح: أن علياً «عليه السلام» رفض تنفيذ ما أمره به النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، حتى احتاج لأن يأمر بأن يتولى ذلك غيره؟ فهل كان علي يملك نفسية متمردة كهذه النفسية؟ حاشاه!

هـ - ماذا يصنع هؤلاء بما ورد عن كثير من المصادر من أن علياً عليه السلام هو نفسه قد تولى تغسيله ودفنه، واغتسل

(١) المصنف ج ٦ ص ٣٩ وراجع كنز العمال ج ١٧ ص ٣٢ و ٣٣ ونصب الراية ج ٢ ص ٢٨١ و ٢٨٢ وفي هامشه عن عدد من المصادر.

(٢) مسند الامام أحمد ج ١ ص ١٢٩/١٣٠ وانساب الأشراف بتحقيق المحمدي ج ٢ ص ٢٤ وفيه أنه أمره هو فواراه.

(٣) قد تقدمت بعض مصادر ذلك في أوائل هذا البحث، وعن عدم جواز المشي في جنازة المشرك، راجع كتب الحديث كسنن البيهقي وغيره.

الفصل الخامس: أبو طالب مؤمن قريش ٢٥٥

بعد تغسيله إياه غسل المس الواجب من مس كل ميت مسلم^(١).

خطابيات وأرجاز المديني:

وبعد ما تقدم، إذا كان أبو طالب مسلماً مصداقاً؛ فلا يصغى لأرجاز وخطابيات أمثال المديني، غير الموافقة للعقل والدين. ولا يفيدهم تملقهم البارد، ولا تظاهروهم بالصلاح، حتى ليقول المديني: «وددت أن أبا طالب كان اسلم، فسرى به رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» وأني كافر^(٢)!!».

سرّية إيمان أبي طالب:

إننا إذا تتبعنا سير الدعوة، ومواقف أبي طالب فأننا نجد: أنه كان بادئ ذي بدء يكتُم إيمانه، تماماً كمؤمن آل فرعون، والظاهر أنه قد استمر يظهر ذلك تارة، ويخفيه أخرى إلى أن حُصِرَ الهاشميون في الشعب، فصار يكثر من اظهار ذلك.

وقد ورد عن الامام الصادق «عليه السلام» قوله: «إن مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسروا الايمان واطهروا الشرك، فأتاهم الله اجرهم مرتين^(٣)».

وعن الشعبي، يرفعه عن أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: كان والله أبو طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف مؤمناً مسلماً يكتُم إيمانه؛

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠١.

(٢) عيون الاخبار ج ١ ص ٢٦٣ لابن قتيبة .

(٣) أمالي الصدوق ص ٥٥١، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٧٠، وأصول الكافي ج ١ ص ٣٧٣، وروضة الواعظين ص ١٣٩، والبحار ج ٣٥ ص ١١١ والغدير ج ٧ ص ٣٨٠ - ٣٩٠ عنهم وعن: الحجة لابن معد ص ١٧ و ١١٥ وتفسير أبي الفتح ج ٤ ص ٢١٢، والدرجات الرفيعة، وضياء العالمين.

٢٥٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

مخافة على بني هاشم أن تنابذها قريش . وكذا عن ابن عباس^(١) .
وقد تقدم: أن محمد بن الحنفية حمل في حرب الجمل على رجل
من اهل البصرة، قال: فلما غشيتة قال: أنا على دين ابي طالب، فلما
عرفت الذي اراد كفت عنه^(٢) .

وثمة أحاديث أخرى عديدة بهذا المعنى لا مجال لذكرها^(٣) .
ولكن لا بد أن نذكر رواية أخرى، ولعلها هي الأقرب الى واقع
الأمر، وهي ما ذكره الشريف النسابة العلوي، المعروف بالموضح،
باسناده: أن أبا طالب لما مات لم تكن الصلاة على الموتى، فما صلى
النبي عليه، ولا على خديجة، وإنما اجتازت جنازة أبي طالب، وعلي
وجعفر^(٤)، وحمزة جلوس، فقاموا، وشيعوا جنازته، واستغفروا له .

فقال قوم: نحن نستغفر لموتانا وأقاربنا المشركين أيضاً - ظنا منهم
أن أبا طالب مات مشركا؛ لأنه كان يكتنم إيمانه فنفى الله عن أبي طالب
الشرك، ونزه نبيه، والثلاثة المذكورين «رحمهم الله» عن الخطأ في
قوله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، ولو كانوا
أولي قربى﴾ .

فمن قال بكفر أبي طالب، فقد حكم على النبي بالخطأ والله تعالى
قد نزهه عنه في أقواله وأفعاله الخ^(٥) .

(١) الغدير ج ٧ ص ٣٨٨ عن كتاب الحجة ص ٢٤ و ٩٤ و ١١٥ . وراجع أمالي
الصدوق ص ٥٥٠ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ٦٧ .

(٣) راجع الغدير ج ٧ ص ٣٣٨ - ٣٩٠ عن: الفصول المختارة ص ٨٠ واكمال الدين
ص ١٠٣، وكتاب الحجة لابن معد عن أبي الفرج الاصفهاني .

(٤) لقد كان جعفر بالحبشة، فيما أن يكون قد جاء في زيارة قصيرة ثم رجع . وإما أن
يكون الراوي قد ذكره من عند نفسه سهواً أو عمداً .

(٥) الغدير ج ٧ ص ٣٩٩ عن كتاب الحجة لابن معد ص ٦٨ .

الفصل الخامس: ابو طالب مؤمن قريش ٢٥٧

ضرورة سرية إيمان شيخ الابطح:

ونستطيع أن نقول: إن سرية إيمان أبي طالب كانت ضرورة لا بد منها؛ لأن الدعوة كانت بحاجة إلى شخصية إجتماعية قوية تدعمها، وتحافظ على قائدها، شرط أن لا تكون طرفاً في النزاع. فتتكلم من مركز القوة لتتمكن الدعوة من الحركة، مع عدم مواجهة ضغط كبير يشل حركتها، ويحد من فاعليتها.

قال ابن كثير وغيره: «إذ لو كان أسلم أبو طالب (ونحن نقول: أسلم، ولكنه كتم إيمانه وإسلامه)؛ لما كان له عند مشركي قريش وجهة، ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولا جترؤا عليه، ولمدوا أيديهم والستهم بالسوء إليه»^(١).

لماذا الإفتراء على أبي طالب:

وأخيراً.. فلعل ذنب أبي طالب الوحيد، هو أنه كان أباً لأمر المؤمنين علي «عليه السلام»، فالمستهدف بهذه النسبة الشنيعة في الحقيقة هو ولده، الشوكة الجارحة في أعين الأميين، والزيبريين، وكل أعداء الاسلام. فهم يريدون النيل من علي في كل أمر يرتبط به حتى وصلت النوبة إلى أخيه جعفر، وابيه أبي طالب «رحمه الله»، ثم إلى كل شيعته ومحبيه، بل إننا لا نكاد نرى فضيلة ثبتت له بسند صحيح عند مختلف الفرق الاسلامية الا ولها نظير في الخلفاء الثلاثة، ولكن بسند ضعيف عندهم على الأكثر، والله الحمد وله الحجة البالغة.

ويقينا لو كان أبو سفيان أو أي شخص آخر، من آباء مخالفي علي «عليه السلام» قد عمل معشار ما عمله أبو طالب، لرأيت من الثناء العاطر عليه، والتبجيل والتقدير، والأحاديث في فضله، وماله من

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٤١، وراجع السيرة النبوية للدحلان ج ١ ص ٤٦.

٢٥٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الكرامات والشفاعات، إن دنيا، وإن آخرة، ما يفوق حدّ الحصر، ويزيد ويتضاعف باستمرار في كل مصر، وعصر.

والغريب في الأمر: أن أبا سفيان، أبا معاوية الذي يقول لعثمان حينما صارت إليه الخلافة: قد صارت إليك بعد تيم وعدي فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار^(١) إن أبا سفيان هذا مؤمن تقي عادل، معصوم، وأبو طالب - أو فقل: أبو علي - كافر مشرك، وفي ضحضاح من نار، يبلغ كعبه، ويغلي منه دماغه!! ما عشت أراك الدهر عجباً!!

أبو لهب ونصرة النبي (ص):

ونشير أخيراً هنا إلى أنهم يذكرون: أنه بعد أن توفي أبو طالب أعلن أبو لهب استعداده لنصرة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم». فاحتالت قريش فأخبرته أنه يقول: إن أباك عبد المطلب في النار، فسأله عن ذلك، فأخبره بما طابق ما أخبروه به؛ فتخلى عن نصرته، وانقلب ليكون عدواً له ما عاش^(٢).

ونحن لا نشك في كذب هذه القضية.

فأولاً: كيف لم يعلم أبو لهب طيلة عشر سنين من عداوته للنبي، ومحاربته له: أن هذا هو رأيي ورأي الاسلام في كل من يموت مشركاً بالله تعالى؟! وعلى أي شيء كان يحاربه طيلة هذه المدة إذن؟!.

وثانياً: لماذا عاداه في حياة أبي طالب، ثم عاد إلى حمايته ونصرته بعد وفاته؟! . ولماذا لم يفعل أبو طالب كما فعل أبو لهب؟، أو لماذا لم

(١) النزاع والتخاصم ص ٢٠.

(٢) راجع على سبيل المثال: البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٤ عن ابن الجوزي وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠٢.

الفصل الخامس: ابو طالب مؤمن قريش ٢٥٩

يفعل أبو لهب مثل فعل أبي طالب!

وثالثاً: قد اسلفنا أن عبد المطلب لم يكن مشركاً، بل كان على دين الحنيفية مؤمناً صادق الإيمان.

سر افتعال الرواية:

ولعل سر افتعال هذه الرواية هنا هو إظهار: أن حماية أبي طالب لم تكن إلا بدافع العصبية والحمية القبلية، أو الحب الطبيعي.

ولكن أين كانت حمية وعصبية أبي لهب قبل هذا الوقت، وأين كان حبه الطبيعي لابن أخيه؟ ولا سيما حينما حصرت قريش الهاشميين في الشعب، وكادوا يهلكون جوعاً؟!.

وأين ذهبت حميته بعد ذلك؟ وهو الذي كان يتبع محمداً «صلى الله عليه وآله وسلم» من مكان إلى مكان يؤذيه، ويصد الناس عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقد قدمنا بعض الكلام في ذلك، حين الكلام على توضيحات أبي طالب، فلا نعيد.

الباب الرابع:

من وفاة أبي طالب حتى الهجرة الى الحبشة

الفصل الأول:

الهجرة الى الطائف

لا بد من تحرك جديد:

لقد فقد النبي الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» برفاة أبي طالب نصيراً قوياً، دافع عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وعن دعوته الالهية، بيده ولسانه، وشعره، وولده، وعشيرته، وكل مواهبه وطاقاته، وضحي من أجله بمركزه وماله وعلاقاته الاجتماعية، كما قدمنا - فاعتقدت قريش انه «صلى الله عليه وآله وسلم» سيضعف عزمه عن مواصلة جهوده، بعد أن مات ناصره. فنالته بعد وفاة شيخ الابطح بأنواع الاذى، مما عجزت عنه في حياة عمه العظيم، ووجدت الفرصة للتنفيس عن حقدتها، وصب جام غضبها على ذلك الذي ترى فيه سبباً لكل مشاكلها ومتاعبها.

ورأى «صلى الله عليه وآله وسلم» أن الدعوة الاسلامية تتعرض لضغوط قوية تمنع من انتشارها، ومن دخول الآخرين فيها، ما داموا لا يرون في ذلك الدخول إلا العذاب والنكال، وإلا الذل والمهانة. بل يمكن أن يتعرض ما حصل عليه، وجاهد من أجله وفي سبيله لأخطار ربما لا يكون في وسعه مواجهتها وتجاوزها بنجاح تام.

ومن هنا فقد كان لا بد من تحرك جديد، يعطي للدعوة دفعة جديدة، ويجعلها أكثر حيوية، وأكثر قدرة على مواجهة الاخطار المحتملة

٢٦٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وإذا كان بقاءه «صلى الله عليه وآله وسلم» في مكة - إن لم يكن فيه خطر على الدعوة - معناه جمودها، وتحجيمها، وشل حركتها، فإن من الطبيعي أن يبحث عن مكان آخر تتوفر فيه له حرية الحركة، والدعوة إلى الله، بعيداً عن أذايا قريش ومكائدها. ويتوفر فيه متنفس لهؤلاء المسلمين الذين تنالهم قريش بمختلف أنواع العذاب والتنكيل، قبل أن يتطرق اليأس إلى نفوسهم، وينهاروا أمام تلك الضغوط التي يتعرضون لها باستمرار.

فكان كل ذلك وسواه دافعاً إلى الهجرة إلى الطائف.

الهجرة إلى الطائف في كلمات المؤرخين:

فبعد أن أذن الله له «صلى الله عليه وآله وسلم» بالخروج من مكة إذ قدمات ناصره؛ خرج إلى الطائف، ومعه علي «عليه السلام»^(١) - أو زيد بن حارثة أوهما معاً^(٢) على اختلاف النقل - وذلك لليلتين من شوال سنة عشر.

فأقام في الطائف عشرة أيام، وقيل: شهراً، لا يدع من أشرفهم أحداً إلا جاءه، وكلمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أحداثهم؛ فطلبوا منه أن يخرج عنهم، وأغروا به سفهاءهم؛ فجلسوا له في الطريق صفيين، يرمونه بالحجارة، وعلي «عليه السلام» يدافع عنه، حتى شج في رأسه، أو أن الذي شج في رأسه هو زيد بن حارثة.

ويقولون: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» التجأ إلى بستان لعبته وشيبة ابني ربيعة، وجلس في أحد جوانبه، فتحركت عاطفة ابني ربيعة،

(١) سيرة المصطفى ص ٢٢١/٢٢٢ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٤ ص ٩٧ عن الشيعة.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ١٢٧ عن المدائني وسيرة المصطفى ص ٢٢١/٢٢٢.

الفصل الأول: الهجرة الى الطائف ٢٦٧

وهما يريان ما به من الجهد، فأرسلا اليه غلامهما عداساً وهو نصراني من أهل نينوى - بعنب، فوضعه بين يديه، فمد إليه يده، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فتعجب عداس من ان يكون بهذا البلد أحد يذكر الله، وجرت بينهما مكالمة انتهت باسلام عداس. فقال احدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك.

ثم انصرف «صلى الله عليه وآله وسلم» راجعا الى مكة، فاستعد اعداؤه للقاءه بأنواع من الاذى لم يعرفها من قبل.

ولكنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان مصمما على مواجهة كل الاحتمالات؛ حيث قال لرفيقه علي، اوزيد: إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه.

فطلب من الأخنس بن شريق ان يجيره ليتمكن من دخول مكة، فرفض على اعتبار انه حليف، والحليف لا يجير على الصميم^(١).

ثم طلب من سهيل بن عمرو أن يجيره، فرفض أيضاً، لأنه من بني عامر فلا يجير على بني كعب، فدخل مكة بجوار المطعم بن عدي، الذي تجهز ومن معه بالسلح لحمايته؛ فأمضت قريش جواره.

ويقول البعض: إنه رد عليه جواره من أول يوم وصوله. وقال آخرون: بل استمر في جواره مدة.

هكذا باختصار يروي المؤرخون قضية الهجرة الى الطائف، ثم العودة منها.

هجرات أخرى له «صلى الله عليه وآله وسلم»:

ويقولون أيضاً: إنه بعد وفاة عمه خرج إلى بني صعصعة، ومعه

(١) قد تقدمت مصادر ذلك حين الكلام على هجرة أبي بكر، ثم دخوله مكة بجوار ابن الدغنة.

٢٦٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

علي ؛ فلم يجيبوه ، وغاب عن مكة عشرة أيام .
 وهاجر أيضاً مع علي وأبي بكر الى بني شيبان ، وغاب ثلاثة عشر يوماً ، فلم يجد عندهم نصرة^(١) .
 ولا بد لنا هنا من وقفات لبيان بعض الامور التي ترتبط بما تقدم ، ونراها هامة ، الى حد ما ، وهي التالية :

١ - ما ذكر عن عداس :

إننا نشك فيما ذكر من دور عداس ، وأكله «صلى الله عليه وآله وسلم» العنب المهدى اليه ، وذلك لما يلي :

أولاً : ما تقدم في الفصل السابق من أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يكن يقبل هدية مشرك ، ولا يرضى بأن يكون له أي فضل او نعمة عليه ، يستحق بها المكافأة . فكيف قبل هدية ابني ربيعة المشركين ، ورضي بأن يكون لهما فضل عليه؟! إلا أن يقال : إنما قبل هدية عداس ، ولعله لم يكن يعلم أن ابني ربيعة هما اللذان أرسلاه .

وثانياً : إن هذه الرواية تنص على أن عداساً قد أسلم . مع ان البعض ينص على أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد عاد من الطائف محزوناً ، لم يستجب له رجل ولا امرأة^(٢) .

إلا أن يقال : إن المراد : أنه لم يستجب له أحد من الأحرار ، او لم يستجب له أحد من أهل نفس البلد . وعداس من أهل نينوى .

ثالثاً : كان قد مضى على دعوة الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» الناس الى الاسلام حوالي عشر سنوات ، وكانت شهرة دعوته قد تجاوزت مكة الى غيرها من الاقطار والامصار . وأصبح ذكره وذكر ما جاء به على

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ٤ ص ١٢٦ .

(٢) راجع : طبقات ابن سعد ج ١ القسم الأول ص ١٤٢ .

الفصل الأول: الهجرة الى الطائف ٢٦٩

كل شفة ولسان .

كما أنه قد مضى على وجود النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في الطائف نفسها عشرة أيام، أو شهر وهو يدعو الناس الى الله، لا يفتر ولا يمل فكيف إذن يتعجب عداس من ذكر الله في ذلك البلد؟! .

فهل من المعقول: أن يكون عداس لم يسمع بذكره «صلى الله عليه وآله وسلم» ولا بدعوته هذه المدة كلها، سواء مدة وجوده في الطائف، أو مدة دعوته الى الله في المنطقة؟! .

وقد قدمنا بعض الكلام عن عداس في مناقشتنا لروايات بدء الوحي فلا نعيد .

٢ - دخوله «صلى الله عليه وآله وسلم» مكة بجوار:

وتقدم: أن الأخنس بن شريق، وسهيل بن عمرو لم يقبلا أن يجيرا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ليدخل مكة . واحتج الاخنس بانه حليف، والحليف لا يجير على الصميم . فدخل «صلى الله عليه وآله وسلم» بجوار المطعم بن عدي، ونحن نشك في ذلك أيضاً .

فأولاً: قد قدمنا: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يكن يقبل ان يكون لمشرك عنده يد يستحق الشكر عليها . وهذه يد ولا شك .

وثانياً: كيف لم يعلم النبي الذي بلغ من العمر حوالى خمسين عاماً، ويعيش بين العرب، كيف لم يعلم طيلة هذه المدة: أنه ليس للحليف أن يجير على الصميم عندهم؟! .

وان بني عامر لا تجير على بني كعب؟! .

وثالثاً: أليس هذا يعتبر ركناً للظالمين، ولغير أهل دينه، والله تعالى يقول: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ . ويقول: ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا، فتمسكم النار﴾^(١)؟

(١) سورة هود الآية ١١٣ .

٢٧٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

إلا ان يجاب عن هذا بالنفي ، فإن هذا المقدار من الركون ليس بمقصود في الآية .

ورابعاً: إننا نجد عثمان بن مظعون يرد جوار الوليد بن المغيرة ، رغبة منه في مواساة أصحابه ؛ فهل يعقل أن يكون النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أقل من ابن مظعون في ذلك؟! ولا يستطيع الصبر على تحمل المشاق والاذى الذي استعدت قريش لتتاله به؟ إن ذلك لعجيب حقاً!! .

ثم لماذا لم يخف من الاذى حين رد على المطعم جواره ، لا سيما إذا كان قد رده عليه من أول يوم؟! .

وأما أنه كان يخشى على نفسه القتل ، فلذلك طلب الجوار؛ فجوابه أنه كان يعلم : أن قريشاً لا تستطيع ذلك . وأنها تعرف : أنه في غير صالحها في تلك الظروف ، وبالأخص إذا كان ذلك علناً .

ثم أين كان عنه الهاشميون في تلك الساعة؟ ولماذا لا يحمون كبيرهم وسيدهم حتى يحتاج الى جوار الآخرين؟! .

وأين كان عنه أسد الله وأسد رسوله ، الذي فعل بأبي جهل ما فعل كما تقدمت الإشارة إليه؟! .

٣ - إسلام نفر من الجن:

ويذكر هنا: أنه وهو «صلى الله عليه وآله وسلم» منصرف من الطائف الى مكة ، التقى ببعض الجن ، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا به ، ورجعوا الى قومهم ، مبشرين ومنذرين ، فقص الله خبرهم في سورة الجن ، فقال : ﴿ قل اوحى الي : أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي الى الرشدا ﴾ .

ولكن الظاهر: أن قضية الجن قد كانت في أوائل البعثة؛ حيث إن الرواية تذكر: أنه لما بعث النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، حيل بين

الفصل الأول: الهجرة الى الطائف ٢٧١

الجن وبين استراق السمع في السماء، وأرسلت عليهم الشهب، ففهموا: أن ذلك إنما هو لحدث جرى في الارض فعادوا اليها، وبحثوا عن الأمر، فوجدوا أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد بعث، فاستمعوا القرآن وآمنوا، فنزلت الآية^(١).

وفي رواية أخرى: أن ابليس أرسل جنوده ليكشفوا له الأمر، فعادوا إليه بنبأ بعثته «صلى الله عليه وآله وسلم»^(٢).

والى ما ذكرناه من كون ذلك في أوائل البعثة ذهب ابن كثير أيضاً^(٣).

ويدل على ذلك أيضاً: أن عدداً من الروايات تذكر: أن ابن مسعود كان معه «صلى الله عليه وآله وسلم» ليلة الجن^(٤). وابن مسعود من المهاجرين الى الحبشة، فلا بد أن تكون القضية قد حدثت قبل هجرته اليها، أي قبل الخامسة من البعثة.

٤ - الطائف وعلاقتها بمن حولها:

إن أهل الطائف كانوا مرتبطين إقتصادياً بأهل مكة، ومن حولهم، لأنهم كانوا يصدرون الفاكهة التي هي عمدة محاصيلهم إلى مكة وغيرها

(١) راجع: الدر المنثور ج ٦ ص ٢٧٠/٢٧٥، عن: البخاري، ومسلم، وعبد بن حميد، وأحمد، والترمذي والنسائي، والحاكم، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي معاً في الدلائل وغير ذلك. وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠٣-٣٠٤ ويقال: إن آيات سورة الاحقاف قد نزلت حين رجوعه من الطائف بهذه المناسبة. ولكن يدفع ذلك ما في الدر المنثور ج ٦ ص ٤٥ عن مسلم، وأحمد، والترمذي، وعبد بن حميد وغيرهم.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠٤.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠٣ عن المواهب اللدنية.

(٤) تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٠٤.

٢٧٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

من الأطراف المحيطة بهم .

فهم يرون مصيرهم مرتبطاً إقتصادياً وإجتماعياً بغيرهم ، وهم بحاجة إلى التقرب والتزلف إلى ذلك الغير ، واستجلاب محبتهم ورضاهم ، حتى لا يتعرضوا للضغط الاجتماعي ، أو إلى حصار إقتصادي - كما جرى لبني هاشم - من قبل من يحيط بهم ، لا سيما من المكين ، حيث السوق الرئيس لمنتجاتهم .

ثم إنه قد كان لهم صنم يقال له اللات ، وكان له سدنة . ويزوره العرب^(١) فكان لهم مركز ديني أيضاً بين العرب ، يهتمون جداً بالمحافظة عليه .

ومن هذا وذاك ، نعرف السرفي انهم كانوا اشداء في مواجهة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، وحريصين على اخراجه من بينهم بسرعة .

ويشار هنا : إلى ان أهل الطائف الذين قتلوا عروة بن مسعود الداعي إلى الإسلام قد تأخر اسلامهم إلى أواخر حياة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فوفدوا عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» في سنة تسع ، سنة الوفود ولم يؤمنوا إلا بعد أن ادركوا : أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب . فلا يخرج لهم مال إلا نهب ، ولا إنسان إلا أخذ ؛ فلما رأوا عجزهم اجتمعوا وأرسلوا . الخ^(٢) .

(١) الاصنام للكلبي ص ١٦ ، والسيرة النبوية لدحلان مطبوع بهامش الحلبية ج ٣ ص ١١ وتاريخ الخميس ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) راجع : الكامل في التاريخ ج ٢/٢٨٣ وراجع أيضاً : السيرة النبوية لدحلان ج ٣ ص ٩ مطبوع بهامش الحلبية والسيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ١٨٣ وتاريخ الخميس ج ٢ ص ١٣٥ .

الفصل الأول: الهجرة الى الطائف ٢٧٣

٥ - الإسلام دين الفطرة:

إننا نلاحظ، أن أهل الطائف قد خافوا على أحداثهم من دعوة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، رغم أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يقيم بينهم سوى فترة قصيرة جداً. الأمر الذي يؤكد على أن الإسلام كان يجد سبيله يسر وسهولة إلى العقول الصافية والنفوس البريئة وينسجم مع الفطرة السليمة، التي لم تتلوث بعد بالمفاهيم المنحرفة، ولم تطغ عليها عوامل المصالح الشخصية، والعواطف القبلية، وغير ذلك.

وكيف لا يجد سبيله إليها يسر، وهو الدين القائم على الدليل والبرهان العقلي، والمنسجم مع الفطرة، وهو دين الضمير والوجدان الحي.

ومن هنا، فإننا نلاحظ: أنهم لم يمكنهم الرد عليه ومناقشته، بل طلبوا منه أن يخرج من بينهم، وحاولوا أن يشوهوا صورته في أذهان أولئك الذين استمعوا إليه، - وفي أذهان الصغار الذين اغروهم به «صلى الله عليه وآله وسلم» والذين يمكن أن تؤثر فيهم دعوته - بما استعملوه ضده من أساليب غير منطقية، وإنما تتميز بالاهانة والأذى، ثم السخرية والاستهزاء الجارح والمهين.

٦ - هل كانت هذه سفرة فاشلة؟!

ولربما يتساءل البعض: عن الفائدة لهذه الرحلة الفاشلة؟ وفي جوابه نقول: إن هذه الرحلة لم تكن فاشلة، كما ربما يتصور البعض.

فإن من الطبيعي أن تترك هذه الحادثة آثاراً إيجابية من نوع ما في أذهان من التقى بهم، وكلمهم، وإن ثمر فيما بعد ثمارها المطلوبة والمرجوة

٢٧٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

منها. حيث قد أثرت بشكل واضح في تهيئة الجو لإيمان ثقيف فيما بعد ذلك عندما قويت شوكة الإسلام، ولم تعد تخشى الضغوط الاقتصادية والاجتماعية عليها ممن حولها، ولا سيما من قريش بل أصبح الضغط من جانب المسلمين لأن القبائل كانت تفد الى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فتعلن عن إسلامها، ويكتب لها كتاباً، ويشترط قطع العلاقات مع المشركين فأخافهم ذلك وأرعبهم.

وقد كانت قريش تشيع عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: أنه مجنون أو ساحر، أو كاهن الخ، فها هو «صلى الله عليه وآله وسلم» يتصل بالناس مباشرة، ويلمسون بأنفسهم حقيقة الأمر، ويتعرفون عن قرب على شخصيته وخصائصه، بحيث تسقط كل الإشاعات الكاذبة والمغرضة؛ وليصير الإيمان به وبرسالته، وبنبوته أسهل وأيسر، وليصبح أكثر قوة وعمقاً ورسوخاً.

الفصل الثاني:

حتى بيعة العقبة

المجاعة:

ثم هاجت الأزمة، وهي الجوع في قريش، وأهل مكة، وكان ذلك بدعاء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الذي دعا عليهم - حتى أكلوا العلhez^(١)، والقد، وحتى أحرقوا العظام فأكلوها واكلوا الكلاب الميتة، والجيف، ونبشوا القبور، وأكلت المرأة طفلها. . وحتى كان الرجل يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان؛ فشغل ذلك الناس بأنفسهم وبمشاكلهم، فأتيحت الفرصة للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» - ولو لفترة قصيرة - ليتحرك في سبيل دينه ورسالته داعياً الى الله، ومجاهداً في سبيله.

فلما دخلت سنة إحدى عشرة من البعثة، جاء أبو سفيان الى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فقال: يا محمد، جئت بصلة الرحم، وقومك قد هلكوا جوعاً، فادع الله لهم، فدعا رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» لهم؛ فكشف عنهم يقول الله عز وجل: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾^(٢).

(١) العلhez: دم يابس يذق به اوبار الابل في المجاعات ويؤكل.

(٢) الدخان/١٥. راجع: البدء والتاريخ ج ٤ ص ١٥٧، وتفسير البرهان ج ٤ ص ١٦٠ عن المناقب لابن شهر آشوب.

٢٧٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

فإن الظاهر هو ان هذه الآية قد جاءت جواباً لقولهم : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . ثم تحدث عنهم تعالى بأسلوب الغائب مشيراً الى ما صدر منهم سابقاً مما يدل على عدم وثوقه في وعدهم ، ثم عاد الى خطابهم بالآية الأنفة الذكر، متوعداً إياهم بالعذاب الأليم في الآخرة في صورة عودتهم الى العناد.

ونشير هنا : إلى ان رجوع أبي سفيان الى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ليؤكد على أن المشركين كانوا يعرفون أن ما جاء به «صلى الله عليه وآله وسلم» هو الحق ، ولكنهم حجدوا ذلك استكباراً وعتواً، وعلواً، وحفاظاً على الإمتيازات الظالمة التي جعلوها لأنفسهم .

ومن الجهة الثانية ، فإننا نجده «صلى الله عليه وآله وسلم» يستجيب لطلب أبي سفيان ، ولكن ليس فقط لاجل ما ذكره من لزوم صلة الرحم ؛ لأن الاسلام هو الصلة الحقيقية بين أبناء البشر جميعاً ، وعلى أساسه تكون الأخوة بينهم . وإنما يستجيب له ليعطيه دليلاً جديداً على أحقية ما جاء به ، وليقيم الحجة عليه ، وعلى كل من يرى رأيه ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة . وليمنح الفرصة للذين يعيشون بعيداً عن الأضواء ، وليس لهم مصالح دنيوية كبيرة ، ليفكروا بموضوعية وتجرد ؛ بعيداً عن الاجواء المصطنعة .

عرض الإسلام على القبائل:

لقد كان النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» يغتنم الفرصة في مواسم الحج ؛ فيعرض على القبائل ، قبيلة قبيلة ، أن تعتنق الإسلام ، وتعمل على نشره وتأيينه ، وحمايته ونصرته . بل كان لا يسمع بقدام الى مكة ، له إسم وشرف ، إلا تصدى له ، ودعاه الى الإسلام . ولكن عمه أبا لهب كان يتبعه أنى توجه ، ويعقب على كلامه ، ويطلب منهم ان لا يقبلوا منه ولا يطيعوه في شيء . هذا بالإضافة الى اتهامه

الفصل الثاني: حتى بيعة العقبة ٢٧٩

بالجنون، والسحر والكهانة، والشعر، وغير ذلك.

وكان الناس في الغالب يسمعون من قريش! إما خشية من سلطانها ونفوذها، وإما حفاظاً على مصالحهم الاقتصادية في مكة، لا سيما في مواسم الحج، وعكاظ.

كما أن تصدي أبي لهب عم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بالذات لإفساد الأمر عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان أبعد تأثيراً في ذلك، على اعتبار: أنه عمه، وأعرف الناس به.

ولقد افادت تحركات النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» هذه، حيث إنهم بعد أن ذهب شوكة قريش، وخمد عنفوانها، وأصيب نفوذها بنكسة قوية بسبب ظهور دعوته وانتشار دينه «صلى الله عليه وآله وسلم»، وتوالي انتصاراته عليها، ولا سيما بعد فتح مكة. بدأت وفادات العرب تترى إلى المدينة، بعد أن أمنا غائلة عداء قريش، ليعلموا عن ولائهم ومساندتهم، لأن دعايات قريش وإشاعاتها الكاذبة قد ذهب أثرها، وبطل مفعولها، لأنهم قد رأوا هذا النبي عن قرب، وعرفوا فيه رجاحة العقل، واستقامة الطريقة، منذ اجتمعوا به في تلك المواسم، وعرض دعوته عليهم.

وقد صرح المؤرخون بأن العرب كانوا ينتظرون بإسلامهم قريشاً وكانوا إمام الناس، وأهل الحرم، وصريح ولد إسماعيل لا تنكر العرب ذلك.

فلما فتحت مكة واستسلمت قريش عرفت العرب أنها لا طاقة لها بحرب رسول الله ولا عداوته، فدخلوا في الدين أفواجا^(١).

بل إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» حينما كان يعرض دعوته على القبائل كانوا يردون عليه. أقبح الرد، ويقولون: اسرتك وعشيرتك أعلم

(١) راجع الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٨٦/٢٨٧.

٢٨٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣
بك حيث لم يتبعوك^(١).

وهذا يدل على ان الخوف من قريش لم يكن هو الدافع الوحيد
للامتناع عن الدخول في الاسلام لا سيما وأن الكثيرين من العرب كانوا
بعيدين عن مكة، ولا يخشون سطوتها.

ونقطة أخرى لا بد من الإشارة اليها. وهي ان تحرك النبي «صلى
الله عليه وآله وسلم» وعرض دين الله على القبائل، وهجراته المتعددة في
سبيله ليعتبر إدانة للمنطق القائل: إن على صاحب الدعوة: أن يجلس في
بيته، ولا يتحرك، وعلى الناس أن يقصدوه ويسألوه عما يهمهم،
ويحتاجون اليه.

بنو عامر بن صعصعة، ونصرة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»:

ونشير هنا الى واقعة هامة، حدثت في خلال عرض النبي «صلى
الله عليه وآله وسلم» دعوته على القبائل، وهي:
ان رسول «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أتى بني عامر بن صعصعة،
فدعاهم الى الله، وعرض عليهم دعوته فقال لهم رجل منهم، إسمه:
«بيحرة بن فراس»: والله، لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به
العرب. ثم قال له: رأييت إن نحن بايعناك على امرك، ثم اظهرك الله على
من خالفك، أ يكون لنا الأمر من بعدك؟

قال: الامر لله، يضعه حيث يشاء.

فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فاذا اظهرك الله كان الأمر
لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك.

فأبوا عليه. فلما صدر الناس، رجع بنو عامر الى شيخ لهم؛ فسألهم
عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبد

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣.

الفصل الثاني : حتى بيعة العقبة ٢٨١

المطلب، يزعم أنه نبي، يدعوننا الى أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به الى بلادنا.

فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلاف؟ هل لذئابها من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم! (١)

ومثل ذلك جرى له «صلى الله عليه وآله وسلم» مع قبيلة كندة، كما ذكره أبو نعيم في دلائل النبوة (٢).

ونحن نسجل هنا ما يلي:

١ - الأمر لله:

لقد نصت الرواية على أن الأمر لله يضعه حيث يشاء، ونستفيد من ذلك:

ألف: أن الرسول لم يعط هؤلاء وعداً بما طلبوه منه، من جعل الأمر لهم بعده، بل أجابهم بأن الأمر لله، يضعه حيث يشاء أي أنه لا يمكن أن يعد بما لا يعلم قدرته على الوفاء به، تماماً على العكس من السياسيين الذين عرفناهم في عصرنا الحاضر، وعلى مآل العصور الذين لا يتورعون عن إغداق الوعود المعسولة على الناس، حتى إذا وصلوا الى غايتهم، وجلسوا على كرسي الزعامة فإنهم ينسون كل ما قالوه، وما وعدوا به.

ولكن نبي الإسلام الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» رغم أنه كان

(١) راجع: سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٦، والثقات لابن حبان ج ١ ص ٨٩-٩١، بهجة المحافل ج ١ ص ١٢٨، وحياة محمد لهيكل ص ١٥٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٤٧، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣، والروض الانف ج ١ ص ١٨٠، والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٩، و ١٤٠، وعن دلائل النبوة لابي نعيم ص ١٠٠ وحياة الصحابة ج ١ ص ٧٨ و ٧٩.

(٢) راجع: البداية والنهاية ج ٣ ص ١٤٠.

٢٨٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

بأمر الحاجة الى من يمد له يد العون لا سيما من قبيلة كبيرة تملك من العدد والعدة ما يمكنها من حمايته، والرد عنه. إلا إنه يرفض ان يعد بما لا يملك الوفاء به، حتى ولو كان هذا الوعد يجز عليه الربح الكثير فعلاً.

ب - إن جواب النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لهم بقوله: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» يؤيد ما يذهب إليه أهل البيت (ع) وشيعتهم الا برار رضوان الله تعالى عليهم، من ان خلافة النبوة ليست من المناصب التي يرجع البت فيها الى الناس. بل هي منصب الهي، والأمر لله فيها، يضعه حيث يشاء.

٢ - سمو الهدف، والنظرة الضيقة:

وإن عرض هذه القبيلة مساعدتها على النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بهذا النحو، إنما يدل على أنها لا تريد في مساعدتها له وجه الله سبحانه، ولا تنطلق في موقفها ذاك من قاعدة إيمانية قوية، وقناعة عقائدية راسخة، ولا طمعاً بثواب الله، ولا خوفاً من عقابه.

وإنما تنطلق في ذلك من نظرة ضيقة، مصلحية تجارية بالدرجة الأولى: وتريد من نصرها له أن تأكل به العرب، وتحصل على المجد والسلطان.

ومن الواضح - بناء على هذا - أن نصرها له لسوف ينتهي، عندما تجد: أن مصلحتها قد انتهت، وحصلت على كل ما تريد، أو حينما ترى: أن تجارتها الدنيوية قد خسرت، بل لربما تنقلب عليه إذا رأت فيه عائناً يمنعها من تحقيق أهدافها، أو الاحتفاظ بالامتيازات الظالمة التي تفرضها لنفسها.

وهكذا يتضح: أن الاعتماد على من يفكر بعقلية كهذه، ويتعامل من منطلق كهذا ليس إلا اعتماداً على سراب، إن لم يجز على من يعتمد عليه البلاء والعذاب.

الفصل الثاني : حتى بيعة العقبة ٢٨٣

٣ - الدين، والسياسة:

وقد لاحظ بعض المحققين هنا: أن هذا العربي، وهو من بني عامر بن صعصعة، لما أخبروه بما يدعو إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونقلوا إليه ما جرى لهم معه قد أدرك: أن هذا الدين ليس مجرد ترهيب في الصوامع، وصلاة، ودعاء، وأوراد، وأذكار، بل هو دين يشتمل على التدبير والسياسة، والحكم، ولأجل هذا قال: «لو أني أخذت هذا الفتى (يعني محمداً بماله من الدعوة الشاملة) لأكلت به العرب».

ولقد سبقه إلى إدراك هذه الحقيقة شيخ الأنصار أسعد بن زرارة، لما قدم إلى مكة، وعرض عليه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ما يدعو إليه، فرأى: أن فيه وفي دعوته ما يصلح مجتمعه، ويعالج مشاكلهم المستعصية بينهم وبين إخوانهم من الأوس، وعلى هذا كانت الهجرة^(١).

وقد أدرك ذلك أيضاً نفس أولئك الذين اشترطوا على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يكون لهم الأمر من بعده، فرفض صلى الله عليه وآله وسلم طلبهم. وسيأتي ذلك عن عامر بن الطفيل، في غزوة بئر معونة.

فما أبعد ما بين فهم هؤلاء للإسلام، ولدعوة القرآن، حتى إن هذا الفهم هو الذي مهد لإسلام الأنصار، ثم الهجرة. وكذلك لبيعته (بيعة العقبة الأولى والثانية)، واختيار النقباء والكفلاء على المبايعين، وبين ذلك الذي يعتبر الدين منفصلاً عن السياسة، وأن السياسة أمر غريب عن الدين. فإن ذلك ولا شك من القاءات الاستعمار، ومن الفكر المسيحي الغريب المستورد، كما هو ظاهر.

(١) راجع: البحار ج ١٩ ص ٩ واعلام الورى ص ٥٧ عن القمي.

٢٨٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

٤ - نتائج عرضه «صلى الله عليه وآله وسلم» دعوته على القبائل:

ويمكننا: أن نستفيد مما تقدم:

١ - ما تقدمت الإشارة إليه، من أن مقابلة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم للناس، والتحدث معهم مباشرة كان من شأنه: أن يعطي الناس الانطباع الحقيقي عن شخصية الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم»، وحقيقة ما جاء به. ويدفع كل الدعايات والإشاعات الكاذبة، والمغرضة، التي كانت تبثها قريش وأعوانها، ككونه ساحراً، أو كاهناً، أو شاعراً، أو مجنوناً، أو غير ذلك من ترهات.

٢ - إن ما جرى في قضية بني عامر ليدل دلالة واضحة: على أن عرضه صلى الله عليه وآله وسلم دعوته على القبائل، قد أسهم في الدعاية لهذا الدين، ونشر صيته، في مختلف الأنحاء، والأرجاء، فقد كان من الطبيعي أن يتحدث الناس، إذا رجعوا إلى بلادهم بما رأوه وسمعوه في سفرهم ذاك ولم يكن ثمة خبر أكثر إثارة لهم من خبر ظهور هذا الدين الجديد، وفي مكة بالذات.

زواج النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بسودة وعائشة:

ويقولون: إن النبي صلى الله عليه وآله قد تزوج بسودة بنت زمعة، وعقد على عائشة بنت أبي بكر وكان ذلك بعد عشر سنوات من البعثة.

ولا نجد لسودة دوراً هاماً في التاريخ، ولا في حياة النبي صلى الله عليه وآله، أو بعده وكل الاهتمامات مركزة على عائشة، حتى لقد حكموا باستحباب العقد في شوال، لأنه صلى الله عليه وآله قد تزوج عائشة في شوال^(١)!! مع أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه تزوج غيرها في أشهر أخرى!!.

(١) نزهة المجالس ج ٢ ص ١٣٧.

الفصل الثاني : حتى بيعة العقبة ٢٨٥

وعلى كل حال ، فانا لن نستطيع أن نُلمَّ في هذه العجالة بجميع ما قيل ، أو يقال حولها ؛ فإن ذلك متعسر ، بل متعذر ولذلك فنحن نكتفي بذكر أمرين لهما صلة بموضوع زواجه «صلى الله عليه وآله وسلم» بها . ولربما يأتي إن شاء الله بحوث أخرى لجوانب أخرى مما يرتبط بها .

وهذان الأمران هما : سنَّ عائشة وجمالها وحظوتها عند النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ؛ فنقول :

١ - سنَّ عائشة :

ويقولون : إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد عقد على عائشة ، وهي بنت ست سنين ، أو سبع . ثم انتقلت إلى بيته بعد هجرته إلى المدينة ، وهي بنت تسع . وهذا هو المروي عنها^(١) .

ونحن نقول : إن ذلك غير صحيح ، وأن عمرها كان أزيد من ذلك بكثير ، ونستند في ذلك إلى ما يلي :

أولاً : إن ابن إسحاق قد عدَّ عائشة في جملة من أسلم أول البعثة ، قال : وهي يومئذ صغيرة . وأنها أسلمت بعد ثمانية عشر إنساناً فقط^(٢) . فلو جعلنا عمرها حين البعثة سبع سنين مثلاً فإن عمرها حين العقد عليها كان ١٧ سنة ، وحين الهجرة ٢٠ سنة .

(١) راجع فيما ذكرناه : طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٣٩ ، والاصابة ج ٤ ص ٣٥٩ ، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٤١٣ وتهذيب التهذيب ج ١٢ ، وأسد الغابة ج ٥ وغير ذلك وراجع : شرح النهج للمعتزلي ج ٩ ص ١٩٠ لكنه ناقض نفسه ص ١٩١ فقال : انها توفيت سنة ٥٧ هـ . وعمرها ٦٤ سنة ، وهذا يعني أنها كان عمرها حين الهجرة سبع سنوات فقط .

(٢) راجع : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧١ ، وتهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ٣٥١ و ٣٢٩ عن ابن أبي خيثمة في تاريخه عن ابن اسحاق ، والبدء والتاريخ ج ٤ ص ١٤٦ .

٢٨٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ثانياً: وفي مقام رفع التنافي بين قوله «صلى الله عليه وآله وسلم» لفاطمة: أنها سيدة نساء العالمين، وبين ما نسب إليه «صلى الله عليه وآله وسلم» من أنه لم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وأن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام^(١).

يقول الطحاوي: «قد يحتمل أن يكون ما في هذا الحديث قبل بلوغ فاطمة، واستحقاقها الرتبة التي ذكرها رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» لها. إلى أن قال: وأن كل فضل ذكر لغير فاطمة، مما قد يحتمل أن تكون فضلت به فاطمة، محتملاً لأن يكون وهي حينئذٍ صغيرة، ثم بلغت بعد ذلك الخ»^(٢).

لقد قال الطحاوي هذا، بعد أن جزم قبل ذلك بقليل، بأن فاطمة صلوات الله وسلامه عليها كان عمرها حين توفيت خمساً وعشرين سنة^(٣).

وهذا يعني أنها قد ولدت قبل البعثة بستين، والفرض: أن فاطمة كانت صغيرة حينما كانت عائشة بالغة مبلغ النساء.

وثالثاً: يذكر ابن قتيبة أن عائشة قد توفيت سنة ٥٨ - وعند غيره سنة ٥٧ هـ - وقد قاربت السبعين^(٤) ولضم ذلك إلى ما يقوله البعض من أن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بثلاث، أو بأربع، أو بخمس سنين ثم ما

(١) راجع: السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٣٧.

(٢) مشكل الآثار ج ١ ص ٥٢.

(٣) مشكل الآثار ج ١ ص ٤٧. وقد حمل بعض العلماء حديث فضل عائشة كفضل الثريد الخ. على المزاح منه «صلى الله عليه وآله وسلم» معها؛ لأن جوها لا ينسجم مع جو التفضيل كما في قوله «صلى الله عليه وآله وسلم»: فاطمة سيدة نساء العالمين، ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية الخ. ولا سيما بملاحظة: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يكن من المهتمين بأمور الاطعمة، واللذيق منها ليأتي بها كمثال على تفضيل في أمر حساس كهذا.

(٤) المعارف لابن قتيبة ص ٥٩ ط سنة ١٣٩٠ هـ.

الفصل الثاني: حتى بيعة العقبة ٢٨٧

روي عن عائشة من قولها: تزوجني رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، وأنا بنت تسع سنين^(٢).

[ولعل هذه الرواية هي الأقرب بقرينة ما قدمناه، ولكثرة الخلط بين كلمتي «سبع» و«تسع» بسبب عدم نقط الكلمات في السابق. بل أن هذا الرقم أيضاً مشكوك فيه لما تقدم، ولأن المرأة تميل إلى تقليل مقدار عمرها عادة].

فكلام ابن قتيبة والذي بعده يدل على أنها قد ولدت أما سنة البعثة أو قبلها. وهذا الثاني هو الأرجح لما قدمناه. في المستند الأول والثاني. إذن، فيكون عمر عائشة حين عقد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عليها في سنة عشر من البعثة أكثر من ست سنين بكثير، أي ما بين ثلاثة عشر إلى سبعة عشر سنة.

من طرائف الروايات الموضوعة:

ومن الموضوعات الغريبة في هذا المجال، ما جاء عن أبي هريرة: من أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لما دخل المدينة، واستوطنها طلب التزويج؛ فقال لهم: أنكحوني. فأتاه جبرئيل بخرقة من الجنة فيها صورة لم ير الراؤون أحسن منها، وأبلغه أمر الله له: أن يتزوج على تلك الصورة.

فقال له النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: أنا من أين لي مثل هذه الصورة يا جبرئيل؟

فقال له: إن الله يقول لك: تزوج بنت أبي بكر الصديق. فمضى رسول الله إلى منزل أبي بكر، ففرع الباب، ثم قال: يا أبا بكر، إن الله أمرني أن أصاهرَكَ، فعرض عليه بناته الثلاث فقال: إن الله أمرني أن

(١) راجع: حديث الإفك ص ٩٣.

٢٨٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

أتزوج هذه الجارية وهي عائشة، فتزوجها رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»^(١). انتهى باختصار.

وعدا عما في سند هذه الرواية، فاننا نقول:

أولاً: لم نفهم كيف يتصرف النبي تصرفاً لا يصدر عن العقلاء الذين يحترمون أنفسهم، فيطلب التزويج من الناس، ويقول لهم: أنكحوني!! إلا أن يكون صبيّاً صغيراً، لا حياء عنده، ولا عقل لديه!! والغريب في الأمر: أنه لم يبادر أحد لإجابة طلبه هذا، بل عاملوه بالجفاء، وأهملوا تنفيذ طلبه، حتى جاء جبرئيل فتولى حلّ مشكلته.

وثانياً: هل صحيح: أن عائشة كانت من الحسن بهذه المثابة: حتى إن صورتها لم ير الراؤون أحسن منها؟! لعل في ما سيأتي مقنعاً وكفاية لمن أراد الرشد، والحق، والهداية.

وثالثاً: لقد تزوج النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عائشة بمكة قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولم يتزوجها في المدينة، وإجماع المؤرخين على ذلك ظاهر للعيان.

ورابعاً: لم نعرف البنات الثلاث اللواتي عرضهن أبو بكر على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فأسماء كانت تحت الزبير، وقدمت المدينة وهي حامل بولدها عبدالله وعائشة قد تزوجت النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في مكة وأم كلثوم، قد ولدت بعد وفاة أبي بكر^(٢). ولم يولد له غيرهن.

وأخيراً، فإن لقب (الصديق) قد جاء إلى أبي بكر بعد وفاة النبي

(١) تاريخ بغداد للخطيب ج ٢ ص ١٩٤، وميزان الاعتدال للذهبي ج ٣ ص ٤٤، وقد كذبا (الخطيب والذهبي) هذا الحديث الذي جميع رجال أسناده ثقات باستثناء محمد بن الحسن الدّعاء الأصم. وراجع: الغدير ج ٥ ص ٣٢١.

(٢) راجع: نسب قریش لمصعب الزبيري ص ٢٧٥ - ٢٧٨ لتعرف من ولدهم أبو بكر.

الفصل الثاني: حتى بيعة العقبة ٢٨٩

صلى الله عليه وآله من محبي الخليفة الأول، كما ربما نشير إليه حين الكلام على قضية الغار إن شاء الله تعالى .

٢ - جمال عائشة وحظوتها:

ونسجل هنا: أن أكثر، إن لم يكن كل ما يقال عن جمال عائشة، وعن حظوتها، وحب النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لها، إنما هو مروي عنها نفسها، أو عن ابن أختها عروة. ونحن نقطع بعدم صحة ذلك كله من الأساس.

فأولاً: لماذا لم يرو ذلك كله إلا من طريق عائشة، أو عروة ابن أختها كما يظهر من تتبع الروايات؟! .

وثانياً: إن ابن عباس يواجهها بعد حرب الجمل بحقيقة: أنها لم تكن أحسن نساء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وجهاً، ولا بأكرمهن حسباً^(١). كما أن عمر إنما يصف زينباً بالحسن، دون عائشة؛ فإنه لم يشر إليها في قليل ولا كثير؛ كما سيأتي.

وثالثاً: قال علي فكري: «وما رواه ابن بكار: من أن الضحاك بن أبي سفيان الكلابي كان رجلاً دميماً قبيحاً؛ فلما بايعه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قال: إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء (يريد عائشة، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب)؛ أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها؟ - وعائشة جالسة تسمع؛ فقالت: أهي أحسن أم أنت؟ فقال: بل أنا أحسن وأكرم.

فضحك رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» من سؤالها إياه (لأنه كان دميماً قبيح الوجه)^(٢)».

(١) الفتوح لابن أعثم ج ٢ ص ٣٣٧ ط الهند.

(٢) السمع المذهب ج ٢ ص ٨-٩.

٢٩٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ورابعاً: قال عباد بن العوام لسهيل بن ذكوان: صف لي عائشة.

قال: كانت أدماء.

وقال يحيى: قلنا لسهيل بن ذكوان: رأيت عائشة؟

قال: نعم.

قيل: صفها.

قال: كانت سوداء^(١)

إذن، فما يقال عنها، أنها كانت شقراء، ثم الاستشهاد على ذلك بقول رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» لها: «يا حميراء». . . يصبح موضع شك وريب كبير.

ولعل قول النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لها ذلك قد جاء على سبيل التلطف والرفق بها. أو لعله إشارة إلى قول العرب: شر النساء الحميراء المحياض^(٢) فقال لها «صلى الله عليه وآله وسلم» ذلك على سبيل المداعبة والتلطف والمزاح.

وخامساً: إن من يتتبع سيرة زوجات النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يجد: أن عائشة هي التي كانت تحسد وتغار من كل زوجة وسُرِّيَّة له «صلى الله عليه وآله وسلم». ويدرك بما لا مجال معه للشك: أن أكثرهن - إن لم يكن كلهن - كنَّ أكثر حظوة لدى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» منها. إن لم نقل أنهن أجمل وأضوء منها أيضاً؛ فإن من الطبيعي أن نجد الدميم هو الذي يحسد على الجمال ويغار، أما الجميل فليس من الطبيعي أن يحسد الدميم، وأن يغار منه.

كما أنه ليس من الطبيعي أن يكون الميل لغير ذات الجمال أكثر منه للجميلة الوضيئة، وقد ذكر في حديث الإفك على لسان أم المؤمنين عائشة

(١) الضعفاء الكبير للعقيلي ج ٢ ص ١٥٥.

(٢) ربيع البرار ج ٤ ص ٢٨٠ وروض الاخيار ص ١٣٠.

الفصل الثاني: حتى بيعة العقبة ٢٩١

قولها: «فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثرن عليها».

ولو صدقنا: أنها كانت هي ذات الحظوة لدى الرسول، وأنه كان يحبها أكثر من غيرها، فلماذا هذه الغيرة، وهذا الحسد منها لهن؟ فإن الحسد لا بد وأن يكون على شيء يفقده الحاسد، ويتمنى زواله عن المحسود، وانتقاله إليه.

وليك بعض موارد غيرة وحسد عائشة لضرائرها.

٣- حسد وغيرة عائشة:

١ - خديجة عليها السلام:

عن عائشة قالت: ما غرت على امرأة كما غرت على خديجة، وما بي أن أكون أدركتها. ولكن لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إياها، وإن كان ليزيح الشاة؛ فيتبع بذلك صدائق خديجة يهديها لهن^(١).

وللحديث عبارات وأسانيد مختلفة لا مجال لها الآن.

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم خديجة يوماً، فغارت أم المؤمنين، فقالت: هل كانت إلا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها؟ وفي لفظ مسلم: «وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدين، هلكت في الدهر، أبدلك الله خيراً منها؟ فغضب صلى الله عليه وآله وسلم»،

(١) صحيح البخاري ج ٩ ص ٢٩٢، وج ٥ ص ٤٨، وج ٧ ص ٤٧، وج ٨ ص ١٠، وصحيح مسلم ج ٧ ص ١٣٤ و ١٣٣، وأسد الغابة ج ٥ ص ٤٣٨، والمصنف ج ٧ ص ٤٩٣، والإستيعاب هامش الإصابة ج ٤ ص ٢٨٦، وصفة الصفوة ج ٢ ص ٨، عن البخاري، ومسلم، وتاريخ الإسلام للذهبي ج ٢ ص ١٥٣، والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٨.

٢٩٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

حتى اهتزز مقدم شعره، ثم قال: لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها الخ الرواية^(١).

وقال العسقلاني والقسطللاني: «وأن عائشة كانت تغار من نساء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، لكن كانت تغار من خديجة أكثر»^(٢).

ولعمري، لقد كان هذا بعد الوفاة، فكيف لو كانت خديجة على قيد الحياة؟! - وإذا كانت غير أم المؤمنين قد بلغت الأموات، فما حالها مع الأحياء. وكيف كانت معاملتها لهن؟!.

٢ - زينب بنت جحش.

لقد اعترفت عائشة في حديث الأفك بأن زينب هي التي كانت تساميتها من أزواج النبي «صلى الله عليه وآله وسلم».

واعترفت عائشة أيضاً: أنها قد أخذها ما قرب وما بعد، حينما أراد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يتزوج زينب، لما كان يبلغهم من جمالها^(٣).

وما فعلته عائشة وحفصة مع زينب، في قضية المغاير مشهور ومسطور، حتى ليقولون: إن هذا هو سبب نزول آية التحريم^(٤)، وإن كنا

(١) صحيح مسلم ج ٧ ص ١٣٤، لكنه لم يذكر جوابه «صلى الله عليه وآله وسلم» وأسد الغابة ج ٥ ص ٥٥٨/٥٥٧ و ٤٣٨ والإصابة ج ٤ ص ٢٨٣، والإستيعاب هامشها ج ٤ ص ٢٨٦/٢٨٧، وصفة الصفوة ج ٢ ص ٨، ومسنند أحمد ج ٦ ص ١١٧، وليراجع البخاري ج ٢ ص ٢٠٢ ط سنة ١٣٠٩ هـ. ق. والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٨ واسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار ص ٩٦.

(٢) فتح الباري ج ٧ ص ١٠٢، وإرشاد الساري ج ٦ ص ١٦٦ وج ٨ ص ١١٣.

(٣) الإصابة ج ٤ ص ٣١٤، وطبقات ابن سعد ج ٨ ص ٧٢، والدر المنثور ج ٥ ص ٢٠٢ عن ابن سعد، والحاكم.

(٤) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٧٦، وحياة الصحابة ج ٢ ص ٧٦١ عن البخاري ومسلم.

الفصل الثاني : حتى بيعة العقبة ٢٩٣

نعتقد أنها نزلت في غير هذه القضية .

واعترف عمر بن الخطاب بجمال زينب، عندما قال لابنته، ليس لك حظوة عائشة، ولا حسن زينب^(١).

فلو كانت عائشة موصوفة بالحسن لقدمها على زينب في هذا الأمر .

أما بالنسبة للفقرة الأولى فنحن نشك في صحتها، ونعتقد أنها سياسة من عمر تجاه أم المؤمنين، أو من يزيد^(٢) الرواة لحاجة في النفس، وذلك لما تقدم وسيأتي .

ومهما يكن من أمر، فإن أم سلمة تذكر:

أن زينب كانت معجبة لرسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» . وكان يستكثر منها^(٣).

٣ - أم سلمة رحمها الله تعالى:

كانت أم سلمة من أجمل الناس^(٤).

وعن الإمام الباقر: أنها أجمل نساء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم». ويذكرون أن قصة المغافير من عائشة وحفصة كانت معها^(٥). كما أن عائشة قد اعترفت بأن أم سلمة وزينب كانتا أحب نسائه «صلى الله عليه وآله وسلم» إليه بعدها^(٦).

(١) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١٣٧، ١٣٨.

(٢) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٧٣، وتهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ٣٤٧.

(٣) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٠٥ وتهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ٣٦٢.

(٤) راجع طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١٢٢، والدر المنثور ج ٦ ص ٢٣٩.

(٥) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٨١.

(٦) الإصابة ج ٤ ص ٤٥٩، وطبقات ابن سعد ج ٨ ص ٦٦.

٢٩٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

تقول عائشة: «ولما تزوج رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» أم سلمة حزنت حزناً شديداً، لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها؛ فرأيت والله أضعاف ما وصفت الخ»^(١).

وقال ابن حجر: «كانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع، والعقل البالغ الخ»^(٢).

٤ - صفية بنت حيي بن أخطب:

قالت أم سنان الأسلمية: «كانت من أضوأ ما يكون من النساء»^(٣). ولما قدمت المدينة جئن نساء الأنصار ينظرن إلى جمالها، وعائشة متنقبة معهن. فلما سألهن رسول الله: كيف رأيت يا عائشة؟ قالت: رأيت يهودية. فنهاها «صلى الله عليه وآله وسلم» عن قولها ذلك^(٤).

وعندما وقعت في السبي جعلوا يمدحونها، ويقولون: رأينا في السبي امرأة ما رأينا ضربها^(٥). ولما أرسلت صفية قصعة فيها طعام إلى النبي وهو في بيت عائشة أخذتها رعدة حتى استقلها افكل، وضربت القصعة، فرمت بها الخ^(٦).

وقد أكد لها رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: أنها خير من

(١) الإصابة ج ٤ ص ٤٥٩.

(٢) الإصابة ج ٤ ص ٣٤٧، وص ٤٦٣ وطبقات ابن سعد ج ٨ ص ٨٧.

(٣) الإصابة ج ٤ ص ٣٤٧، وطبقات ابن سعد ج ٨ ص ٩٠.

(٤) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٨٨.

(٥) مسند أحمد ص ٢٧٧ ج ٦، والبخاري باب الغيرة، أو آخر كتاب النكاح، لكنه لم يصرح باسم عائشة!!!

(٦) أسد الغابة ج ٥ ص ٤٩١.

الفصل الثاني : حتى بيعة العقبة ٢٩٥
حفصة وعائشة^(١).

٥ - جويرية بنت الحارث:

تقول عائشة أنها كانت امرأة حلوة ملاحه ، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ؛ فأتت رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» تستعينه في كتابتها . قالت عائشة : فوالله ما هي إلا أن رأيته ، فكرهتها ، وقلت : يرى منها ما قد رأيته . فلما دخلت على رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» الخ^(٢).

٦ - مارية القبطية:

قالت عائشة : ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة جعدة ، فأعجب بها رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» . وكان أنزلها أول ما قدمت في بيت لحارثة بن النعمان ؛ فكانت جارتنا ؛ فكان عامة الليل والنهار عندها ، حتى فرغنا لها ، فجذعت ، فحولها إلى العالية ، وكان يختلف إليها هناك ، فكان ذلك أشد علينا^(٣).

وعن أبي جعفر عليه السلام : أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد حجب مارية «وكانت ثقلت على نساء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، وغرن عليها ، ولا مثل عائشة»^(٤).

وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» يعجب بمارية ، «وكانت

(١) الإصابة ج ٤ ص ٢٦٥ ، والإستيعاب هامش الإصابة ج ٤ ص ٢٥٩ ، وصفة الصفوة ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) الإصابة ج ٤ ص ٤٠٥ ، وطبقات ابن سعد ج ٨ ص ١٥٣ ، ولتراجع : البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠٤/٣٠٣ ووفاء الوفاء للسهمودي ج ٣ ص ٨٢٦ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٨٦ والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٤) طبقات ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٨٦ . والإصابة ج ٤ ص ٤٠٥ .

٢٩٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

مارية بيضاء جعدة، جميلة»^(١). وكانت حسنة الدين^(٢).

وتنافست الأنصار فيمن يرضع ابراهيم، وأحبوا أن يفرغوا مارية للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، لما يعلمون من هواه فيها^(٣).

ولعل مما زاد في غيرة عائشة قضية ولادة ابراهيم منها، حتى تجرأت على نفي شبهه برسول الله، رغم تأكيد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لها على ذلك^(٤) وحتى كان ما كان من نزول آية التحريم، كما عن السيوطي وغيره.

٧ - سودة بنت زمعة:

كانت عائشة تقول: ما من الناس امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة، إلا أنها امرأة فيها حسد^(٥).

وليراجع ما فعلته حفصة بسودة، وضحكها هي وعائشة عليها^(٦).

(١) تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ٣٥٥، وطبقات ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٨٦
والبداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠٣.

(٢) ذخائر العقبى ص ٥٤ والاستيعاب هامش الإصابة ج ١ ص ٤٢، وطبقات ابن سعد ج ٨ ص ١٥٣.

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٨٨ والدر المنثور ج ٦ ص ٢٤٠ عن ابن مردويه والبداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠٥ وقاموس الرجال ج ١١ ص ٣٠٥ عن البلاذري. وراجع السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٠٩ ومستدرك الحاكم ج ٤ ص ٣٩ وتلخيصه للذهبي بهامشه وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٨٧ ط صادر.

(٤) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٣٧، والبداية والنهاية ج ٨ ص ٧٠.

(٥) حياة الصحابة ج ٢ ص ٥٦٠ ومجمع الزوائد ج ٤ ص ٣١٦.

(٦) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١٠٤ وتاريخ الإسلام للذهبي ج ٢ ص ٤١٥، ٤١٦
دون تصريح باسم من خدعها.

الفصل الثاني : حتى بيعة العقبة ٢٩٧

٨ - أسماء بنت النعمان:

كانت أجمل أهل زمانها وأشبه . وقد حسدنها نساء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وخدعنها . وكانت الخديعة لها من عائشة وحفصة معاً . حتى قالت للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» : أعوذ بالله منك ، فطلقها^(١) .

٩ - مليكة بنت كعب:

كانت تذكر بجمال بارع ، فدخلت عليها عائشة ، فقالت لها : أما تستحيين أن تنكحي قاتل أبيك ، فاستعاذت من رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» : فطلقها^(٢) .

١٠ - أم شريك:

وهبت نفسها للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، فقبلها «صلى الله عليه وآله وسلم» ، فقالت عائشة : ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير . قالت أم شريك : فأنا تلك ، فسامها الله مؤمنة ؛ فقال : وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ، فلما نزلت هذه الآية ، قالت عائشة للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» : إن الله ليسر لك في هواك^(٣) .

١١ - شراف بنت خليفة:

خطب رسول الله امرأة من كلب ؛ فبعث عائشة تنظر إليها ، فذهبت ، ثم رجعت . فقال لها رسول الله : ما رأيت ؟ فقالت : ما رأيت طائلاً .

(١) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١٠٦ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ج ٢ ص ٤١٦ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١١٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١١٥ .

٢٩٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

فقال رسول الله: لقد رأيت طائلاً، لقد رأيت خالاً بخدّها، اقشعرت كل شعرة منك. فقالت: يا رسول الله، ما دونك سر^(٢).

١٢ - حفصة بنت عمر:

بل أن عائشة كانت تغار حتى من رفيقتها حفصة، ويقال: إن قضية المغاير كانت لها معها^(١).

نهاية المطاف:

هذه كانت حالة عائشة مع زوجات النبي «صلى الله عليه وآله وسلم». وأكثر هذه المشاكل كانت فيما يبدو بسبب غيرتها منهن، لجمالهن البارع، وحسنهن الرائع كما قدمنا، ولم نجد لأي من زوجات النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» معشار ما وجدناه لعائشة من المشاكل والتجاوزات. - اللهم إلا رواية أو روايتان مرويتان عن عائشة نفسها!!! فهذا السيل العارم منها - خاصة - دون غيرها منهن، يكشف عن أن ثمة ما يبرز منها وهو أنها تُحسّ بالنقص في نفسها تجاههن من حيث الجمال على الأقل.

وهكذا، تسقط جميع الادعاءات والروايات التي عن عروة وغيره وعنها، والتي تدعي حظوتها ومكانتها لدى النبي صلى الله عليه وآله. أو على الأقل تصوير محل شك وريب. وأما ما يقال في حديث الإفك فإنه أيضاً باطل وقد فصلنا القول في ذلك في كتاب مستقل طبع مؤخراً.

وملاحظة أخيرة نسجلها هنا، وهي: أننا نجد عائشة تكثر من أحاديث تقبيل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ومباشرته لها، وهي

(١) راجع: حياة الصحابة ج ٢ ص ٧٦٢ عن البخاري ومسلم وعن تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٨٧ وعن جمع الفوائد ج ١ ص ٢٢٩ وعن طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٨٥.

الفصل الثاني: حتى بيعة العقبة ٢٩٩

حائض واغتسالها وإياه من إناء واحد، وغير ذلك من الأحاديث التي تتخذ طابع الجنس، والاعراء، واللذة. ولا نجد من ذلك الشيء الكثير عند غيرها من نسائه «صلى الله عليه وآله وسلم»، ولعل ذلك يرجع إلى أنه لم يكن ثمة ما يربطها برسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» بصورة قوية، حيث لم يكن لها ولد منه «صلى الله عليه وآله وسلم» وليس لديها من المستوى الفكري والثقافي والعملي ما يصلح أن يكون نقطة اشتراك ويجعل لها به ارتباطاً خاصاً ووثيقاً وليست اهتماماتها من جنس اهتماماته «صلى الله عليه وآله وسلم» ولا تطلعاتها تلتقي مع تطلعاته «صلى الله عليه وآله وسلم».

وماذا بعد:

هذا وأنا لا نجد مبرراً لتحمل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من عائشة جرأتها. وتجاوزاتها المتكررة وإيذائها له في أخيه علي، وفي زوجته، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يتخذ القرار النهائي بالنسبة إليها، لأن السياسة كانت تقضي عليه بتحمل كل هذه المشاق. ويدلنا على أن النبي كان يتعامل مع زوجته من موقعه السياسي الحرج، لا من جوبيت الزوجية. قول عمر لحفصة - عندما تظاهرت على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مع عائشة، واعتزلهن: «والله، لقد علمت أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»»^(١).

هذا، ولم يكن ثمة من يستطيع الجهر بالحقيقة، وإظهار الواقع. لأن الجهاز الحاكم كله كان يمسك بركاب عائشة، ويعلي قدرها، ويرفع من شأنها؛ لأنه كان يستفيد منها أعظم الفوائد، وأسناها. وكان ثمة خطة

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٩. ولسوف يأتي مزيد توضيح لذلك في البحث عن سبب تكثر زوجاته قبل واقعة احد في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

٣٠٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

مرسومة لإظهار عظيم منزلتها، وإغداق الأوسمة عليها، بثمن، أو بغير ثمن!!

وكانت هي تستغل موقعها كزوجة للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وكأم للمؤمنين إلى أقصى الدرجات، كما أنها كانت تستفيد من حاجة الهيئة الحاكمة إليها، وكل ذلك يفسر لنا السر في أنها كانت توحى للناس بأنها أقرب زوجات النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» إليه، وأثرهن لديه؛ لجمالها، ولكونه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد تزوجها بكرةً حسب دعواها. وكان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يهتم للبكارة وللجمال (مع نقاش لنا في ذلك).

ولا ندري ما هو السر في تواضع أم المؤمنين إلى هذا الحد حتى إنها لم تر في نفسها المؤهلات لأن تعتز بالدين، وبالمعاني الإنسانية النبيلة أو لعلها كانت ترى أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لا ينطلق في حبه ويغضه من الدين والأخلاق، وإنما من الشهوة، فصورته للمسلمين على أنه رجل شهواني لا أكثر.

دخول الإسلام إلى المدينة:

وثمة خلاف بين المؤرخين في من؟ ومتى؟ وكيفية إسلام أول دفعة من أهل المدينة. ولكننا نستطيع أن نؤكد على أن الإسلام قد دخل المدينة على مراحل. فأسلم أولاً: أسعد بن زرارة. وذكوان بن عبد القيس، حينما كان المسلمون محصورين في الشعب. ثم أسلم خمسة، أو ثمانية، أو ستة نفر بعد ذلك، ثم كانت بيعة العقبة الأولى، ثم كانت بيعة العقبة الثانية، وهذا هو ما يظهر من مغلطاي^(١) وغيره.

ولذلك فهم يقولون: إن أسعد بن زرارة، وذكوان بن عبد القيس

(١) راجع سيرة مغلطاي ص ٢٩.

الفصل الثاني : حتى بيعة العقبة ٣٠١

الخزرجيين قدما مكة في أحد المواسم ، حينما كانت قريش تحاصر الهاشميين في الشعب (شعب أبي طالب) ، بهدف طلب الحلف من عتبة بن ربيعة على الأوس . فرفض عتبة ذلك ، وقال : بعدت دارنا عن داركم ، ولنا شغل لا نتفرغ لشيء . فسأله عن هذا الشغل ؛ فأخبره بخروج النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فيهم ، وأنه أفسد شبابهم ، وفرق جماعتهم ثم حذره من الاتصال به ، فإنه ساحر يسحره بكلامه . وأمره إذا أراد الطواف أن يضع القطن في أذنيه ، حتى لا يسمع ما يقوله النبي صلى الله عليه وآله ، الذي كان آنئذ يجلس في الحجر مع طائفة من بني هاشم . وكانوا قد خرجوا من شعبهم ليشهدوا الموسم .

وجاء أسعد للطواف ، ورأى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» جالسا في الحجر ، فقال في نفسه : ما أجد أجهل مني . أن يكون هذا الحديث في مكة فلا أتعرفه ، حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم ؟ ، ثم أخذ القطن من أذنيه فرمى به ، وجاء إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، فسلم عليه ، وكلمه ؛ فعرض عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» ما جاء به فأسلم ، واسلم بعده ذكوان .

وفي رواية : أنه لما التقى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بأسعد بن زرارة وذكوان ، قال أسعد للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، أنا من أهل يثرب ، من الخزرج ، وبيننا وبين أخوتنا من الأوس حبال مقطوعة ، فإن وصلها الله بك ، ولا أجد أعز منك ، ومعني رجل من قومي ، فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمم الله لنا أمرنا فيك . والله يا رسول الله ، لقد كنا نسمع من اليهود خبرك ، وببشروننا بمخرجك ، ويخبروننا بصفتك ، وأرجو أن يكون دارنا دار هجرتك عندنا ، فقد اعلمنا اليهود ذلك ؛ فالحمد لله الذي ساقني إليك ، والله ما جئت إلا لنطلب الحلف على قومنا ، وقد آتانا الله بأفضل مما أتيت له .

ثم أقبل ذكوان ، فقال له أسعد : هذا رسول الله الذي كانت اليهود

٣٠٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

تبشرنا به، وتخبرنا بصفته؛ فهلهم فأسلم؛ فأسلم ذكوان الخ^(١).

ثم في سنة إحدى عشرة من النبوة خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الموسم، يعرض على القبائل دعوته، ويطلب منهم نصرته؛ فالتقى على العقبة برهط من الخزرج؛ فدعاهم إلى الله والإسلام، وقرأ عليهم القرآن فآمنوا به، وكانوا ستة نفر، وهم: أسعد بن زرارة، وجابر بن عبد الله بن رثاب، وعوف بن الحارث ورافع بن مالك، وعقبة وقطبة ابنا عامر. وقيل: ثمانية نفر وقيل غير ذلك (وثمة اختلاف في أسمائهم، وذكر أشخاص آخرون مكان بعض من قدمنا أسماءهم، ولا مجال لتحقيق ذلك).

ورجع أولئك نفر إلى قومهم في المدينة، فذكروا لهم رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، ودعوههم إلى الإسلام. ثم كانت بيعة العقبة الأولى في سنة اثنتي عشرة من البعثة أي قبل الهجرة بسنة^(٢).

ولعل أسعد بن زرارة كان قد كتم إسلامه هو وذكوان، حتى كان لقاء هؤلاء الستة أو الثمانية معه «صلى الله عليه وآله وسلم» قبل الهجرة بسنة فأعلنوا ذلك

ونحن قبل أن نمضي في الحديث نشير إلى ما يلي:

١ - اخبارات أهل الكتاب:

يفهم مما تقدم: إن أهل المدينة كانوا يسمعون من اليهود خبر ظهور النبي عن قريب، وأن ذلك قد جعلهم مهيبين نفسياً لقبول الدين الذي جاء به هذا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم».

(١) البحار ج ١٩ ص ٩ واعلام الورى ص ٥٧ عن علي بن ابراهيم.

(٢) البحار ج ١٩ ص ٩ واعلام الورى ص ٥٧ عن علي بن ابراهيم.

٣٠٣ الفصل الثاني : حتى بيعة العقبة

٢ - المشاكل بين الأوس والخزرج:

لقد كان ثمة حروب هائلة بين الأوس والخزرج، كانت آخرها وقعة بعاث التي انتصرت فيها قبيلة الأوس، حينما كان الهاشميون والنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» محصورين في شعب أبي طالب. وكانت الحالة بين القبيلتين صعبة للغاية، حتى ليذكرون: أنهم ما كانوا يضعون السلاح لا في الليل ولا في النهار^(١) مما يعني أنهم يعانون من أقسى الحالات التي يمكن أن يواجهها من يملك إمكانات معيشية محدودة مثلهم.

وحتى لقد كان واضحاً: أنهم كانوا يتطلعون بشوق إلى الخروج من هذه الحالة المأساة. ويأملون في وصل الحبال المقطوعة فيما بينهم، كما عبر عنه أسعد بن زرارة، الذي كان يعمل من أجل عقد حلف مع عتبة بن ربيعة ضد الأوس.

فأهل المدينة إذن قد ذاقوا مرارة الانحراف والظلم. وهم يريدون المنقذ الحقيقي لهم. وقد وجدوه في نبي الإسلام الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، الذي جاءهم بتعاليم الشريعة السهلة السمحاء. ولذلك فقد قالوا لرسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: «نرجع إلى قومنا، ونخبرهم بالذي كلمتنا به، فما أرغبنا فيك. إنا قد تركنا قومنا على خلاف فيما بينهم، لا نعلم حياً من العرب بينهم من العداوة ما بينهم. وسنرجع إليهم بالذي سمعنا منك، لعل الله يقبل بقلوبهم، ويصلح بك ذات بينهم، ويؤلف بين قلوبهم»^(٢).

٣ - تعاليم الشريعة السمحاء:

إن تعاليم الإسلام لهي التعاليم الموافقة للفطرة السليمة، وبلا تعقيد

(١) البحار ج ١٩ ص ٨ و ٩ و ١٠ وإعلام الوري ص ٥٥.

(٢) الثقات لابن حبان ج ١ ص ٩٠/٩١.

٣٠٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

أو إبهام فيها، فهي بسيطة وسهلة، لا يحتاج إدراك حقانيتها إلى تفكير عميق، أو إجهاد في فهم مراميها، والتكهن بنتائجها.

ولذلك نجد أهل المدينة يدركون بسرعة قدرة هذه الدعوة على حل مشاكلهم، فيسارعون إلى قبولها، بمجرد سماعهم لأهدافها، ومبادئها. ومن الواضح: أن أهل المدينة كانوا لا يعانون من ظروف أهل مكة، الذين يحاربون الإسلام؛ لأنهم رأوا فيه خطراً على مصالحهم الشخصية، وامتيازاتهم الظالمة التي فرضوها لأنفسهم، وأهوائهم وانحرافاتهم، كما أوضحناه في غير موضع.

إن أهل المدينة بالإضافة إلى إخبارات اليهود لهم، قد رأوا منذ اللحظات الأولى في الإسلام وتعاليمه المنقذ لهم، والمخرج من الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، ورأوا فيه الموافقة للفطرة والعقل السليم. سواء على صعيد العقائد أو التشريع، أو على صعيد اتخاذ القرار الاجتماعي والسياسي، فقد سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عما يدعو إليه، فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأدعوكم إلى:

«أن لا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من أطلاق، نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا تكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون»^(١).

ولأجل ذلك اعتقدوا بهذه الدعوة، وحاربوا قريشاً والعرب من أجلها

(١) الانعام/١٥١-١٥٢.

الفصل الثاني : حتى بيعة العقبة ٣٠٥

وفي سبيلها .

٤ - المدنيون والمكيون :

إن الوثنية التي كان أهل المدينة يدينون بها لم تستطع أن تحل مشاكلهم الداخلية ، على اختلافها ، ولا حتى أن تخفف من حدتها . كما أنها لم تكن تجلب لهم امتيازات اجتماعية ، ولا اقتصادية ولا غيرها . ولذلك فقد ضعفت ووهنت ، وزاد في ضعفها ووهنها مخالفتها للفطرة السليمة ، والعقل القويم . ثم جاءت اخبارات اليهود لهم بقرب ظهور نبي يخبر عن الله لتزيد من ذلك الضعف والوهن إلى حد بعيد .

وهذا تماماً على عكس الحال في مشركي مكة ؛ فإنهم كانوا يستفيدون من وثنياتهم اجتماعياً واقتصادياً . وجعلوا من أنفسهم محوراً تلتقي عليه سائر الفئات والقبائل في المنطقة ، وكرّسوا لأنفسهم الكثير من الامتيازات الظالمة . - ولم يكونوا على استعداد للتخلي عن هذه الامتيازات من أجل خدمة الحق والإنسان ، بل كانوا يضحون بالإنسان والحق في سبيل امتيازاتهم ، وانحرافاتهم ، ومصالحهم تلك .

هذا ، ولا بد من ملاحظة ما قدمناه حين الكلام على العوامل التي ساعدت على انتصار الإسلام وانتشاره ، لنجد : أن شخصية الرسول العظيمة ، وأخلاقه الكريمة ، وكونه من أرفع بيت في قريش والعرب - ويضيف البعض : رابطة القرى ، التي كانت تربطه ببني النجار الخزرجيين ، عن طريق أمنة بنت وهب^(١) كل ذلك وسواه مما تقدم قد أسهم في إقبال أهل المدينة على الإسلام ، وتقبل دعوته ، والتضحية في سبيله .

(١) ولكنه تحليل لاشاهد له ، مادام ان مجرد وجود رابطة كذلك لا توجب ما ذكر .

الفصل الثالث:

بيعة العقبة

بيعة العقبة الأولى:

يقول المؤرخون: إنه حينما عاد أولئك النفر المدنيون الذين أسلموا إلى المدينة ذكروا لأهلها رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، ودعوههم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الإنصار، إلا وفيها ذكر من رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم».

حتى إذا كان العام المقبل أي في السنة الثانية عشرة من البعثة، وافى الموسم اثنا عشر رجلاً اثنان منهم أوسيان، والباقيون من الخزرج، فالتقوا مع الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» في العقبة، وبايعوه على بيعة النساء، أي البيعة التي لا تشتمل على حرب، أي: «على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقون، ولا يزنون، ولا يقتلون أولادهم، ولا يأتون ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه في معروف، فإن وفوا فلهم الجنة وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب، وإن شاء غفر».

ولما رجعوا إلى المدينة أرسل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في

٣١٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الدين، فكان يسمى المقري. وألحقه بأبن أم مكتوم^(١) كما قيل. وأقام مصعب أول صلاة جمعة في المدينة!!.

وقد نجح مصعب، ومن معه ممن أسلم في الدعوة إلى الله تعالى، واسلم سعد بن معاذ، الذي كان السبب في إسلام قومه بني عمير بن عبد الأشهل، حيث إنه حين أسلم على يد مصعب رجع إلى قومه، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعرفون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وفضلنا رأياً، وايمنا نفساً وأمراً.

قال: فان كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قال: فوالله، ما أمسى في دار قبيلة بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً، أو مسلمة^(٢)، فأسلموا كلهم في يوم واحد، (إلا عمرو بن ثابت، فانه تأخر إسلامه إلى أحد، فأسلم، ثم استشهد قبل أن يسجد لله سجدة واحدة، كما قيل).

وأقام مصعب بن عمير يدعو الناس إلى الإسلام، حتى أسلم الرجال والنساء، من الانصار باستثناء جماعة من الاوس، اتبعوا في ذلك أحد زعمائهم، الذي تأخر إسلامه إلى ما بعد هجرة الرسول الاعظم «صلى الله

(١) السيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٥١ و ١٥٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٩ وفيه أن الواقدي ذكر ان ابن أم مكتوم إنما قدم المدينة بعد بدر بقليل، وفي كلام ابن قتيبة أنه قدم المدينة مهاجراً بعد بدر بستين. ثم جمع الحلبي بين الاقوال باحتمال: أن يكون قد علم أهل المدينة ثم عاد إلى مكة، ثم عاد فهاجر بعد بدر. وهو احتمال وجيه لا باس به.

(٢) راجع ماتقدم: في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٧٩-٨٠ و السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٩٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٨٤.

الفصل الثالث: بيعة العقبة ٣١١

عليه وآله وسلم»^(١).

ولنا هنا وقفات، فلنقف أولاً مع:

دعوة سعد بن معاذ قومه:

إن الدعوة إلى الله ليست مختصة بالأنبياء والأوصياء بل هي شاملة لكل مكلف بحسب ما يملك من طاقات وقدرات. وهي من الأمور التي يلزم بها العقل الفطري السليم، ويوجبها على كل إنسان، ولا تحتاج إلى جعل شرعي؛ فإن العقل يدرك أن في ارتكاب المنكرات، وترك الواجبات، والانحراف في الفكر والعقيدة والسلوك ضرراً جسيماً على المجتمعات وعلى الأجيال ولذلك فهو يحكم بلزوم الدعوة إلى الالتزام بالخط الفكري الصحيح، وترك المنكر، وفعل المعروف.

وهذا هو - بالذات - ما يفسر لنا اندفاع سعد بن معاذ في الدعوة إلى الله تعالى، حتى أنه على استعداد لقطع كل علاقة مع قومه إذا كانوا ضالين منحرفين.

وان عظمة هذا الموقف لتتضح أكثر إذا عرفنا مدى ارتباط سعادة ومصير الإنسان العربي في تلك الفترة بقيلته ومدى ارتباطه بها فهو حين يضحى بعلاقاته القبلية، فإنه يكون قد ضحى بأمر عظيم وأساسي في حياته وفي مصيره، ومستقبله، في سبيل دينه.

وقد جاء القرآن مؤيداً لحكم العقل والفطرة هذا؛ ففرض على كل من كان له بصيرة في أمر الدين أن يدعو إلى الله قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾^(٢).

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٨٤ وراجع تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٩٠ و

السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠ و السيرة الحلبية ج ٢ ح ص ١٤.

(٢) يوسف/١٠٨.

٣١٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

كما أننا لا بد أن نشير أيضاً: إلى أن من عرف الحق، وذاق حلاوة الإيمان، فإنه لا يملك نفسه من الاندفاع في محاولة لجلب الآخرين نحو هذا الحق، وجعلهم يؤمنون به، ويستفيدون منه، ويلتذون به ويشعرون بحلاوته.

ولذلك نجد الامام على بن الحسين «عليه السلام»، الذي كان يخشى على شيعته، الذين هم الصفوة في الامة الاسلامية، والذين كانوا يتعرضون لمختلف أنواع الاضطهاد، والبلايا في الدولة الاموية، وبعدها في الدولة العباسية كان يظهر تدمره من عدم مراعاة الشيعة للظروف والمناسبات، وهو يرى حدة اندفاعهم نحو إظهار أمرهم، بسبب شعورهم بحلاوة الإيمان، وضرورة ابلاغ كلمة الحق، قال الإمام السجاد «عليه السلام»: «وددت اني افتديت خصلتين في الشيعة ببعض لحم ساعدي: النزق وقلة الكتمان»^(١)

أضف الى ذلك: أن التراحم فيما بين المؤمنين، والشدة على الكافرين يصبح امرأ طبيعياً، كما قال تعالى: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾.

البيعة:

ونجد: أن نص البيعة قد تضمن الخطوط العريضة، وأهم المبادئ التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، وهي تتضمن جانباً عقائدياً، وآخر عملياً. وقد حملهم «صلى الله عليه وآله وسلم» مسؤوليات معينة في علاقاتهم مع بعضهم بعضاً. وجعل التزامهم هذا قائماً على اعطاء تعهد من قبلهم، يرون مخالفته تتنافى مع شرف الكلمة وقديسيته؛ وذلك تحت

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٧٣٣ والبحار ج ٧٥ ص ٦٩ و ٧٢ عن الخصال ج ١ ص ٢٤ والكافي ج ٢ ص ٢٢١.

الفصل الثالث: بيعة العقبة ٣١٣

عنوان: «البيعة» التي تعني اعطاء كلمة الشرف بالالتزام بتلك المبادئ.

ولكنه لم يقرر عقاباً عنيفاً لمن ينقض هذا العهد، ويتجاوز ويغش فيه؛ فإن الوقت حينئذ لم يكن مناسباً لقرار كهذا. بل اوكل ذلك الى الوجدان والضمير الشخصي لكل منهم، مع ربطه بالمبدأ العقيدي. ومع إعطاء الفرصة له للعودة لاصلاح الخطأ إن كان؛ حيث أبقي الأمل حياً لدى ذلك الذي يمكن أن يغش، وأوكل امره الى الله، إن شاء عذب، وإن شاء غفر.

صلاة الجمعة:

وقد تقدم في الحديث: أن مصعب بن عمير قد جمع بالمسلمين في المدينة قبل الهجرة^(١). وربما يشكل على ذلك: بأن سورة الجمعة قد نزلت بعد هجرته «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى المدينة؛ فكيف صلى مصعب الجمعة قبل تشريعها.

والجواب: أننا لو سلمنا أن المراد بجمع، صلى الجمعة. إذ من المحتمل: أن يكون المراد صلى جماعة - لو سلمنا ذلك - فإن قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢). ليس المقصود به تشريع إقامة الجمعة، وإنما هو يوجب السعي الى الجمعة التي تقام، فلعل وجوب إقامتها كان قبل ذلك قد جاء على لسانه «صلى الله عليه وآله وسلم» في مكة، ولكن لم يكن يمكن إقامتها، أو كان يقيمها سرّاً ولم يصل ذلك إلينا.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا

(١) وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٩ والتعليق المغني (مطبوع بهامش سنن الدار قطني) ج ٢ ص ٥ عن الطبراني في الكبير والأوسط.

(٢) الجمعة/٩.

٣١٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وتركوك قائماً، قل: ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ﴿١﴾؛ فإن ذلك يشير الى ان الجمعة كانت قد شُرعت قبل ذلك. وأن هذا كان سلوكهم معه «صلى الله عليه وآله وسلم».

ويؤيد ذلك: ما أخرجه الدارقطني، عن ابن عباس، قال: أذن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الجمعة قبل أن يهاجر، ولم يستطع ان يجمع بمكة؛ فكتب الى مصعب بن عمير: أما بعد، فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور، فاجمعوا نساءكم وابناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة، فتقربوا الى الله بركعتين. قال: فهو أول من جمع، حتى قدم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» المدينة، فجمع بعد الزوال من الظهر، وأظهر ذلك ﴿٢﴾.

وثمة روايات تفيد: أن أول من جمع بهم هو أسعد بن زرارة ﴿٣﴾ وسيأتي بعض الكلام أيضاً حول صلاة الجمعة في آخر هذا الجزء إن شاء الله تعالى.

بيعة العقبة الثانية:

وعاد مصعب بن عمير من المدينة الى مكة، فعرض على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نتائج عمله؛ فسر بذلك نبي الاسلام سروراً

(١) الجمعة/ ١١.

(٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٢١٨ عن الدارقطني. والسيرة الحلبية: ج ٢ ص ١٢.

(٣) الدر المنثور ج ٦ ص ٢١٨ عن أبي داود، وابن ماجه وابن حبان، والبيهقي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر ووفاء الوفاء ج ١ ص ٢٢٦. والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٩ وص ٩ وسنن الدارقطني ج ٢ ص ٦/٥ وفي التعليق المغني على الدارقطني (مطبوع بهامش السنن) ص ٥ قال: الحديث أخرجه ابو داود، وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقي في سننه.

الفصل الثالث: بيعة العقبة ٣١٥

عظيماً^(١).

وفي موسم حج السنة الثالثة عشرة من البعثة أتى من أهل المدينة جماعة كبيرة بقصد الحج، ربما تقدر عدتهم بخمس مئة^(٢)، فيهم المشركون، وفيهم المسلمون المستخفون من حجاج المشركين من قومهم، تقية منهم.

والتقى بعض مسلميهم بالرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» ووعدهم اللقاء في العقبة في أواسط أيام التشريق ليلاً، إذا هدأت الرجل. وأمرهم أن لا ينبهوا نائماً، ولا ينتظروا غايماً.

ويلاحظ هنا: ما لهذا التوقيت من أهمية، فلو انكشف أمرهم، فسيكون ذلك بعد تمام حجهم، ومفارقتهم للبلد، ولا يبقى من ثم مجال للضغط عليهم بشكل فعال.

ويلاحظ كذلك: أمره «صلى الله عليه وآله وسلم» لهم بأن لا ينبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً. وذلك كي لا ينكشف أمرهم إذا لاحظ غيرهم عدم طبيعية تصرفاتهم.

وفي تلك الليلة بالذات ناموا مع قومهم في رحالهم، حتى إذا مضى ثلث الليل بدؤا يتسللون إلى مكان الموعد، واحداً بعد الآخر، ولا يشعر بهم أحد حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، وهم سبعون أو ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان.

والتقوا بالرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» هناك في الدار التي كان «صلى الله عليه وآله وسلم» نازلاً فيها، وهي دار عبد المطلب، وكان

(١) وفي البحار ج ١٩ ص ١٢: أن مصعباً قد كتب إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بذلك وكذا في اعلام الورى ص ٥٩.

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٤٩.

٣١٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

معه حمزة وعلي، والعباس^(١).

وبايعوه على أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم، وأهليهم وأولادهم، وأن يؤوؤهم، وينصروهم، وعلى السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وان يقولوا في الله، ولا يخافوا لومة لائم، وتدين لهم العجم، ويكونون ملوكاً.

وعند آخرين - والنص لمالك - ، عن عبادة بن الصامت: «بايعنا رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقول (او نقوم) بالحق حيثما كنا، لانخاف في الله لومة لائم^(٢)» قال السيوطي: «يريد الملك والإمارة^(٣)».

وقد أدرك العباس بن نضلة خطورة الموقف، ولا سيما من قوله «صلى الله عليه وآله وسلم»: «تدين لكم العجم، وتكونون ملوكاً»، وأنهم مقدمون على مواجهة ومقاومة، ليس فقط مشركي مكة او الجزيرة العربية، وإنما العالم بأسره. فأحب ان يستوثق من الامر، ويفتح عيون المبايعين ليكونوا على بصيرة من أمرهم، حتى لا يقولوا في يوم ما: لو كنا

(١) اعلام الورى ص ٥٩، وتفسير القمي ج ١ ص ٢٧٣، والبحار ج ١٩ ص ١٢-١٣ و ٤٧ عنها، وعن قصص الانبياء، وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦، والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٥٢.

(٢) الموطأ المطبوع مع تنوير الحوالك ج ٢ ص ٤ وراجع سير اعلام النبلاء ج ٢ ص ٧ ومسند احمد ج ٥ ص ٣١٤ و ٣١٦ وسنن النسائي ج ٧ ص ١٣٨ - ١٣٩ وصحيح البخاري ج ٤ ص ١٥٦ والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٤ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٩٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص ٤٥٢ ط دار الكتب العلمية والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٢٠٤ وصحيح مسلم ج ٦ ص ١٦ و ١٧.

(٣) تنوير الحوالك: ج ٢ ص ٤.

الفصل الثالث: بيعة العقبة ٣١٧

نعلم ان الامر ينتهي الى هذا لم نقدم .

فقال لهم : يا معشر الاوس والخزرج ، تعلمون على ما تقدمون عليه ؟ إنما تقدمون على حرب الاحمر والابيض ، وعلى حرب ملوك الدنيا ؛ فان علمتم انه إذا أصابتكم المصيبة في انفسكم خذلتموه وتركتموه ، فلا تغروه فان رسول الله ، وان كان قومه خالفوه ، فهو في عز ومنعة .

فقال عبد الله بن حزام ، والد جابر ، وأسعد بن زرارة ، وأبو الهيثم بن التيهان : مالك وللكلام ؟ يا رسول الله ، بل دنا بدمك ، وأنفسنا بنفسك ، فاشترط لنفسك ، ولربك ما شئت^(١) .

ويذكر أيضاً : أن أسعد بن زرارة قد قال في بيعة العقبة : يا رسول الله ، إن لكل دعوة سبيلاً ، إن لين ، وإن شدة ، وقد دعوت اليوم الى دعوة متجهمة للناس ، متوعدة عليهم :

دعوتنا الى ترك ديننا وإتباعك على دينك ، وتلك رتبة صعبة ، فأجبناك الى ذلك .

ودعوتنا الى قطع ما بيننا وبينه الناس من الجوار والارحام ، القريب والبعيد ، وتلك رتبة صعبة ؛ فأجبناك الى ذلك .

ودعوتنا ، ونحن جماعة في دار عز ومنعة ، لا يطمع فيها أحد : ان يراس علينا رجل من غيرنا ، افرده قومه ، وأسلمه أعمامه ، وتلك رتبة صعبة ، فأجبناك الى ذلك الخ^(٢) .

(١) راجع ما تقدم في البحار ج ١٩ ص ١٢/١٣ عن اعلام الورى ، وراجع : دلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص ٤٥٠ ط دار الكتب العلمية وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣١٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٨٨ والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٢٠١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧ .

(٢) حياة الصحابة : ج ١ ص ٨٨ ودلائل النبوة لأبي نعيم : ص ١٠٥ .

٣١٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ويذكر المؤرخون هنا أيضاً: أن العباس بن عبد المطلب قد حضر بيعة العقبة وأنه أراد أن يستوثق لابن أخيه فبدأ هو الكلام، فقال: يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وقد أبى إلا الانحياز اليكم، وللحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن تدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

وفي رواية، أنه قال لهم: قد أبى محمد الناس كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجلد، وبصر في الحرب، واستقلال بعدواة العرب قاطبة، ترميكم عن قوس واحدة فروا رأيكم. واثمروا بينكم الخ . .

وبعد أن استمع إلى اجاباتهم، طلب «صلى الله عليه وآله وسلم» منهم: أن يخرجوا له اثني عشر نقبياً، أي كفيلاً يكفل قومه، فأخرجوا له تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس؛ فكانوا نقباء وكفلاء قومهم.

وعرفت قريش بالاجتماع؛ فهاجت، وأقبلوا بالسلاح.

وسمع الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» النداء؛ فأمر الانصار بالتفرق، فقالوا: يا رسول الله، إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيا ففعلنا. فقال: لم أؤمر بذلك، ولم يأذن الله لي في محاربتهم، فقالوا: يا رسول الله، فتخرج معنا؟ قال: أنتظر أمر الله . . .

فجاءت قريش على بكرة أبيها، قد حملوا السلاح. وخرج حمزة، ومعه السيف، هو وعلي بن أبي طالب «عليه السلام». فلما نظروا إلى حمزة قالوا: ما هذا الذي اجتمعتم له؟.

فعمل حمزة بالتقية من أجل الحفاظ على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» والمسلمين والاسلام، فقال: ما اجتمعنا، وما ها هنا أحد، والله لا

الفصل الثالث: بيعة العقبة ٣١٩

يجوز أحد هذه العقبة إلا ضربته بسيفي .

فرجعوا، وغدوا الى عبدالله بن أبي، فقالوا له: قد بلغنا أن قومك بايعوا محمداً على حربنا. والله، ما من حي أبغض من أن ينشب الحرب بيننا وبينه منكم. فحلف لهم عبدالله: أنهم لم يفعلوا، ولا علم له بذلك، وأنهم لم يطلعوه على أمرهم؛ وتفرقت الانصار، ورجع رسول الله الى مكة.

ولكن قريشاً قد تأكدت بعد ذلك من صحة الخبر؛ فخرجت في طلب الأنصار؛ فأدركوا سعد بن عباد، والمنذر بن عمير. فأما المنذر فأعجزهم. وأما سعد فأخذه، وعذبوه. فبلغ خبره جبير بن مطعم، والحرث بن حرب بن أمية، فأتياه وخلصاه؛ لأنه كان يجير لهما تجارتهما، ويمنع الناس من التعدي عليهما^(١).

ولنا قبل المضي في الحديث ها هنا وقفات. فنشير أولاً الى:

دور العباس في بيعة العقبة:

تذكر بعض الرويات: أن العباس كان في بيعة العقبة مع النبي، ولم يكن أحد غيره معه. ويقولون: إنه وإن كان حينئذ مشركاً، ألا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له. وقد قدمنا ما ينسب اليه من قول في هذه المناسبة.

(١) راجع في ما تقدم أي كتاب تاريخي أو حديثي شئت مثل: البحار ج ١٩ ص ١٣/١٢ واعلام الوري ص ٥٧ وتفسير القمي ج ١ ص ٢٧٢/٢٧٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣١٨/٣١٩ ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج ٢ ص ٤٥٠ والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٥٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٢١٠/١٩٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧ وما قبلها وما بعدها والسيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٨٨ وقبلها وبعدها. وغير ذلك كثير.

٣٢٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ولكننا نشك في صحة ذلك .

فأولاً: إن في الكلام المنسوب الى العباس تخذيلاً واضحاً عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وليس توثيقاً لأمره كما يقولون، ولا سيما قوله: «واستقلال بعداوة العرب قاطبة، ترميكم عن قوس واحدة الخ» ..

إلا أن يقال: إن هذا الكلام من العباس، إنما هو لبيان الحقيقة، ليكون الأنصار على بصيرة من أمرهم، حتى لا يكون منهم أي تعلل في المستقبل.

وثانياً: إن في كلامه ما يخالف الحقيقة، ولا سيما قوله: «قد أبى محمد الناس كلهم غيركم»؛ فإن معناه: أن الناس كلهم غير الأنصار قد وافقوا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وقبلوا مناصرته، ولكنه هو رفضهم. مع أن الأمر على عكس ذلك تماماً، باستثناء قبيلة شيان بن ثعلبة التي رضيت بحمايته مما يلي مياه العرب، دون ما يلي مياه كسرى^(١) وقبيلة شيان ليست هي «الناس كلهم».

واحتتمال إرادة خصوص عشيرته لا يتلاءم مع التعبير بـ «الناس كلهم». واحتتمال أن تكون العبارة: «أبى محمداً الناس» ليس له ما يؤيده، لأن النص الموجود بين أيدينا خلافه.

وثالثاً: إن موضوع الهجرة الى المدينة لم يكن قد طرح بعد، ولم يكن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أري دار هجرتهم ولا أخبرهم برؤياه تلك، فمن أين علم العباس أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» سوف يهاجر الى المدينة؟ فهل نزل عليه الوحي في ذلك؟! لست أدري!! ولكننا نقرا في كلامه قوله: «وقد أبى إلا الانحياز لكم، واللعوق بكم».

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥ و ١٦ وراجع السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٦٨ .

الفصل الثالث: بيعة العقبة ٣٢١

الى أن قال: وإن كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن تدعوه الخ .» .

إلا ان يكونوا قد طلبوا منه «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يخرج اليهم ، فظهر منه «صلى الله عليه وآله وسلم» الميل الى إجابة طلبهم ، وإن كان قد جاء ذلك بصيغة: لم أؤمر بذلك ، أي بالهجرة ، ولكنه احتمال بعيد ولا شاهد له .

رابعاً: إن ما ينسب الى العباس لا يصدر إلا عن مسلم مؤمن تام الإيمان . ولم يكن العباس قد أسلم بعد بل بقي على شركه الى وقعة بدر . وخرج لحرب النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فيها مكرها ، وأسلم ثمة ، كما سيأتي . بل سوف يأتي انه لم يسلم الى فتح مكة .

إلا ان يكون قد قال ذلك محاماً عن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» بدافع الحمية والعصبية ، ولكننا لم نر لهذه الحمية كبير أثر في مواقف العباس قبل وبعد ذلك . وهذا أمر يثير العجب حقاً .

والذي نرجحه: هو أن الذي كان حاضراً وتكلم بكلام يهدف منه الى شدّ العقدة له «صلى الله عليه وآله وسلم» هو العباس بن نضلة الانصاري^(١) وليس العباس بن عبد المطلب . ولذا يلاحظ مدى التشابه بين كلاميهما المنقول والمنسوب إليهما .

فلعل الأمر قد اشتبه على الراوي بين العباسين؛ لتشابه الإسمين ، أو لعل العباسيين أرادوا اثبات فضيلة جليلة لجدهم ، بهدف الحصول على مكاسب من نوع معين ، ولعل ، ولعل .

(١) الإصابة: ج ٢ ص ٢٧١ ، والبحار: ج ١٩ ، والسيرة الحلبية: ج ٢ ص ١٧ ،
والسيرة النبوية لدحلان: ج ١ ص ١٥٣ .

٣٢٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

أبو بكر في العقبة:

وتذكر بعض الروايات الشاذة: أن أبا بكر قد حضر العقبة، وقد جعله العباس على فم الشعب.

ونحن لا نطيل في بيان بطلان هذا، بعد أن كانت سائر الروايات تنص على أنه لم يكن إلا حمزة، وعلي «رحمه الله»، والعباس. مع الشك في هذا الأخير أيضاً، وأن حمزة وعلياً قد خرجا إلى فم الشعب حينما علمت قريش بالامر، وهاجت بالسلاح وذلك في أواخر لحظات الاجتماع، حسبما تقدم.

حمزة وعلي «عليه السلام» في العقبة:

أن كون الاجتماع في دار عبد المطلب ليقرب صحة ما ورد من أن حمزة وعلياً قد حضرا بيعة العقبة، خصوصاً وأنه كان ثمة حاجة إليهما، ليقفا ذلك الموقف البطولي الرائع في وجه قريش وخيلائها وجبروتها؛ ليمنعها من دخول الشعب. ويعطيا الفرصة للمجتمعين للتفرق^(١). حتى إذا دخلت قريش الشعب لم تجد أحداً؛ فترفع الأمر إلى ابن أبي؛ فينكر ذلك. ولولا موقفهما ذاك لكانت قد جرت الأمور على غير ذلك النهج، ولوقع المسلمون في مأزق حرج وخطير جداً.

والغريب في الامر: أننا نجد عدداً من الروايات لا تذكر حضور أمير المؤمنين «عليه السلام»، وأسداً لله وأسداً رسوله. مع أنها هي نفسها تذكر قضية تجمهر وهياج قريش، وغضبها من الاجتماع!! وأن كانت تسكت عن هجومها على الشعب، ودفع حمزة وعلي لها، بل تكتفي بذكر لقاءها

(١) ويحتل البعض: أن بعض سفهاء قريش وليس كل قريش - قد حاولوا دخول الشعب فصدّهم علي وحمزة ولكننا نقول لا مانع من تجمهر قريش.. ولكن علياً وحمزة أعاقا وصولها إلى مكان الاجتماع إلى حين تفرق المجتمعين.

الفصل الثالث: بيعة العقبة ٣٢٣

مع ابن أبي، ثم تتبعها للمسلمين، وظفرها بابن عبادة الى آخر ما تقدم .
وقد فات هؤلاء: أن قريشاً التي عرفت بالإجماع بعد انفضاضه
فغضبت، وهاجت، ثم اتصلت بابن أبي، فأنكر ذلك، ثم بعد انصراف
الحاج لحقت بالمسلمين، وأذت سعد بن عبادة الخ، لا يمكن أن تسكت
عن الهجوم على محل الاجتماع، وأخذ الأنصار والنبي «صلى الله عليه
 وآله وسلم» بالجرم المشهود، وتكون حينئذٍ معذورة أمام من تريد الاعتذار
منهم. فلماذا سكنت هنا. وغضبت وتصرفت بعنف هناك.

وعلى كل حال، فقد عودنا هؤلاء أن نرى منهم كثيراً من أمثال هذه
الخيانات للحق وللدين؛ لأهداف دنيوية رخيصة، وصدق المثل الذي
يقول:

«لأمر ما جدع قصير أنفه».

ولعلك تقول: كيف يمكن لرجلين: ان يقفا في وجه قريش ويرداها
على أعقابها؟! وهي في إبان غضبها، وأعلى درجات تحمسها.

والجواب: أن الرجل الواحد أيضاً كان يكفي لرد كيد قريش، وذلك
لأن هذا الرجل والرجلين يقف او يقفان على فم الشعب، حيث لا يمكن
أن يعبر إلا أفراد او جماعات صغيرة يمكن ردها على أعقابها برد الفئة
الأولى منها. وقد كان يقال: إن عمرو بن عبدود(الذي قتله امير
المؤمنين «عليه السلام» يعد بألف فارس، وذلك لانه وقف على فم
الوادي، ومنع الف فارس من ورودها، ولم يمكن دخول الألف إلا
متفرقين بسبب ضيق المكان.

سرية الاجتماع، والتقية.

إن المحافظة على سرية الاجتماع، التي بلغت الحد الذي لم
يستطع حتى من كانوا ينامون مع المسلمين: أن يشعروا بشيء، ولا عرفوا

٣٢٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

بغية رفقاتهم، وكذلك الحال في موعد الاجتماع ومكانه، والطريقة التي تم بها، رغم ضخامته، واتساع نطاقه - ان كل ذلك - ليعتبر مثلاً رائعاً، ودليلاً قوياً على مدى وعي أولئك المسلمين ويقظتهم، وحسن تدبيرهم.

كما أنه برهان آخر على أن اللجوء الى عنصر السرية لا يعتبر تخاذلاً، إذا كان المسلمون لا يملكون مقومات الدفاع عن أنفسهم في مقابل قوى الظلم والطغيان. وهو دليل آخر على أن الثقة التي يقول بها الشيعة وأهل البيت، ونزل بها القرآن وتحكم بها الفطرة والعقل السليم هي الأسلوب الصحيح في التعامل مع الواقع بمرونة، ووعي، حينما يكون الباطل هو القوي مادياً ولا يملك أهل الحق ما يدفع عنهم او يمنع.

شروط البيعة:

ونجد هنا: أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، قد أخبرهم بما سوف يعترض طريقهم من مشاكل وصعوبات، في سبيل نشر الدعوة، والدفاع عنها. ليكونوا على علم مسبق بذلك، وعلى بصيرة من أمرهم، ومن دون أي إبهام أو غموض. حتى لا يترك لهم في المستقبل مجالاً للإعتذار بأنهم ما كانوا يعرفون: أن الأمر سوف ينتهي بهم إلى ما انتهى إليه من مصاعب ومتاعب. بل هو لا يريد أن يشعروا في أنفسهم بالغبن، أو حتى أن يمر ذلك في وهمهم وخيالهم على الإطلاق.

وهو بذلك يدل لكل أحد على أنه لا يريد أن يخدع أحداً بالوعود الخلاب، ولا أن يجعلهم يعيشون الآمال والأحلام الفارغة لأن الوسيلة عنده جزء من الهدف، رغم أنه في أمس الحاجة إلى نصرتهم، بل هو لم يجد طيلة فترة دعوته غيرهم.

لماذا النقباء:

وإن من طبيعة العربي الالتزام بالعهد، والوفاء بالذمار وتعتبر كل

الفصل الثالث: بيعة العقبة ٣٢٥

قبيلة: أنها مسؤولة عن الوفاء بما يلتزم به أحد أفرادها، أو حلفائها عليها.

وعندما بايع الأنصار النبي على الإيمان والنصرة حسبما تقدم - أراد أن يلزمهم ذلك بشكل محدد، بحيث يستطيع أن يجد في المستقبل من يطالبه بالوفاء بالالتزامات والعهود، وكان أولئك النقباء هم الذين يتحملون مسؤولية الوفاء بتلك الالتزامات. وهم الذين يمكن مطالبتهم بذلك، لأنهم هم الكفلاء لقومهم، برضى منهم ومن قومهم على حد سواء.

أما إذا ترك الأمور في مجاريها العامة، فلربما يمكن لكل فرد أن يتملص ويتخلص من التزاماته، ويلقي التبعة على غيره، ويعتبر أن ذلك غير مطلوب منه، ولا يمكن بحسب تصوره أن يكون هو كفرد مسؤولاً عنه.

وأما بعد أن التزم ذلك أفراد معينون، كل واحد منهم من قبيلة. فإن المسؤولية قد أصبحت محدودة، ويمكن مطالبتهم بالوفاء بالتزاماتهم، كلما دعت الحاجة إلى ذلك. لا سيما في مواقف الحرب والدفاع.

وبذلك تبتعد القضية عن الأهواء الشخصية، والأهم من ذلك عن الفوضى في المواقف العامة، وتدخل مراحل التنظيم والبناء الاجتماعي على مستوى الفرد والجماعة.

المشركون في مواجهة الأمر:

يلاحظ: أن المشركين قد اهتموا لأمر هذه البيعة جداً، حتى إنهم تهددوا أهل المدينة بالحرب، مستغلين بذلك ضعف المجتمع المدني، وتفككه بسبب الحروب الداخلية بين الأوس والخزرج.

نعم، إنهم يهددونهم بالحرب، رغم أن حرباً كهذه لسوف تجر عليهم أخطاراً جسيمة من وجهة نظر اقتصادية، لأن قوافلهم إلى الشام، محل تجارتهم المفضل كان طريقها على المدينة. مما يعني: أن المشركين كانوا يرون في هذه البيعة خطورة قصوى، تجعلهم يضطرون

٣٢٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

إلى التضحية بعلاقاتهم الحسنة مع كل من يتقبل هذه الدعوة ويناصرهما، حتى ولو كانوا أهل المدينة، الذين كانوا يكرهون جداً أن تنشب الحرب فيما بينهم وبينهم، كما تقدم قولهم ذلك لابن أبي. كما أن ذلك يدلنا على مدى ما كان يتعرض له المسلمون في مكة من ظلم واضطهاد.

منازعة الأمر أهله:

قد تقدم أن من جملة ما اشترطه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم على أهل المدينة في ضمن نص البيعة، هو أن لا ينازعوا الأمر أهله.

وإن اشتراط ذلك في نص بيعة حساسة جداً في تاريخ الإسلام، ويتقرر مصير الإسلام على نجاحها وعدمه. وتعريض هذه البيعة لخطر الرفض والانقسام، فيما لو رفضوا الالتزام بذلك - كما كان الحال بالنسبة لبني عامر، حسبما تقدم - أن ذلك لمما يدل على أن هذا الأمر كان له أهمية قصوى بالنسبة للرسول صلى الله عليه وآله الذي كان رأيه يمثل رأي الإسلام الواقعي. ويوضح أنه لن يتنازل عنه ولو تعرض لأعظم الأخطار. مما يعني: أن هذا الأمر ليس له، وإنما هو لله يضعه حيث يشاء. وأن هذا هو الأمر الذي إذا لم يبلغه فما بلغ رسالة ربه سبحانه وتعالى.

ويمكن أن نفهم من ذلك أيضاً: أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كان من أول الأمر يمهد السبيل لجهة معينة وإلا، فكيف ينهى الناس عن منازعة الأمر أولئك الأهل المخصوصين والمؤهلين للملك والخلافة، ثم ينسى أن يعين شخص ذلك الخليفة منهم؟

وليعطف ذلك على ما تقدم من تعيينه ذلك الشخص حين إنذار عشيرته الأقربين. ثم على ما يأتي بعد من مواقف وتصريحات وكتابات له (ص)، ولا سيما في قضية الغدير.

الفصل الثالث: بيعة العقبة ٣٢٧

النبي لم يؤمر بالحرب بعد:

كما أننا نجد «صلى الله عليه وآله وسلم» لا يأذن للمجتمعين في العقبة بأن يميلوا على قريش بأسيا فهم؛ لأن معنى ذلك هو القضاء على هذا الدين، وعلى حماة الأبرار، ولا سيما مع قلتهم، وكونهم في الموسم، الذي تجتمع فيه الناس من كل حذب وصوب، وكلهم على نهج وطريقة، ومذاق قريش، ويدورون في فلكها دينياً وعقائدياً وفكرياً، وحتى مصلحياً أيضاً. ولن يكون هناك أية فرصة لانتصار الأنصار على عدوهم في بلاده.

وقريش التي ترى في المدينة أهمية خاصة لأنها على طريق قوافلها إلى الشام ولأجل ذلك أطلقت سعد بن عباد. لن تسكت على موقف الأنصار هذا. ويكون لها كل الحق أمام أهل الموسم، وحتى أمام المدنيين المشركين في أن تضربهم الضربة القاصمة والقاضية، لأنهم في موقف المعتدي، وعلى قريش أن ترد هذا الاعتداء بالكيفية وبالجم الذي تراه مناسباً.

الباب الخامس:

من مكة الى المدينة

الفصل الأول:

ابتداء الهجرة الى المدينة

حب الوطن من الإيمان:

لقد ورد عنهم عليهم السلام أن «حب الوطن من الإيمان»^(١) وإننا بغض النظر عن سند هذا الحديث . لربما يصعب علينا - لأول وهلة - تصور معنى سليم ومقبول لهذه الكلمة ؛ إذ لماذا يكون حب الوطن من الإيمان ؟ وهل يمكن أن يكون لهذا التراب بما هو تراب ، ولد الإنسان عليه ، وعاش في أجوائه ، مهما كان وضعه الجغرافي سيئاً ، قيمة واحترام إلى حد أن يعتبر حبه من الإيمان ؟ وبسوى هذا الحب ، فإن الإيمان يكون ناقصاً ، وليس فيه تلك الفاعلية المتوخاة ؟ .

وإننا في مقام الإجابة على هذا السؤال ، نقول :

إن هذا الحب الذي يهتم به الإسلام لا يمكن أن يكون حباً عشوائياً ، لا هدف له ، ولا فائدة منه . ولا في خط مخالف للإسلام . وإنما هو حب منسجم مع أهداف الإسلام العليا ، ومن منطلق إيماني واقعي إلهي ، فإنه «من الإيمان» .

كما أن الوطن الذي يعتبر الإسلام حبه من الإيمان ، ليس هو محل ولادة الإنسان ، وإنما هو الوطن الإسلامي الكبير ، الذي يعتبر الحفاظ عليه

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٦٦٨ .

٣٣٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

حفاظاً على الدين والإنسانية، لأن به يعز الدين، وتعلو كلمة الله، وهو قوة للإسلام، لأنه محل استقرار وهدوء، وموضع بناء القوة فكرياً وروحياً ومادياً، ثم الحركة على صعيد التنفيذ للانتقال إلى الوضع الأفضل والأمثل. أما حيث الغربة وعدم الاستقرار، فهناك الضياع، وهدر الطاقات، وحيث لا يجد الإنسان الفرصة للتأمل والتفكير في واقعه، ولا في مستقبله، ولو أنه استطاع ذلك، فلسوف لا يستطيع تنفيذ قراراته، لعدم المركزية التي تمنحه الحركة المنظمة، والثابتة. ثم التركيز والاستمرار.

نعم، إن الوطن ليس إلا وسيلة للدفاع عن الدين والحق، وللوصول إلى الأهداف الخيرة والنبيلة، فالدين والإنسان هو الأصل، والوطن وغيره لا بد وأن يكون في خدمة هذا الدين، ومن أجل ذلك الإنسان.

فمن يحافظ على وطنه، ويحبه بدافع الحفاظ على الإسلام؛ وجهه، فإن حفاظه وجهه هذا يكون من الإيمان.

وأما إذا كان الوطن وطن الشرك والكفر والانحراف، والانحطاط بإنسانية الإنسان؛ فإن الحفاظ على وطن كهذا وجهه يكون حفاظاً على الشرك وتقوية له، كما أن وجهه هذا يكون من الكفر والشرك، لا من الإيمان والإسلام.

ومن أجل ذلك فقد حكم الإسلام والقرآن على من كان في بلاد الشرك، وكان بقاءه فيها موجباً لضعف دينه وإيمانه: أن يهاجر منها إلى بلاد الإيمان والإسلام، إلى حيث يستطيع أن يحتفظ بدينه قوياً فاعلاً، وبإنسانية خلقة نبيلة قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ تَوْفَاقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا: فِيمَ كُنْتُمْ؟ قَالُوا: كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

الفصل الأول: ابتداء الهجرة الى المدينة ٣٣٥

بل إن محل ولادة الإنسان إذا كان يحارب الدين الحق، ويسعى في اطفاء نور الله، فإنه يجب تدميره على كل أحد حتى على نفس هذا الذي ولد وعاش فيه^(١).

ومن هنا نعرف أن هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من مكة إلى المدينة كانت هجرة طبيعية ومنسجمة مع مقتضيات الفطرة والعقل السليم والفكر الصحيح، الذي يلاحظ سمو الهدف ونبل الغاية، ويقيم كل شيء انطلاقاً من ذلك الهدف، وعلى طريق الوصول والحصول على تلك الغاية.

وليكن هذا تمهيداً للحديث عن ظروف الهجرة وعواملها وأحداثها، في حدود ما يتناسب مع هذا الكتاب، فنقول:

دوافع الهجرة من مكة إلى المدينة:

إننا بالنسبة لدوافع الهجرة من مكة إلى المدينة يمكننا الإشارة إلى ما يلي:

أولاً: إن مكة لم تعد أرضاً صالحة للدعوة، فقد حصل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» منها على أقصى ما يمكن الحصول عليه، ولم يبق بعد أي أمل في دخول فئات جديدة في الدين الجديد، في المستقبل القريب على الأقل.

وقد كان ثمة مبرر لتحمل الأذى والمصاعب، حينما كان يؤمل أن تدخل في الإسلام جماعات تقويه، وتشد من أزره.

(١) ويرى العلامة المحقق الشيخ علي الأحمدي: أن معنى حب الوطن من الايمان: أن من يحب وطنه فإنه يسعى إلى تنقيته من الانحرافات، وحل مشاكله، وهداية مجتمعه الى طريق الحق والايمان والاسلام، لأن الايمان هو الذي يدفعه إلى ذلك، كما هو معلوم..

٣٣٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

أما بعد أن أعطت مكة كل ما لديها فأخرجت جماعات من شبان المؤمنين، ومن المستضعفين، ولم يبق فيها إلا ما يوجب الصد عن سبيل الله، ويضع الحواجز والعراقيل الكثيرة أمام تقدم هذا الدين، ويمنع من انتشاره واتساعه؛ فإن البقاء في مكة ليس فقط لا مبرر له، بل هو خيانة للدعوة الإسلامية، ومساعدة على حربها، والقضاء عليها، ولا سيما بعد أن جندت قريش كل طاقاتها للصد عن سبيل الله، وإطفاء نوره، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

نعم، لقد كان لا بد من الانتقال إلى مركز آخر، تضمن الدعوة فيه لنفسها حرية الحركة، في القول والعمل، بهدوء بال، واطمئنان خاطر، بعيداً عن ضغوط المشركين، وفي منأى عن مناطق سيطرتهم ونفوذهم.

وقد رأينا: أنهم كانوا يلاحقون تحركات النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، ويرصدونها بدقة، ويتهددون، بل ويعذبون كل من يدخل في هذا الدين الجديد، ويخيفون كل من يحتمل دخولهم فيه.

ثانياً: إن الإسلام وممثلته وداعيته الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» لا يمكن له أن يقتنع بهذا النصيب المحدود من التقدم، لأنه دينه دين البشرية جمعاء: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾^(١).

وما حصل عليه حتى الآن لا يمكنه من تطبيق كافة تشريعات الإسلام، وتحقيق كامل أهدافه. ولا سيما بالنسبة إلى ذلك الجانب، الذي يعالج مشاكل الناس الاجتماعية وغيرها، مما يحتاج إلى القوة والمنعة في مجال فرض القانون والنظام.

ومن الناحية الأخرى: إنه إذا كان بنو عبد المطلب والهاشميون قد استطاعوا أن يؤمنوا الحماية لشخص الرسول من اعتداءات الآخرين على شخصه الكريم، فإنهم لم ولن يستطيعوا أن يؤمنوا له القدرة على حماية أصحابه. الذين دخلوا في هذا الدين، وقبلوا رسالة السماء. فضلاً عن أن

الفصل الأول: ابتداء الهجرة الى المدينة ٣٣٧

يتمكنوا من تأمين الحد الأدنى من الحماية له، فيما لو أراد أن يتوسع في نشر رسالة الإسلام، وفرض هيمنة هذا الدين وسلطانه، إذا احتاج الأمر إلى ذلك.

وأما بعد وفاة أبي طالب رحمه الله فإن الأمور قد تطورت بشكل مخيف، حتى بالنسبة إلى شخص النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»، كما رأينا وسنرى.

ثالثاً: ولقد صمد أولئك الذين أسلموا سنوات طويلة في مواجهة التعذيب والظلم والاضطهاد، حتى لقد فر قسم منهم بدينه إلى بلاد الغربة، وبقي الباقي يواجهون محاولات فتنهم عن دينهم، بمختلف وسائل القهر تارة، وبأساليب متنوعة من الإغراء أخرى.

وإذا استثنينا أشخاصاً معدودين، كحمزة أسد الله وأسد رسوله، وبعض من كانت لهم عشائر تمنعهم^(١)، فإن بقية المسلمين كانوا غالباً من ضعفاء الناس، الذين لا يستطيعون حيلة، ولا يجدون سبيلاً إلا الصبر، وتحمل الأذى.

وإذا فرض عليهم أن يستمروا في مواجهة هذه الآلام والمشاق، دونما أمل أو رجاء؛ فمهما كانت قناعتهم بهذا الدين قوية وراسخة؛ فإن من الطبيعي - والحالة هذه - أن يتطرق اليأس إلى نفوسهم، ثم الهروب والملل من حياة كهذه. وقد تستميلهم بعض الإغراءات العاجلة، فيهلكون ويهلكون؛ فإنه ليس بمقدورهم أن يقضوا حياتهم بالآلام والمتاعب. بل إن بعضهم - كما سيأتي - يهتّم بالعودة إلى الشرك، ويتطلب السبل لمصالحة مشركي مكة، حينما أشيع في غزوة أحد: أن النبي «صلى الله

(١) وحتى هؤلاء فانهم لم يسلموا من الاضطهاد النفسي والمقت الاجتماعي المر. ولربما يكون ذلك بالنسبة لبعضهم أشد من التعذيب الجسدي، تبعاً لنسبة الوعي والشعور المرهف الذي كان يمتاز به بعضهم على غيره.

٣٣٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

عليه وآله وسلم» قد قتل . وقد نزل في ذلك قرآن يتلى إلى يوم القيامة :
﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل
انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ،
وسيجزي الله الشاكرين﴾^(١).

رابعاً : لقد رأت قريش أخيراً : أنها قد اهدت للطريقة التي تستطيع
بواسطتها أن تقتل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، دون أن تكون
مسؤولة أمام الهاشميين بشكل محدد . أو بالأحرى دون أن يستطيع
الهاشميون أن يطالبوا بدم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» . وذلك بأن
يقتله عشرة ، كل واحد منهم من قبيلة ، فيضيع دمه في القبائل ، ولا
يستطيع الهاشميون مقاومتها جميعاً ؛ لأنهم إما أن يقاتلوا القبائل كلها ،
وتكون الدائرة عليهم ، وأما أن يقبلوا بالدية ، وهو الأرجح . وإذا قتل
النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، فإن القضاء على غيره من أتباعه يكون
أسهل وأيسر ، ولا يشكّل لقريش مشكلة ذات شأن . بل وحتى لو تركوهم
على ما هم عليه ، فإن أمرهم لسوف يصير إلى التلاشي والاضمحلال .

هكذا كانت تفكر قريش وتخطط . وهو تفكير محكوم بالعصبية
القبلية . ولكنه ذكي جداً . وبالإمكان تحقيق الأهداف الشريرة تجاه
الرسول والرسالة من خلاله .

ولكن عناية الله سبحانه وإن كانت تشمل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وترعاه ، إلا أن من الواضح : أن إقدام قريش على تنفيذ مخططاتها
- فشلت أو نجحت - لسوف يعرض علاقاتها مع الهاشميين لنكسة خطيرة ،
ولسوف تزيد مضاعفاتها بشكل مخيف ببقاء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في مكة . كما أن عادة الله قد جرت على أن لا يحول بين أحد وبين
تنفيذ إرادته ، بشكل قهري وقسري ، إلا بنحو من العناية والألطف التي

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

الفصل الأول: ابتداء الهجرة الى المدينة ٣٣٩

تشمل ذلك النبي الذي يكون حفظه ضرورياً لحفظ الدين والإنسان .
فأرادة الانسان حرة طليقة ، ولكن الله يسدد ويلهم ويؤيد من تستهدفه تلك
الارادة بالشر والاذى .

وبعد كل ما تقدم يتضح : أنه كان لا بد للنبي الأعظم «صلى الله
عليه وآله وسلم» ، ولمن معه من المسلمين من الخروج من مكة إلى مكان
أمن وسلام لا يشعرون فيه بأي ضغط ، يملكون فيه حرية الحركة ، وحرية
الكلمة ، وحرية التخطيط لبناء مجتمع إسلامي يكون فيه النبي «صلى الله
عليه وآله وسلم» قادراً على القيام بنشر دعوته ، وإبلاغ رسالته ، على النحو
الأفضل والأكمل .

سر اختيار المدينة:

وأما عن سر اختيار النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» - الذي لا
ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى - للمدينة بالذات داراً لهجرته ،
ومطلقاً لدعوته ، دون غيرها كالحبشة مثلاً ؛ فذلك يرجع إلى عدة عوامل ،
نذكر منها ما يلي :

١ - إن مكة كانت - كما قدمنا - تتمتع بمكانة خاصة في نفوس
الناس . وبدون السيطرة عليها ، والقضاء على نفوذها الوثني ، واستبداله
بالنفوذ الإسلامي ؛ فإن الدعوة تعتبر فاشلة ، وكل الجهود تبقى بدون
جدوى ؛ فإن الدعوة كانت بحاجة إلى مكة ، بنفس القدر الذي كانت مكة
بحاجة فيه إلى الدعوة .

فلا بد من اختيار مكان قريب منها ، يمكن أن يمارس منه عليها
رقابة ، ونوعاً من الضغط السياسي والاقتصادي ، وحتى العسكري إن لزم
الأمر في الوقت المناسب ، حينما لا بد له من أن يفرض سلطته عليها .
والمدينة ، هي ذلك الموقع الذي تتوفر فيه مقومات هذا الضغط ،

٣٤٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

فهي تستطيع مضايقة مكة اقتصادياً؛ لوقوعها على طريق القوافل التجارية المكية، وقريش تعيش على التجارة بالدرجة الأولى.

وقد تقدم قول المشركين لعبد الله بن أبي، حين بيعة العقبة: «ما من حي أبغض من أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم».

وتقدم أيضاً: أنهم لما أخذوا سعد بن عباد بعد بيعة العقبة وعذبوه، جاء الحارث بن حرب وجبير بن مطعم وخلصاه، لأنه كان يجير لهما تجارتها.

وإذا كانت قريش قد لقيت من أبي ذر ما لقيت، حين أخذ عليها طريق تجارتها، فإن ما سوف تلقاه من أهل المدينة سيكون أشد، وأعظم خطراً، وأبعد أثراً، ولا سيما إذا عقد الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» تحالفات مع سائر القبائل المقيمة في المنطقة، كما حصل بالفعل، وكانت المعاهدة بصورة تجعلهم مضطرين لقطع علاقاتهم بالمشركين^(١).

٢ - لقد عرفنا مما تقدم: أن الهجرة إلى المدينة هي الحل المفروض، الذي لا خيار معه؛ وذلك لأن الهجرة إلى الطائف لم تكن بالتي تجدي نفعاً، بعد أن رأينا: أن أهلها رفضوا الاستجابة إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، حينما هاجر إليهم، لأنهم يرون: أن مكة هي التي تستطيع أن تضايقهم اقتصادياً، وهم إليها أحوج منها إليهم. ولأجل ذلك فإنهم لا يستطيعون في المستقبل المنظور على الأقل إلا أن يدوروا سياسياً في فلكها، وأن يخضعوا لسيطرتها. وأما سائر قبائل العرب؛ فلا يجدون في أنفسهم القدرة على ذلك. وقد جرب أن يعرف

(١) راجع: وثيقة المدينة الآتية في الجزء التالي من هذا الكتاب؛ أو آخر فصل: أعمال تأسيسية في مطلع الهجرة. فقد جاء فيها ما يلي: «وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش، ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن». وراجع: نشأة الدولة الإسلامية:

الفصل الأول: ابتداء الهجرة الى المدينة ٣٤١

مدى استعدادهم لقبول دعوته، والدفاع عنها؛ فوجد ما لا ينفع غلةً، ولا يبل صدًى، إن لم نقل أنه وجد ما يزيد الطين بلةً، والامر خطورة.

وأما اليمن، وفارس، والروم، وبلاد الشام وغيرها؛ فقد كانت خاضعة لسلطة الدولتين العظميين، اللتين لن يكون نصيب الرسول والرسالة منهما سوى المتاعب والاختار الجسيمة. وقد تكلمنا عن شيء من ذلك عند الحديث عن عوامل انتصار الاسلام وانتشاره في أواخر الباب الأول من هذا الكتاب. وسوف نرى أن كسرى قد حاول أن يقوم بعملية خطيرة تجاه الرسول ورسالته حينما أرسل إليه «صلى الله عليه وآله وسلم» يدعوه إلى الإسلام.

وأما الحبشة فهي بحكم موقعها الجغرافي مفصولة عن مكة، كما أنها بحكم واقعها الاجتماعي، والسياسي، والبشري، والعنصري، وبحكم كونها بلداً أفريقياً، فإنها ليست بلداً قادراً على أن يقوم بعملية التغيير العالمية الشاملة، لا إقتصادياً، ولا سياسياً، ولا عسكرياً، ولا حتى فكرياً، واجتماعياً.

أضف إلى ذلك أن مهاجمة مكة بجيش من الحبشة سوف يدفع العرب كافة إلى الوقوف إلى جانب قريش ضده، بخلاف ما لو كانت عملية التغيير منطلقة من الداخل حينما يؤمن بدعوته الفقراء، والمستضعفون، ويواجه هؤلاء الملأ والمستكبرين من قومهم بالذات.

وهكذا يتضح: أنه ليس ثمة إلا المدينة، والمدينة فقط موقعاً مناسباً للهجرة فكانت الهجرة إليها.

٣ - ومن الجهة الأخرى، فإن المدينة كانت أغنى من مكة زراعياً. أي أنها لو فرض عليها: أن تتعرض لضغط تجاري من نوع ما - مع أنه ليس باستطاعة مكة أن تفعل شيئاً من ذلك - فإنها تستطيع أن تقاوم هذا الضغط، وتحفظ لنفسها بنوع من الحياة، ولو بصعوبة ما، من دون أن

٣٤٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

تستسلم لإرادة الآخرين، وتنساق وراء رغباتهم، كما كان الحال بالنسبة لغيرها.

هذا عدا عن أن الدعوة التي تحتاج إلى نشاط واسع، وجهد شامل، لأنها تريد أن تقود عملية التغيير الشامل على مستوى عالمي - هذه الدعوة - تحتاج إلى استقرار اقتصادي داخلي، يستطيع أن يوفر الفرصة لحملة هذه الرسالة للحركة في سبيل نشر دينهم، وبث رسالتهم.

٤ - وإذا كان الحج من أهم تشريعات الاسلام؛ فما دامت مكة في أيدي الوثنيين؛ فإنه سوف يفقد أثره وفعاليته في مجال التربية السياسية، والإجتماعية، وفي غير ذلك من مجالات.

وأيضاً، فما دامت مكة في أيدي الوثنيين، فلسوف يبقى لهم نفوذ واسع في القبائل العربية، وقدسية من نوع ما في نفوسهم.

فلابدّ إذن من اخراجها من أيديهم؛ لينتهي ما لهم من رصيد معنوي في نفوس الناس، ولتنتفتح القلوب بكل ما لديها على الدين الجديد، وليتمكن المسلم من أن يؤدي إحدى أعظم شعائره - الحج - بحرية تامة، دونما رادع أو زاجر.

ويدل على ذلك، ما يرويه الطبراني وغيره: أنه لما عرض النبي الإسلام على ذي الجوشن الضبابي، أبى أن يدخل فيه إلا أن يري النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد غلب على الكعبة. وفي رواية أخرى، أنه قال له: «رأيت قومك قد كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك. فانظر ماذا تصنع؛ فإن ظهرت عليهم آمنت بك، واتبعتك، وإن ظهروا عليك لم أتبعك^(١)».

(١) مجمع الزوائد ج ٦ ص ٦٨، وقال: «رواه عبد الله بن أحمد، وأبو، ولم يسق المتن، والطبراني ورجاهما رجال الصحيح، وروى أبو داود بعضه» انتهى.

الفصل الأول: ابتداء الهجرة الى المدينة ٣٤٣

وبعد هذا، فإن أقرب المواقع إلى مكة هو المدينة، وهي التي تملك إلى جانب قوتها الاقتصادية كثافة سكانية جيدة، تستطيع أن تقوم بالمهمة التي توكل إليها تجاه مكة على أكمل وجه، ولا توجد هذه الميزة في أي من المناطق القريبة إلى مكة.

ونلاحظ: أن إيجاب الهجرة على من يسلم، قد جعل المدينة - بعد هجرة الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» إليها - في حالة نمو سكاني مستمر، يؤهلها لتحمل مسؤولية بناء دولة، وحماية منجزاتها على المدى المنظور.

٥ - إن أهل المدينة كانوا في الأصل من مهاجري اليمن، التي كانت تمتلك شيئاً من الحضارة البدائية في قديم الزمان، فهم ليسوا أعراباً؛ لتكون قلوبهم ممعنة في القسوة. ولا كان ثمة زعامات ومصالح خطيرة لهم في المنطقة، كما كان الحال بالنسبة لقريش، ولا كانوا يعيشون في تلك الأجواء النفسية المعينة، كما كانت تعيش قريش؛ نتيجة لموقعها النسبي في العدنانية، ولموقعها في زعامة مكة، وحجابه البيت.

ثم هناك التنافس الظاهر بين العدنانية والقحطانية. حيث لا يسع القحطانيين، حتى ولو لم تكن ثمة دوافع دينية وعقيدية: أن يسلموا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى أعدائه.

ويشهد لهذا: أننا نجد بقايا هذا التنافس حتى إلى ما بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ فنجد أن عمر بن الخطاب قد فضل العدنانية على القحطانية في العطاء، الأمر الذي مهد السبيل أمام الأمويين لاستغلال هذه الروح وإشعال الفتنة بين اليمانية والقيسية. إبان حكمهم البغيض. بينما نجد أمير المؤمنين «عليه السلام» لم يكن يرى لبني إسماعيل على بني إسحاق فضلاً. (ولهذا البحث مجال آخر).

٦ - ثم إن أهل المدينة قد ذاقوا مرارة الانحراف كأشد ما يكون،

٣٤٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وقد أنهكتهم الحروب واكلتهم، ويعيشون في رعب دائم وخوف مستمر، حتى إنهم ما كانوا يضعون السلاح لا في الليل ولا بالنهار^(١). وتقدم أن الخزرج ذهبوا إلى مكة يطلبون الحلف من القرشيين فلم تلب قریش طلبهم. وكانوا يتمنون من كل قلوبهم: أن يجدوا مخرجاً من المأزق الذي يرون أنفسهم فيه، حتى إن أسعد بن زرارة لا يخفي لهفته على هذا الأمر؛ حيث قال للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» حينما دعاه إلى الإسلام: «إنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين اخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها الله بك، ولا أحد أعز منك الخ»^(٢).

ثم وبعد أن دخل الإسلام إلى المدينة، فقد كان لا بد أيضاً من الحفاظ على المسلمين فيها، وشد أزهرهم، حتى يمكن لهم الاستمرار في نصرة هذا الدين، وإعلاء كلمة الله.

٧ - لقد كانت بشائر اليهود بقرب ظهور نبي في المنطقة قد جعلت الكل مستعدين لقبول هذا الدين. ولكنهم يحتاجون إلى مناسبات دافعة، وإلى ظروف مشجعة؛ فلما ذا يهملهم الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، ولا يهيئ لهم الفرصة لذلك؟!.

٨ - هذا كله، عدا عن أن أهل المدينة أنفسهم قد طلبوا ذلك من النبي الأكرم (ص) وبايعوه بيعة العقبة، ووعدوه النصر، والنبي (ص) إنما يتصرف وفق الإرادة الإلهية التي لا تغيب عنها تلك المصالح وسواها. فالله هو الذي يرعاه ويسدده، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين.

هذا ما رأينا الإشارة إليه في هذا الصدد.

(١) البحار: ج ١٩ ص ٨ و ٩ و ١٠، وأعلام الوري: ص ٥٥.

(٢) البحار: ج ١٩، وأعلام الوري: ص ٥٧.

الفصل الأول: ابتداء الهجرة الى المدينة ٣٤٥

المؤاخاة بين المهاجرين:

وكتمهيد لعملية الهجرة، حيث يفترض أن يواجه المسلمون الكثير من المصاعب، التي تحتاج إلى التعاون والتعاقد بأعلى مراتبه، كانت عملية المؤاخاة التي أريد بها السمو بعلاقات هذا الانسان عن المستوى المصلحي، وجعلها علاقة إلهية تصل إلى درجة الأخوة؛ ليكون أثرها في التعامل بين المسلمين أكثر طبيعية، وانسجاماً، وبعيداً عن النوازع النفسية التي ربما توحى للمعين والمعان بأمور من شأنها أن تعقد العلاقات بينهما نفسياً على الأقل.

وقد رأينا: أن البعض يتوهم ترتب التوارث على هذه المؤاخاة دون الرحم، وذلك يدل على عمق تأثير هذا الحدث في المسلمين؛ في روجياتهم وفي علاقاتهم على حد سواء.

وعلى كل حال، فلقد آخى الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» قبل الهجرة فيما بين المهاجرين، على الحق والمواساة؛ فأخى بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود وبين عبادة بن الحارث وبلال. وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة، وبين علي «عليه السلام» ونفسه «صلى الله عليه وآله وسلم»، وقال: أما ترضى أن أكون أخاك؟.

قال: بلى يا رسول الله رضيت.

قال: فأنت أخي في الدنيا والآخرة^(١).

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ١ ص ١٥٥ عن الاستيعاب. وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٥٣ ومستدرک الحاكم ج ٣ ص ١٤ وتلخيصه للذهبي.

٣٤٦ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وسياتي إن شاء الله في الجزء الرابع من هذا الكتاب: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة. وسوف نذكر طائفة من مصادر حديث المؤاخاة هناك إن شاء الله ونذكر انكار ابن تيمية وغيره لحديث مؤاخاة مهاجري لمهاجري، وجوابه، ثم نعلق على حديث المؤاخاة بما نراه مناسباً؛ فإلى هناك.

ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة:

ويقول المؤرخون إن بيعة العقبة الثانية قد كانت قبل هجرة الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى المدينة بثلاثة أشهر ويقولون أيضاً: إنه بعد أن عقد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بيعة العقبة الأولى - على الظاهر - مع أهل المدينة ولم يقدر أصحابه أن يقيموا بمكة بسبب إيذاء المشركين، ولم يصبروا على جفوتهم، رخص لهم «صلى الله عليه وآله وسلم» بالهجرة إلى المدينة. وبقي «صلى الله عليه وآله وسلم» بمكة ينتظر أن يؤذن له. فخرجوا أرسالاً، حتى أذن الله سبحانه لنبيه الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» بالهجرة، كما سياتي.

المثل الأعلى:

وجدير بالتسجيل هنا: أن نرى المسلم الحقيقي يضحى بوطنه الذي نشأ وعاش فيه، وبكل ما يملك من متاع الحياة الدنيا، وعلاقاته الاجتماعية، وروابطه النسبية ويقدم على معاداة الناس كلهم، حتى آبائه، وإخوانه وأبنائه. ويخرج من بلده ومسقط رأسه ليواجه مستقبلاً يعرف أنه مليء بالأحداث والأخطار، كل ذلك في سبيل هدفه ودينه وعقيدته. وهو أروع مثل نستفيدة من عملية الهجرة. سواء في ذلك الهجرة إلى المدينة، أو الهجرة إلى الحبشة.

الفصل الأول: ابتداء الهجرة الى المدينة ٣٤٧

هجرة عمر بن الخطاب:

ومما يلفت النظر هنا ما يقال عن كيفية هجرة عمر بن الخطاب، حيث يروون عن علي «عليه السلام» أنه قال:

ما علمت أحداً من المهاجرين هاجراً إلا مختفياً، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد بسيفه، وتنكب قوسه، وانتضى في يديه أسهماً، واختصر عنزته، ومضى قبل الكعبة، والملا من قریش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة؛ فقال: شأهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، فمن أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي.

قال علي رضي الله عنه: فما تبعه أحد، ثم مضى لوجهه^(١).

ونحن نقطع بعدم صحة هذا الكلام. لأن عمر لم يكن يملك مثل هذه الشجاعة، وذلك:

أولاً: لما تقدم في حديث اسلامه عن البخاري وغيره، من أنه حين اسلم اختبأ في داره خائفاً، حتى جاءه العاص بن وائل، فأجاره، فخرج حينئذ.

وفي بدر تكلم واساء الكلام، حيث كان يجبن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» والمسلمين.

ثانياً: إن مواقفه الحربية كانت عموماً غير مشجعة لنا على تصديق مثل هذا الكلام فلقد فر في أحد، وفر في حنين، رغم أنه يرى الخطر يتهدد

(١) منتخب كنز العمال هامش مسند أحمد ج ٤ ص ٣٨٧ عن ابن عساكر، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢/٢١، وأشار إلى ذلك في نور الابصار ص ١٥. وكنز العمال ج ١٤ ص ٢٢٢/٢٢١ عن ابن عساكر.

٣٤٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

الرسول الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» فلا يلتفت إليه، ولا يفكر إلا في الحفاظ على نفسه.

وأما فراره في خيبر فهو أعجب وأعجب حيث إنه كان معه من يدافع ويحامي عنه.

أما في واقعة الخندق ففر فيها أيضاً كما أنه لم يجرؤ على الخروج إلى عمرو بن عبدود.

وحينما أخذ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» سيفاً في أحد، وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه طلبه أبو بكر، وعمر فلم يعطهما إياه. واعطاه أبا دجانة. إلى غير ذلك مما لا مجال له هنا. ولسوف نشير إليه فيما يأتي إن شاء الله تعالى. حين الكلام على الغزوات المشار إليها.

والغريب في الأمر: أننا لم نر ولم نسمع: أن عمر، وأبا بكر، وعثمان قد قتل واحد منهم أحداً، أو بارز انساناً، وما ذكر من ذلك قد ثبت عدم صحته.

كما أنه لم يجرح أي من هؤلاء ولا دميت له يد ولا رجل في سبيل الله. مع أن أعظم صحابته «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أصيبوا في الله وضحوا في سبيله، الأمر الذي يشير إلى أن هؤلاء كانوا شجعاناً في الرخاء، غير شجعان عند اللقاء.

ثالثاً: لقد أشرنا فيما سبق إلى أنه لم يجرؤ على أن يأخذ رسالة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» للمكيين في عام الحديبية، بحجة: أن بني عدي لا ينصرونه إن أودى!! فمن كانت هذه فعالة في تلك المواقع الصعبة هل يحتاج إلى بني عدي، أو إلى غيرهم؟

رابعاً: قال أبو سفيان في فتح مكة للعباس، حينما كانا يستعرضان الألوية، فمر عمر، وله زجل: «يا أبا الفضل، من هذا المتكلم؟»

قال: عمر بن الخطاب.

الفصل الأول: ابتداء الهجرة الى المدينة ٣٤٩

قال: لقد أُمِرُّ بُنِي عَدِي بَعْدَ - وَاللَّهِ - قَلَّةٍ وَذَلَّةٍ.

فقال العباس: يا أبا سفيان إن الله يرفع من يشاء بما يشاء، وإن عمر ممن رفعه الاسلام^(١).

وخامساً: إنهم متفقون على أن الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» كان أشجع البشرودون استثناء، بل سيأتي أن بعضهم يحاول ادعاء أشجعية أبي بكر على سائر الصحابة - وإن كان سيأتي أن العكس هو الصحيح - ونحن نرى في حديث الهجرة أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يخشى في الغار، حذراً من المشركين، كما أن أبا بكر يخاف ويكي، رغم كونه مع النبي الأعظم، الذي يتولى الله رعايته وحمايته، وظهرت له آنئذ الكثير من المعجزات الدالة على ذلك. وقد ذكر الله خوف وحزن أبي بكر في القرآن. فكيف يخاف أبو بكر ويحزن مع أنه إلى جانب رسول الله الذي يتولى الله حمايته ورعايته، مع ادعاء محبي أبي بكر أنه أشجع الصحابة بعد الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» - نعم كيف يخاف أبو بكر ولا يخاف عمر؟!

ولماذا يعمل الرسول بالحزم، ويراعي جانب الحذر من قريش، ولا يفعل ذلك عمر بن الخطاب؟!

ولماذا لم يحم عمر رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، حتى يخرج من مكة إلى المدينة؟!

ولماذا يرضى عمر للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يتحمل كل هذه الصعاب والمشاق، حتى يتمكن من التخلص من الورطة التي هو فيها؟!

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢١ وعن كنز العمال ج ٥ ص ٢٩٥ عن ابن عساکر من طريق الواقدي.

٣٥٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

بل إذا كان لعمر هذه الشجاعة والشدة؛ فلماذا يضطر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى الهجرة؟ فليحمله هذا البطل الشجاع، وليردّ عنه بعض ما كانت قریش تؤذيه به؟ ١٩ .

ثم إننا لا ندرى لماذا لم يحدثنا التاريخ عن موقف مماثل لحمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله، الذي شجّ رأس أبي جهل شجّة منكراً، وعز المسلمون بإسلامه؟! .

ولماذا يترك النبي والهاشميين محصورين في الشعب، يكادون يهلكون جوعاً، ولا يجروء أحد على أن يوصل لهم شيئاً من طعام؟! . لأن عمر عند هؤلاء قد اسلم قبل الحصر في الشعب، وإن كنا اثبتنا في ما تقدم بشكل قاطع : أنه قد اسلم قبل الهجرة بقليل .

إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التي لن تجد لها عند هؤلاء الجواب المقنع والمفيد .

ما هي الحقيقة إذن؟!

ولكن الحقيقة هي : أن هذا التهديد والوعيد إنما كان من أمير المؤمنين علي «عليه السلام» ، حينما هاجر، ولحقه سبعة من المشركين في ضجنان وسيأتي تفصيل القضية حين الكلام على هجرة أمير المؤمنين علي «عليه السلام» بعد هجرة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» .

ولكن أعداء علي «عليه السلام» لم يستطيعوا أن يتحملوا أن يروا هذه الكرامة له ، ولا سيما بعد ما أثبت صحتها بمبيته على فراش النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ليلة الهجرة . وكما كان يبيت على فراش رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» مدة ثلاث سنين ، يقيه بنفسه حينما كانوا محاصرين في شعب أبي طالب «رحمه الله» .

فلما لم يكن إلى إنكارهم مبيته على الفراش سبيل أغاروا على

الفصل الأول: ابتداء الهجرة الى المدينة ٣٥١

فضيلته الاخرى - كعادتهم - فاستولوا عليها، ونسبوا إلى غيره، - وعظموا من شأن أبي بكر في الغار - كما سيأتي حين الكلام على الهجرة إن شاء الله تعالى. بل انهم لم يرضوا إلا أن تكون فضيلة عمر على لسان علي نفسه، كما عودونا في مناسبات كهذه، فإن ذلك أوقع في النفس، وأبعد عن الشبهة، وأدعى إلى القبول.

ولكن الله تعالى يقول: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾^(١). وهكذا كان.

ماذا عن الهجرة إلى المدينة؟

لقد أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» أصحابه بالهجرة إلى المدينة، تمهيداً لخروجه هو «صلى الله عليه وآله وسلم» إليها أيضاً، وقال لهم: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها، فهاجر إليها المسلمون، بعضهم سراً، وبعضهم علانية، مضحين بوطنهم، وبعلاقاتهم، وكثير منهم بثرواتهم، ومكانتهم الاجتماعية وكل شيء، في سبيل دينهم، وعقيدتهم.

وهذا معناه: أن الدين والعقيدة فوق وأعلى من كل شيء؛ فالوطن، والمال، والجاه، وكل شيء لا قيمة له، إذا كان الدين مهدداً بالخطر؛ لأن الحفاظ على الدين الصحيح، معناه الحفاظ على الوطن والمال وكل شيء، وبدونه يكون كل شيء في معرض الزوال، إن لم يكن عبثاً، أو فقل: خطراً يهدد هذا الانسان في كثير من الظروف والأحوال.

قريش والهجرة:

وقد قدمنا بعض الكلام حول الهجرة، وموقف قريش منها حين

(١) الأنبياء/ ١٨.

٣٥٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

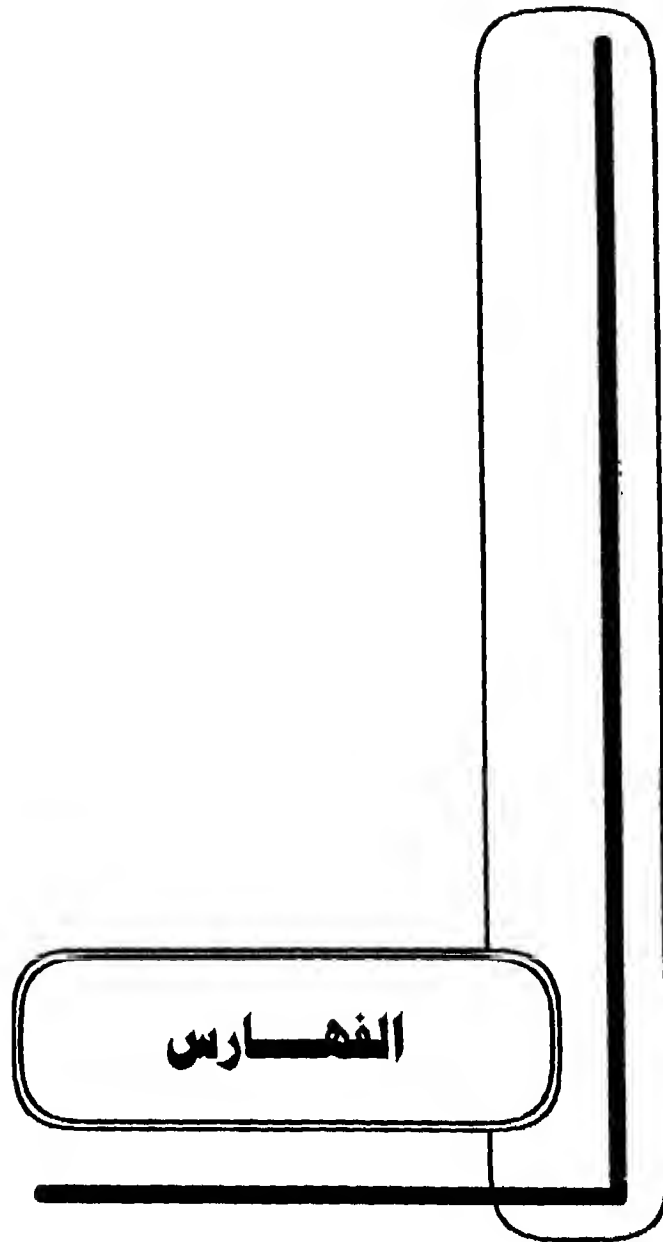
الكلام على هجرة الحبشة فلا نعيد وإذا كانت قريش قد قاومت الهجرة إلى الحبشة بذلك الشكل القوي ، حتى لقد حاولت استرجاع المسلمين من أرض الحبشة . فماذا عساها يكون موقفها من الهجرة إلى المدينة ، والتي ترى فيها أعظم الخطر على مصالحها ، وعلى وجودها ومستقبلها؟! .

لقد حاولت أن تمنع المسلمين من الهجرة بمختلف الوسائل ، فكانت تحبس من تظفر به منهم ، وتفتنه عن دينه ، وتمارس ضده مختلف أساليب القهر والقسوة ، فلم تنجح ولم تفلح وهي من الجهة الأخرى ترى نفسها عاجزة عن التصفية الجسدية لأكثر المسلمين ؛ لأن المهاجرين كانوا - عموماً - من القبائل المكية ، وليس قتل أي منهم إلا سبباً في إثارة حرب أهلية بين المشركين أنفسهم . وهذا ولا شك ليس في مصلحة قريش في أي حال .

ويشهد لما ذكرناه ما حصل لأبي سلمة حينما خرج بزوجه وولده ، فقام إليه رجال من بني المغيرة فأخذوا زوجته منه ؛ لأنها منهم ، فثار بنو عبد الأسد ، قبيلة الزوج ؛ فانتزعوا سلمة من أمه^(١) .

وأدركت قريش : أن هذه الهجرة الواسعة سوف تعقبها هجرة الرسول الأعظم نفسه ؛ ليمارس بحرية تامة عملية الريادة ، والقيادة ، والهداية بشكل أوسع وأعمق . ولسوف يحميه المدنيون بكل ما لديهم . فلم يكن لديها همٌ إلا المنع من تحقق ذلك بأي وسيلة تقدر عليها ، أو حيلة تهتدى إليها .

(١) البداية ج ٣ ص ١٦٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١١٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٢١٥/٢١٦ .



١ - الدليل الإجمالي للكتاب

الفصل الثالث: الاسراء والمعراج	٥٢-٥
الباب الثاني: حتى وفاة أبي طالب	٢٦١-٥٣
الفصل الأول: حتى الهجرة إلى الحبشة	١١٥-٥٥
الفصل الثاني: هجرة الحبشة	١٤٧-١١٧
الفصل الثالث: حتى الشعب	١٩١-١٤٩
الفصل الرابع: في شعب أبي طالب	١٢٤-١٤٣
الفصل الخامس: أبو طالب مؤمن قريش	٢٥٩-١٢٥

الباب الثالث: من وفاة أبي طالب حتى

الهجرة إلى المدينة	٣٢٧-٢٦١
الفصل الأول: الهجرة إلى الطائف	٢٧٤-٢٦٣
الفصل الثاني: حتى بيعة العقبة	٣٠٤-٢٧٥
الفصل الثالث: بيعة العقبة	٣٢٥-٣٠٥

الباب الرابع: من مكة إلى المدينة ..	٣٢٩
الفصل الأول: ابتداء الهجرة إلى المدينة	٣٣٣
الفهارس	٣٥٥

٢ - الدليل التفصيلي للكتاب

٥٢ - ٥	الفصل الثالث: الاسراء والمعراج
٧	الاسراء والمعراج
٨	متى كان الإسراء والمعراج
٩	الأدلة على المختار
١٤	تسمية أبي بكر الصديق
١٥	الإسراء والمعراج في اليقظة أو في المنام
١٨	الإسراء والمعراج في القرآن
١٩	سؤال هام وجوابه
٢٠	الداعية الحكيم
٢١	لا تدركه الأبصار
٢٥	الإسراء من المسجد
٢٦	موسى وفرض الصلوات الخمس
٣٠	استبعاد الإسراء والمعراج
٣١	من أهداف الإسراء والمعراج
٣٤	الأذان
٣٥	اليهود والمسجد في القرآن
٣٥	مفاد الآيات إجمالاً

٣٥٨ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

ضرب القاعدة وإعطاء الضابطة	٣٦
أقوال الرواة والمفسرين	٤٠
رأي العلامة الطباطبائي	٤١
رأي آخر	٤٤
وثمة رأي آخر أيضاً	٤٦
والروايات ماذا تقول	٤٧
الرأي الأمثل	٤٧
القميون يقاتلون الإسرائيليين	٤٨
الغرب وإسرائيل	٤٩
الحروب الطويلة والصعبة	٥٠
الفلسطينيون والأرض	٥١
الباب الثاني: حتى وفاة أبي طالب	٥٣ - ٢٦١
الفصل الأول: حتى الهجرة إلى الحبشة	٥٥ - ١١٥
أهداف الإسلام	٥٧
الحاجة إلى الوزير والوصي	٥٨
وأندر عشيرتك الأقربين	٥٩
التعصب الأعمى	٦٢
ابن تيمية وحديث الدار	٦٣
الرد على ابن تيمية	٦٤
نقاط هامة في حديث الإنذار. أ: روايات لا يمكن أن تصح	٦٩
ب: المراد بكونه خليفة في أهله	٧١
ج: لماذا تخصيص العشيرة بالدعوة	٧٢
د: علي(ع) في يوم الإنذار	٧٤
هـ: موقف أبي لهب	٧٥
و: الإنذار أولاً	٧٦

٢٥٩	الفهارس
٧٧	ز: ماذا قال النبي (ص) في يوم الإنذار
٧٨	ح: التبشير والإنذار
٨٠	ط: أخي ووصيي
٨٠	فاصدع بما تؤمر
٨٤	أ: قریش لم تصل إلى نتيجة
٨٥	ب: سر استكبار قریش
٨٧	ماذا بعد فشل المفاوضات
٨٩	المعذبون في مكة
٨٩	مع المعذبين أيضاً
٩٠	المعذبون الذين أعتقهم أبو بكر
٩٦	هل عذب المشركون أبا بكر؟
٩٨	هل كان أبو بكر رئيساً
٩٩	ملاحظة أخيرة
١٠٠	أول شهيد في الإسلام من آل ياسر
١٠١	عمار بن ياسر
١٠٢	التقية في الكتاب والسنة
١٠٣	ملاحظة
١٠٣	وأما من السنة فنذكر
١٠٥	وأما التقية في التاريخ
١١١	التقية ضرورة فطرية عقلية دينية إصلاحية
١٤٧ - ١١٧	الفصل الثاني: هجرة الحبشة
١١٩	لا بد من حل
١٢٠	سر اختيار الحبشة
١٢٢	الهجرة إلى الحبشة
١٢٤	أمير الهجرة جعفر

٣٦٠ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣
١٢٤ من هو أول مهاجر إلى الحبشة
١٢٥ هجرة أبي موسى إلى الحبشة لا تصح
١٢٦ رقة عمر للمهاجرين
١٢٦ هجرة أبي بكر لا تصح
١٣٠ فضيلة عثمان بن مظعون تجعل لغيره
١٣١ محاولة قريش اليائسة
١٣٤ قريش وخططها المستقبلية
١٣٦ الثورة على النجاشي
١٣٧ عودة بعض المهاجرين
١٣٧ قصة الغرانيق
١٤٥ تساؤلات حائرة
١٤٦ حقيقة الأمر
١٤٩ - ١٩١ الفصل الثالث: حتى الشعب
١٥١ تناقضات في تاريخ إسلام حمزة
١٥١ إسلام حمزة (رض)
١٥٣ إسلام حمزة كان عن وعي لا حمية
١٥٤ سر جبن أبي جهل في مواجهة حمزة
١٥٥ ملاحظة هامة
١٥٥ عبس وتولى
١٦١ المذنب رجل آخر
١٦٢ سؤال وجوابه
١٦٢ الرواية الصحيحة
١٦٣ اتهام عثمان
١٦٤ تاريخ هذه القضية
١٦٤ أعداء الإسلام وهذه القضية

الفهارس	٣٦١
أكاذيب أخرى مشابهة	١٦٥
قضية إسلام عمر بن الخطاب	١٦٧
وثمة أوسمة أخرى	١٧٠
١ - متى كان إسلام عمر؟	١٧١
ونحن نشير هنا إلى :	١٧١
متى أسلم عمر إذن	١٧٢
٢ - من سمى عمر بالفاروق	١٧٧
٣ - هل كان عمر قارئاً	١٧٧
ملاحظة	١٨٠
ملاحظة أخرى	١٨٠
٤ - هل عز الإسلام بعمر حقاً	١٨١
٥ - غسل عمر لمس الصحيفة	١٨٧
٦ - نزول آية في إسلام عمر	١٨٨
ملاحظات أخيرة	١٨٩
خاتمة المطاف	١٩١
الفصل الرابع : في شعب أبي طالب	١٩٣ - ٢٢٤
المقاطعة	١٩٥
أموال خديجة (رض) وسيف علي (ع)	١٩٨
حكيم بن حزام وعواطفه تجاه المسلمين	٢٠٠
انشقاق القمر	٢٠٢
شبهة وحلها	٢٠٣
انشقاق القمر الحدث الكبير	٢٠٦
إمكان الإنشقاق والالتئام علمياً	٢٠٧
دلالة الآية القرآنية على ذلك	٢٠٩
الأساطير	٢١١

٣٦٢ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

٢١١	نقض الصحيفة
٢١٣	حنكة أبي طالب وإيمانه
٢١٤	القبلية وآثارها
٢١٥	ما بعد نقض الصحيفة
٢١٥	وفد من الحبشة
٢١٦	من مواقف أبي طالب
٢١٨	مع تضحيات أبي طالب رضوان الله عليه
٢٢١	عام الحزن
٢٢٢	الحب في الله والبغض في الله

٢٥٩ - ٢٢٥ الفصل الخامس : أبو طالب مؤمن قريش

٢٢٧	إيمان أبي طالب
٢٢٩	بعض الأدلة على إيمان أبي طالب
٢٤٠	الأدلة الواهية
٢٤٠	١ - حديث الضحضاح
٢٤٢	٢ - ارث عقيل لأبي طالب
٢٤٣	٣ - وهم ينهون عنه وينأون عنه
٢٤٦	آية النهي عن الاستغفار للمشرك
٢٥٢	الوجبة الأخيرة
٢٥٥	خطابيات وأرجاز المديني
٢٥٥	سرية إيمان أبي طالب
٢٥٦	ضرورة سرية إيمان شيخ الأبطح
٢٥٧	لماذا الافتراء على أبي طالب
٢٥٨	أبولهب ونصرة النبي (ص)
٢٥٩	سرافتعال الرواية

الفهارس ٣٦٣

الباب الثالث : من وفاة أبي طالب حتى الهجرة إلى الحبشة ٢٦١ - ٣٢٧

الفصل الأول: الهجرة إلى الطائف ٢٦٣ - ٢٧٤

لا بد من تحرك جديد ٢٦٥

الهجرة إلى الطائف في كلمات المؤرخين ٢٦٦

هجرات أخرى له (ص) ٢٦٧

١ - ما ذكر عن عداس ٢٦٨

٢ - دخوله (ص) مكة بجوار ٢٦٩

٣ - إسلام نفر من الجن ٢٧٠

٤ - الطائف وعلاقاتها بمن حولها ٢٧١

٥ - الإسلام دين الفطرة ٢٧٢

٦ - هل كانت هذه سفرة فاشلة ٢٧٣

الفصل الثاني: حتى بيعة العقبة ٢٧٥ - ٣٠٤

المجاعة ٢٧٧

عرض الإسلام على القبائل ٢٧٨

بنو عامر بن صعصعة ونصرة النبي (ص) ٢٨٠

١ - الأمر لله ٢٨١

٢ - سمو الهدف والنظرة الضيقة ٢٨٢

٣ - الدين والسياسة ٢٨٣

٤ - نتائج عرضه (ص) دعوته على القبائل ٢٨٣

زواج النبي (ص) بسودة وعائشة ٢٨٤

١ - سر عائشة ٢٨٥

من طرائف الروايات الموضوعة ٢٨٧

٢ - جمال عائشة وحظوتها ٢٨٩

٣ - حسد وغيرة عائشة ٢٩١

٣٦٤ الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) / ج ٣

وماذا بعد ٢٩٩

دخول الإسلام إلى المدينة ٣٣٠

١ - إخبارات أهل الكتاب ٣٠٢

٢ - المشاكل بين الأوس والخزرج ٣٠٣

٣ - تعاليم الشريعة السمحاء ٣٠٣

٤ - المدنيون والمكيون ٣٠٥

الفصل الثالث: بيعة العقبة ٣٠٧ - ٣٢٧

بيعة العقبة الأولى ٣٠٩

دعوة سعد بن معاذ قومه ٣١١

البيعة ٣١٢

صلاة الجمعة ٣١٣

بيعة العقبة الثانية ٣١٤

دور العباس في بيعة العقبة ٣١٩

أبو بكر في العقبة ٣٢٢

حمزة وعلي (ع) في العقبة ٣٢٢

سرية الاجتماع والتقية ٣٢٣

شروط البيعة ٣٢٤

لماذا النقباء ٣٢٤

المشركون في مواجهة الأمر ٣٢٥

منازعة الأمر أهله ٣٢٦

النبي لم يؤمر بالحرب بعد ٣٢٧

الباب الرابع: من مكة إلى المدينة ٣٢٩

الفصل الأول: ابتداء الهجرة إلى المدينة ٣٣١

حب الوطن من الإيمان ٣٣٣

٣٦٥ الفهارس
٣٣٥ دوافع الهجرة من مكة إلى المدينة
٣٣٩ سر اختيار المدينة
٣٤٥ المؤاخاة بين المهاجرين
٣٤٦ ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة
٣٤٦ المثل الأعلى
٣٤٧ هجرة عمر بن الخطاب
٣٥٠ ما هي الحقيقة إذن
٣٥١ ماذا عن الهجرة إلى المدينة
٣٥١ قریش والهجرة
٣٥٣ الفهارس
٣٥٥ الدليل الاجمالي للكتاب
٣٥٧ الدليل التفصيلي للكتاب

والحمد لله والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

